إبراهيم مياسي

من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر

ديوان المطبوعات الجامعية

إبراهيم مياسي

من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر

الطبعة الثانية

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر

© ديوان المطبوعات الجامعية 3-2007
رقم النشر 4376 .4.07
رقم (ر.د.م.ك) 9961.0.0383.7
رقم الإيداع القانوني: 175/99

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــداء

إلى كل الذين ضحوا بأغلى ما عندهم لتعيش الجزائر.

حرّة، أصيلـة، كريمـة...

إلى روح أخي الشهيد عبد الواحد بن عبد الرحمان مياسي.

المؤلف.

المقدمـــة

يضم هذا الكتاب مجموعة من البحوث والمقالات، كتبت في فترات متباعدة، وفي مناسبات مختلفة، لكنها تتمحور كلها حول اهتمام واحد هو، تاريخ الجزائر، ونشر أغلبها في صحف ومجلات وطنية وعربية، وقد رأيت أن أجمعها بين دفتي كتاب حتى يستفيد منها الجميع ويسهل الرجوع إليها والانتفاع منها كل من الطلبة والباحثين والمهتمين بدراسة تاريخ الجزائر وتحتوي مواضيع هذه الدراسات على قضايا من تاريخ الجزائر المعاصر ابتداءا من أطماع فرنسا في الجزائر، وابراز الدوافع الحقيقية للاحتلال الفرنسي سنة 1830 ورد فعل الشعب الجزائري المتمثل في ثورة الأمير عبد القادر بمظاهرها المختلفة منها شروعه في بناء دولة الجزائر الحديثة بعدما ظهر الفراغ السياسي، عند سقوط حكم الداي حسين. وقد تزامن ذلك مع توسع الاحتلال الفرنسي في الجزائر واخضاع قسنطينة للنفوذ الاستعماري، ثم زحف الاحتلال نحو بوابة الصحراء، لاحتلال بسكرة عروس الزيبان، رغم المقاومة الباسلة التي قادها الحاج أحمد باي من جهة، وكفاح السكان تحت قيادة خلفاء الأمير عبد القادر منهم فرحات بن سعيد والحسن بن عزوز ومحمد الصغير بن أحمد بن الحاج من جهة أخرى. وما كادت أن تنطفىء جذوة المقاومة حتى اشتعلت مرة أخرى في شكل ثورة عنيفة، وهي ثورة الزعاطشة بقيادة الشيخ بوزيان، فكانت ملحمة جزائرية وعربية اسلامية تجسد فيها التضامن الوطني و القومي في أروع صوره، وكادت أن تحقق أهدافها لولا تكالب قوى الغدر والطغيان لابادتها عن آخرها.

ومن الشواهد التاريخية على انصهار واندماج أفراد الشعب العربي في بوتقة واحدة هي تغريبة بني هلال ومرورها بعدة أقطار وأقاليم عربية، منها الصحراء الجزائرية، التي استقرت بها وبذلك فقد ساهم بنو هلال في تعميرها، ومازال آثار ذلك قائما لحد الآن. هذا وقد حرصت فرنسا الاستعمارية على التوسع في الصحراء، غير أنها واجهت مقاومة ضارية من الأهالي، خاصة حينما أظهرت أطماعها في الأغواط لاحتلالها كعتبة هامة للولوج إلى الصحراء، كما واجهت القوات الفرنسية في الجنوب ثورة عاتية لاولاد سيدي الشيخ دامت حوالي نصف قرن (من 1864م — إلى 1908م) ففي المرحلة الأولى تزعم الثورة أولاد الشيخ سي سليمان، أما المرحلة الثانية فتزعمها الشيخ بوعمامة الذي تصدى للتوسع الاستعماري. في الصحراء.

ومما لا شك فيه هو أن إعادة كتابة تاريخنا الوطني يتطلب مجهودات جبارة، منها جلب الوثائق الأرشيفية الضرورية لكتابة التاريخ بطريقة علمية تتوخى الدقة والنزاهة لابراز الحقائق التاريخية، لأن التاريخ حقائق ووثائق، لهذا يجب الاهتمام بالوثائق الأرشيفية التاريخية في كتابة تاريخ المقاومة الشعبية الجزائرية، بل كتابة تاريخ الجزائر المعاصرة كله.

ومن أعلام الجزائر اخترنا الشيخ العلامة إبراهيم العوامر السوفي فهو من العلماء، الصلحاء الفقهاء، ومن المفكرين والمثقفين الذين وقفوا كسد منيع في وجه تمرير سياسة الادارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وخاصة منها محاربة الشخصية الوطنية، وقد سار على دربه الكثير من المجاهدين منهم الشيخ عبد العزيز الشريف الذي هو من كرام الرجال الذين أنجبتهم الجزائر، فهو ذلك الرجل الشريف الأصيل المبجل الذي جاهد من أجل الجزائر.

تلكم هي بعض المساهمات التي ترمي إلى إعادة بعث تاريخنا الوطني ضمن المدرسة التاريخية الجزائرية. حتى نأخذ منه العبر ونتفادى أخطاء

الماضي، حسب رأي إبن خلدون إذ يقول «....ان التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في اخلافهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، وحتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه، في أحوال الدين والدنيا»...

إذن هذه الدراسات تحاول تطبيق النظرية الخلدونية في التاريخ، فضلا عن أنها مستمدة من مصادر أساسية وأصول أولية متمثلة في وثائق أرشيفية تكشف لنا عن حقائق جديدة في مسيرة تاريخنا الوطني.

أرجو من الله تعالى العون والتوفيق في بناء صرح تاريخ الجزائر المعاصر، لأنه تاريخ مجيد ومشرف وجدير بالدراسة والنشر.

إبراهيم مياسي

دالي إبراهيم (الجزائر) 1998م.

قائمة المختصرات

- A.M.G.: Archives du ministère de la guerre. (Château de Vincennes). France.
- A.O.M.: Archives d'outre-mer (AIX-EN-PROVENCE).
- B.C.A.F.: Bulletin du comité d'Afrique française.
- B.L.S.: Bulletin de Liaison saharienne.
- B.S.G. Ar.: Bulletin de la société de géographie et Achéologie.
- B.S.G.: Bulletin de la société de géographie.
- R.A.: Revue Africaine.
- R.H.M.: Revue d'histoire Maghrébine.
- R.T.: Revue Tunisienne.
- S.D.: sans date.

دوافع احتلال فرنسا للجزائر(*)

تمهيـــد:

لا شك أن الجزائر تتمتع بموقع استراتيجي (جغرافي، سياسي) هام يجعلها عرضة لتقلبات السياسية والاقتصادية العالمية كما أنها تتأثر بالسيرورة التاريخية والتأثر فيه أيضا، ومنها ظهور الحركة الاستعمارية الأوروبية الحديثة، التي تكالبت وتنافست على المستعمرات في ما وراء البحار، وضمن هذا الاطار ظهرت أطماع فرنسا في الجزائر.

ذلك أن الدوافع التي أدت بفرنسا إلى احتلال الجزائر كثيرة ومتنوعة، وهي على العموم دوافع سياسية، وأخرى اقتصادية مرتبطة ومتداخلة ومتكاملة بعضها ببعض. وسنحاول في هذه الدراسة معالجة الأسباب السياسية والأسباب الاقتصادية وحدها.

لقد ظهرت الدولة الجزائرية الحديثة مع بداية القرن السادس عشر الميلادي، بإنتمائها إلى السلطنة العثمانية تحت قيادة «الباي لرباي» وبذلك بدأت معالم الحدود الاقليمية للدولة الجزائرية تظهر وتستقر تدريجيا، وينمو معها الكيان السياسي للجزائر المنفصلة عن تونس والمغرب الأقصى. وبذلك ظهر نوع من الشعور الوطني لدى المواطنين جعلهم يندفعون بكل ما يملكون من قوة وإمكانيات: لتدعيم هذه الدولة الفتية، وحماية هذا الوطن العزيز من الغاصبين المسيحيين المتعصبين.

---

(1) مجلة الرؤية، العدد الثالث، 1998.

وخلال القرن السابع عشر الميلادي بدأت الجزائر تنفصل تدريجيا عن الدولة العثمانية، ففي سنة 1659م اغتصب ديوان الانكشاريين أداة الولاية كلها، وبعد سنتين، أرسل الانكشاريون بالجزائر، وفدا لمقام القائد العام للأسطول. ووزير البحرية، وأجبروا الدولة العثمانية على قبول الأمر الواقع، وأصبحت السلطة التنفيذية بأيدي الانكشاريين.

وبمرور الزمن وحسب التطورات التي حصلت في البلاد، قرر ديوان الانكشارية أن يتولى الحكم آغا عن طريق الانتخابات، على أن يبقى في الحكم لمدة شهرين اثنين فقط، وتعتبر هذه الفترة، أي عهد الآغاوات الذي استمر إثني عشر عاما مليئة بالخلافات، وذلك أن الآغاوات المنتخبين للحكم حاولوا عدم التخلي عن مناصبهم، فقتلوا كلهم على اثر الثورات التي حدثت. وفي سنة 1671م، انتهت هاته الوضعية على إثر إنقلاب رؤساء القرصنة وتسليمهم السلطة، فغيروا بذلك شكل الحكومة، وانتخبوا دايا ليحكم الأوجاق حتى وفاته(1). وبذلك ظهرت الايالة الجزائرية المرتبطة إسميا بالدولة العثمانية، والتي لها نظام يشبه إلى حد ما النظام الجمهوري، لذلك أطلق عليها في أحيان كثيرة الجمهورية الجزائرية.

دعم الشعب الجزائري هذا النظام بكل ما يملك من قوة حتى تصبح هذه الدولة قوية ومهابة الجانب وهذا خلاف ما روجه الغرب بأن النظام العثماني في الجزائر هو استعمار تركي متجبر ذلك أن هذه اللحمة بين الشعب والحكومة جعلت الجزائر دولة عظيمة فرضت سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط. وفرضت أتاوات ورسوما على السفن المسيحية العابرة لهذا البحر.

---

(1) الدكتور أرجمند كوران، **السياسة العثمانية، تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، (1827—1847)**، نقله عن التركية، الدكتور عبد الجليل التميمي، تونس، 1974، ص 14—15.

كما أصبحت للجزائر، بهذه المكانة الرفيعة، روابط عديدة مع مختلف البلدان، ويظهر أن أوسع وأوثق هذه العلاقات كانت مع فرنسا فمنذ سنة 1561م، ربطت بين الجزائر وفرنسا في عهد هنري الرابع، علاقات وتقارب وصداقة بين البلدين، ثم تدعمت أثناء الثورة الفرنسية التي اندلعت سنة 1789م، لأن هذه الثورة قد جاءت بمبادىء وأفكار، تتلاءم وتتوافق مع النظام السياسي في الجزائر، بينما تتعارض وتتنافر مع الأنظمة الأوروبية، حينذاك.

وقد حاصرت الأنظمة الرجعية هذه الثورة في أوروبا، ولم تجد المساعدة إلا من طرف الجزائر، حيث وافق الداي على تقديم مساعدة إلى الجمهورية الفرنسية الفتية، أثناء حربها الثورية، وتتمثل هذه المساعدة في تقديم قروض بدون أرباح، وتموينها بالحبوب لتفادي فرنسا المجاعة[1].

وهذا فإن التزامات فرنسا المسجلة في هذه المناسبة لم تحترمها وتولدت عنها قضية غامضة لديون فرنسا والداي وتاجرين ويهوديين[2] أدت إلى نشوب أزمة حادة بين فرنسا والجزائر إنتهت بحادثة المروحة الشهيرة، ثم الحصار سنة 1827م وأخيرا الاحتلال سنة 1830م.

الأسباب السياسية:

لقد حاول الكثير من المؤرخين الفرنسيين خاصة والأوروبيين عامة، أن يجعلوا قضية المروحة هي السبب الرئيسي لاحتلال فرنسا للجزائر، لأن التمثيلية التي أتقن القنصل الفرنسي «بيار دوفال» أداء أدوارها خلقت بين الجزائر وفرنسا أزمة حادة أدت في الأخير إلى إرسال حملة من طرف فرنسا لتأديب الداي حسين باشا والثأر لكرامتها، كما كانت تزعم.

---

(1) MARCEL EGRETAUD, Réalité de la nation Algerienne, PARIS, Editions Sociales, 1961, p.41.42.

(2) حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، الجزائر، 1975، ص 177.

لكن الأسباب الفعلية والحقيقية لاحتلال فرنسا للجزائر تتمثل في عدة نقاط أخرى تتصدرها المطالب الاقليمية التي كانت فرنسا تريد الحصول عليها في الجزائر.

لقد عمدت الدبلوماسية الفرنسية الى تغليف هذه المطالب الاقليمية داخل عدد من المطالب الثانوية، التي أبرزتها واعتبرتها هي الأسباب الأساسية للأزمة القائمة بينها وبين الجزائر[1]. كما عملت أيضا على التمويه والتضليل حتى لا تظهر نواياها المبيتة في الجزائر وسمحت لممثلها «دوفال» أن يتحرك بحرية حتى يرسخ هذا المبدأ. «...ويؤكد هذا تجاه الدبلوماسية الفرنسية قبيل القطيعة وثيقتان: الأولى وهي المذكورة المؤرخة في 7 ديسمبر 1826م والتي بمقتضاها أعلنت الحكومة الفرنسية نيتها في فرض الحصار البحري على الجزائر. وذلك قبل حادثة المروحة بخمسة أشهر والوثيقة الثانية وهي الرسالة التي وجهها وزير الخارجية الفرنسي البارون «دي ماس» إلى الداي حسين بتاريخ 28 فبراير، والتي عدد فيها تظلمات فرنسا ومطالبها إزاء الجزائر عند هذا التاريخ...»[2].

وبذلك يظهر أن احتلال فرنسا للجزائر لم يكن بمحض الصدفة أو أنه حدث وليد الساعة بل أنها فكرة قديمة ترسبت واختمرت في أذهان قادة أوروبا منذ حملة شارل الخامس الإسباني سنة 1541م ثم التهديد والوعيد بالعواقب الوخيمة للويس الرابع عشر ملك فرنسا. ثم كان نابليون بونابرت يريد الجزائر، ففكر أكثر من مرة «في غزو بلادنا عندما خلا له الجو وسنحت له الظروف في أوروبا بعد معاهدة أميان (1802م) ومعاهدة تليسة (1807م)، وكان ينوي إنشاء القواعد لإيقاف هيمنة الإنكليز في البحر الأبيض المتوسط[3] وأقسم نابليون

(1) د. جمال قنان، «عنصر في الأزمة الجزائرية ــ الفرنسية عام 1827م، وحدة التراب الوطني» مجلة التاريخ، عدد خاص (الذكرى الثلاثون لأول نوفمبر) 1984، ص 9.
(2) المرجع السابق، ص 10.
(3) د. مولاي بالحميسي. «جانب من جوانب الصراع الجزائري الأوروبي، الجوسسة الغربية في الجزائر العثمانية»: مجلة الباحث، الجزائر، العدد الثالث، نوفمبر 1985، ص 18.

مرة عام 1802م أنه سينزل على شواطىء الجزائر ثمانين ألفا من جنوده الاشداء وأنه سيخرب البلاد ويذل أهلها حتى يوفر الأمن لأسطوله في حوض البحر الأبيض المتوسط لأن الجزائر ذات موقع استراتيجي هام(1).

وبعد هزيمة نابليون ونفيه إلى جزيرة سان هيلان بالمحيط الأطلسي، رجع النظام الرجعي إلى فرنسا، وذلك بمقتضى تسوية مؤتمر فينا 1815م، أي بمعنى إعادة تنصيب النظام القديم الذي كان سائدا قبل الثورة (1789م)، ومن الملوك الذين برزوا في هذه الفترة، واشتهروا بالرجعية، الملك شارل العاشر الذي عايش ولو من بعيد أحداث الثورة، وشاهد إذلال أسرته لهذا فهو يكره ويعادي أفكار الثورة الفرنسية وأنصارها وحتى الدولة الجزائرية التي ساندتها. فعمل على تعطيل البرلمان وخنق الحريات، ومطاردة الأحرار مما جعله منبوذا من طرف الشعب الفرنسي الذي ذاق حلاوة الحرية والديمقراطية، وتشبع بهما مع الثورة لذلك ظهر استياء عام نتيجة الحكم المطلق وتعفن الأوضاع السياسية، وانتشار التعسف والظلم.

ومن أجل امتصاص غضب الشعب قرر شارل العاشر إرسال حملة إلى الجزائر، وهي مغامرة خطيرة ليلفت بها أنظار الرأي العام الفرنسي.

أما على الصعيد الخارجي، فقد حاول السلطان العثماني التدخل في هذه المسألة بإيعاز من بريطانيا. وقد بعث بموظف سام وهو الطاهر باشا كاتب عنه لمحاولة حل هذه المشكلة(2). ولكنه أبعد من طرف فرنسا(3).

---

(1) د. محمد العربي الزبيري، **مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي**، الجزائر. 1972، ص 8.
(2) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية — كي دورسي — باريس — مراسلة بين رئيس الوزراء، بولنياك والطاهر باشا Memoires et documents Algerie (1790-1827), Tome XVI
(3) CHARLES-ANDRE JULIEN, **Histoire de l'Algerie Contemporaine**, Tome I La Conquête et les debuts de la colonisation, (1827-1871), 2eme Edition, PARIS, 1979.

هذا وقد وجدت فرنسا التأييد التام من قبل المحفل الأوروبي باستثناء بريطانيا التي أبدت بعض التحفظات من الحملة الفرنسية على الجزائر لأنها في تنافس دائم معها وخاصة أنها أصبحت تتمتع بنفوذ سياسي في شبه جزيرة اليونان في هذه الأثناء. فإن فرنسا أرادت أن تسبق الزمن بالحصول على مكاسب موازية في مكان آخر من حوض البحر المتوسط وفي الجزائر بالذات[1].

أما الأسباب المباشرة للاحتلال، فهي أن حسين باشا داي الجزائر، قد أرسل ثلاث رسائل إلى الحكومة الفرنسية منذ سنة 1824م، ولم يتلق الرد على أي منها لذلك غضب على فرنسا، ومما زاد في غضبه هو تسلح الباستيون رغم وعد الشرف الذي قطعه «دوفال» بشأن عدم تحصين المراكز التجارية الفرنسية بالقالة.

وفي 29 أفريل 1827، سأل داي الجزائر القنصل "دوفال" الذي قدم للتهنئة بعيد الفطر، عن سبب عدم رد الحكومة الفرنسية على رسائله[2]. فكان جواب "دوفال" في منتهى الوقاحة ولا يليق بهذا المقام، حيث جاء كالآتي:

«إن حكومتي لا تتنازل لاجابة رجل مثلكم» وكانت هذه الكلمات . أمام ديوانه، حيث مست كرامته إلى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الغضب، ونهض من مكانه وضربه بالمروحة[3].

---

(1) قنان، المرجع السابق، ص 12.
(2) كوران، المرجع السابق، ص 21.
(3) حمدان خوجة، المرآة، ص 180.

وبعد هذه الحادثة. وحسب الوثائق التي تحصل عليها المؤرخون، فإن الداي حسين، لم يتردد في شرح موقفه، وبأنه لا يريد إهانة فرنسا، وإنما المسألة هي قضية شخصية بينه وبين رجل أعمال يكرهه(1).

ورغم ذلك عزمت فرنسا على تنفيذ مشروعها، وهو التدخل العسكري ضد الايالة الجزائرية، ولكنه لم يقرر إلا بعد ثلاث سنوات، وهذا التأخر يعني أن ادعاءات فرنسا الانتقامية هي ادعاءات خاطئة، وإنما تدخلها يخدم أغراضا أخرى هي:

أ ــ إيجاد ميدان للجيش الفرنسي الذي كونه نابليون والذي يفرض عليه مؤتمر فينا البقاء المستمر في الثكنات، ويعتبر هذا في نظر الجميع خطرا يهدد الحكم القائم من حين لآخر.

ب ــ شغل الرأي العام الفرنسي الذي كان في ضيق اقتصادي، وكان يهدد بالانفجار.

ج ــ عمل شارل العاشر وأنصاره على كسب أكبر عدد ممكن من المقاعد في الانتخابات التشريعية التي تحدد إجراؤها عام 1830م، وتكون حملة الجزائر أكبر وسائل الدعاية الانتخابية(2).

أقدمت الحكومة الفرنسية على عملتها الشنيعة بعد أن قدمت تبريرات واهية، وتذرعت بحجج هشة بالية، منها أنها لا تنوي سوى تأديب الأتراك البغاة وتخليص أهالي الجزائر من حكمهم الجائر. وبذلك موهت الحكومة الفرنسية على أهالي الجزائر لتضمن حيادهم، ومن جملة ما جاء في البيان الذي وزع على الجزائريين من طرف قائد الحملة مايلي:
«يا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي إليكم من شعب المغاربة،

---

(1) EGRETAUD, op.cit., p48.

(2) الزبيري، المرجع السابق، ص 9.

أن الباشا حاكمكم من حيث أنه تجرأ على بهذلة يرق فراسة المستحق كل الاعتبار وأقدم على إهانته فقد سبب بجهله هذا كل ما هو عتيد أن يحل بكم من الكوارث والمضرات...فلا بد أن هذا الباشا حاكمكم من قلة بصيرته وعماوة قلبه قد جذب على نفسه الانتقام المهول وقدمنا منه القدر المقدر عليه وعن قريب يحل به ما استحقه من العذاب المهين أما أنتم ياشعب المغاربة اعلموا وتأكدوا يقينا أني لست آتيا لأجل محاربتكم فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة سر ثم أني أحقق لكم أنه ليس فينا من يريد يضركم لا في مالكم ولا في أعيالكم ومما أضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ماهو لكم صغيرا كان أو كبيرا يبقى على ماهو عليه ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا بل يكون في أيديكم دائما فآمنوا بصدق كلامي ثم إننا نضمن لكم أيضا ونعدكم وعدا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ماهي الآن عليه».

أما بالنسبة للرأي العام العالمي فقد أدعت فرنسا أنها تهدف من وراء حملتها هذه إلى القضاء على القرصنة واستئصال جذورها من جهة وإلى تحرير العبيد المسيحيين الذين استرقهم المسلمون من جهة أخرى، لذلك لم تعارض الدول الأوروبية على مشروع إرسال حملة ضد الجزائر غير أن بريطانيا قد أبدت تحفظاتها ــ كما ذكرنا سابقا ــ وسعت الدبلوماسية البريطانية خلال شهر ماي 1830م إلى جعل الفرنسيين يتعهدون بعدم احتفاظهم بالجزائر في حالة نجاح حملتهم وعندما تلكأ هؤلاء في الرد قدمت حكومة لندن مذكرة يوم 3 جوان 1830 إلى باريس أعلنت فيها معارضتها لكل المشاريع الطموحة إلى التوسع(1) وأكدت على تبعية الايالة الجزائرية للامبراطورية العثمانية.

(1) قنان، المرجع السابق، ص 37.

وهكذا نزلت القوات الفرنسية إلى أرض الجزائر وبعد معارك ضارية، دامية استسلم الداي وأمضى معاهدة الجزائر في الخامس من جويلية 1830م، وتنص على أن تحترم حرية الأهالي وعقيدتهم ونساؤهم ومعتقداتهم ومتاجرهم، وتزول السيادة التركية، غير أن فرنسا لم تف بالعهود وقررت احتلال الجزائر احتلالا كاملا سنة 1834م ثم جاءت الجمهورية الفرنسية الثانية (فبراير 1848) فجعلت الجزائر دستوريا مقاطعة فرنسية.

أمام هذه الأحداث الجسام لم تحرك الدولة العثمانية ساكنا، نظرا لضعفها خارجيا ومشاكلها داخليا، فلم تستطع أن تلعب الدور الحاسم لانقاذ الجزائر، مما جعل أتراك الجزائر والأهالي يشعرون بالضعف والهوان، لذلك إعتقد القادة الفرنسيون أن الجزائر قد فتحت لهم أبوابها واسعة واغتر الجنرال «دي بورمون» قاعد الحملة فكتب يقول إلى حكومته: «إن العرب ينظرون إلينا كمحررين لهم، وإن الجزائر ستصبح مفتوحة كلها وتحت نفوذنا قبل مضي خمسة عشر يوما». غير أن الأحداث التاريخية قد كذبت قول الجنرال وإن الجزائر لم تخضع كلية لهم إلا بعد مضي أكثر من قرن لأنهم تعرضوا لمقاومة يومية من طرف الشعب أينما حلوا في جزء من أجزاء البلاد، وأن الجهاد لم يتوقف حتى رجع العدو من حيث أتى.

وهكذا يتبين لنا أن احتلال الجزائر هو بمثابة حلقة من سلسلة الاستعمار الأوروبي الحديث الذي تطور بشكل ملموس وواسع جدا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، واستهدف كامل الوطن العربي والعالم الإسلامي.

إن استعمار فرنسا للجزائر يعتبر تحقيق حُلُمَهَا القديم، وهو تكوين إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف، تمتد من البحر الأحمر شرقا إلى

المحيط الأطلسي غربا، وهي إمبراطورية لا تبعد كثيرا عن «الوطن الأم» حيث يسهل تسييرها والسهر عليها والدفاع عنها إذا ما لزم الأمر.

الأسباب الاقتصادية

أما الأسباب الاقتصادية التي حثت فرنسا على احتلال كامل التراب الجزائري فهي كثيرة ومتنوعة أيضا، منها جعل الجزائر مستعمرة تنقل إليها الأموال وتنقل منها المنتجات التي لا يمكن إنتاجها في الوطن الأم، بالاضافة إلى جلب المعادن الضرورية لدوران عجلات الصناعة في فرنسا كذلك جعلها مستوطنة لاعداد كبيرة من الفرنسيين خاصة والأوروبيين عامة، الذين سوف يستولون على أجود الأراضي لاستغلال ما فوقها وما تحتها من كنوز وخيرات وثروات طائلة، واطفاء ظمأ البورجوازية الفرنسية التي وصلت إلى السلطة مع قيام الثورة الفرنسية سنة 1789م، بعد أن تحطمت دولة الاقطاع إذلك أن خلال الحروب النابليونية إزدهرت الصناعة الفرنسية وتكدست منتوجاتها وفاضت على حاجة البلاد، ولم تجد الأسواق الواسعة لامتصاصها، بينما نمت البورجوازية الانكليزية في هاته الفترة على حساب فرنسا التي ضيعت بعض مستعمراتها بعد سقوط نابليون، فغزتها البورجوازية الانكليزية، بينما الانتاج الاقتصادي للبورجوازية الفرنسية قد ازدهر كثيرا مما جعل هذه الطبقة تندفع في سياسة استعمارية نشيطة وتدخل حلبة التنافس والتصارع، بل والتقاتل من أجل توسيع دائرة النفوذ، وبناء المستعمرات التي هي بمثابة البقر الحلوب للدول الاستعمارية.

وهكذا لما شرع شارل العاشر في إرسال حملته ضد الجزائر، إنضمت البورجوازية إلى المعارضة، حتى تتمكن من تغيير الحكم، وتبعد سياسة «بولنياك» رئيس الحكومة، ثم تنصيب «لويس فليب» الملقب «بالملك البورجوازي»(1).

---

(1) EGRETAUD, op.cit, p.48.

وبعد أشهر قليلة من سقوط الجزائر حتى صرح الجنرال «جرار» (GERARD) وزير الحرب في حكومة لويس فليب بمايلي: ...«إن هذا القرار (وهو الاحتفاظ بالجزائر) يرتكز على أسباب جد هامة وجد مرتبطة بصيانة الأمن العام في فرنسا وحتى في أوروبا: وانفتاح منطلق واسع للفائض من سكاننا ولتصريف بضائعنا وتبادلها ببضائع أخرى أجنبية عن أرضنا وعن مناخنا»(1). ولكن سرعان ما تفاجأ المستعمر حينما وجد أن مناخ الجزائر الشمالية يشبه إلى حد كبير مناخ فرنسا، وبالتالي فإن الأنواع الزراعية المنتجة في الجزائر هي نفسها الموجودة في فرنسا، لذلك عزمت على التوغل إلى الصحراء عسى أن تتحصل على منتوجات الأنتيل والهند والمناطق الحارة.

كذلك لاحظ فيما بين 1830م و1848م أن الاقتصاد الرأسمالي في فرنسا قد أخذ انطلاقة واسعة، لأن البورجوازية قد وجدت في الجزائر مرتعا لدفع وتطوير مصالحها، فعملت على تحويل الحملة على مدينة الجزائر إلى احتلال كامل القطر.

وحينما تردد «لويس فليب» في السنوات الأولى بين الاحتلال الجزئي أو الغزو الكلي للجزائر، فإن البورجوازية الفرنسية قد مدت له يد المساعدة من أجل تدعيم القوات الفرنسية في الجزائر، وتثبيتها. ذلك أن «تيير» (THIERS) رئيس الوزراء، قد قدم إلى الجنرال «بوجو» (BUGEAUD) الذي كان يقوم بعمليات التوسع في الجزائر امكانيات هامة. وقد كتب الجنرال «بوجو» سنة 1842 م إلى السلطات الفرنسية يقول: ...«ستطلب الجزائر ولمدة طويلة المنتوجات الصناعية من فرنسا بينما تستطيع الجزائر تزويد فرنسا بكميات هائلة من المواد الأولية اللازمة للصناعة»(2).

---

(1) Ibidem.

(2) فكري طونا، «النظرة الفرنسية إلى الأراضي الجزائرية، من حيث جودتها وقيمتها الاستراتيجي»، مجلة التاريخ، عدد 18 الجزائر، 1985، ص169..

لذا رأت البورجوازية الفرنسية أن احتلال الجزائر سوف يجلب لها الخير الكثير، باعتبارها سوقا رائجا لبضائعها وموردا هاما للمواد الخام، وخاصة في الجنوب الزاخر بالمعادن، كذلك يمكن جلب الأيدي العاملة الرخيصة لصناعتها بالاضافة إلى توطين الفائض من سكان فرنسا وحتى أوروبا، والذين سوف يتوجهون إلى تنمية الزراعة، لأن هذه الأراضي فضلا عن أنها قريبة من فرنسا، فإنها خصبة وصالحة للحرث والزراعة، كذلك قادرة على اعطاء الأنواع المختلفة من الثمار، لذلك فمن المحتمل أن الجزائر سوف تصبح في يوم من الأيام مخزن أوروبا ومطمورها، مثل ما كانت عليه في العهد الروماني.

لقد صرحت إحدى الجرائد الباريسية في ذلك الوقت تقول: «... ونظرا لكل هذه الاعتبارات من جودة وخصوبة الأراضي وقرب المسافة بينها وبين فرنسا، والسهولة الملموسة في الأسفار البحرية، وخاصة استخدام البواخر التجارية في مدخل البحر الأبيض المتوسط... يمكن أن يقال بأن الجزائر لا بديل لها ولا تماثلها منطقة أخرى في العالم بالنسبة لفرنسا، ولا ريب أن أول من سيقطف ثمار هذه الأعمال وينال فوائدها هم الفرنسيون الذين يستوطنون في الجزائر ويستعمرون أراضيها...»[1]

وتؤكد هذه الصفحة على الموقع الاستراتيجي الهام للجزائر وسهولة السفر إليها بدون مخاطر، وذلك بمقارنتها مع العالم الجديد (أمريكا)، فتقول: «...أما الذهاب إلى أكثر الأراضي المكتشفة الجديدة بأمريكا فلكونه يتحقق عن طريق البحر المحيط لا يخلو إطلاقا عن المخاطر والمصائب وبالفعل لقد هلك الكثير من المهاجرين منذ زمن بعيد في هذا الطريق المخيف وبناء على

---

(1) نفسه.

هذا الأساس... ولكون الجزائر أكثر نفعا من أراضي تلك البقاع البعيدة فإن فرنسا لا يمكن أن تتخلى عنها وتركها لما يترتب وينتج من أضرار هامة لا تتفق مع مصلحة المملكة الفرنسية العظيمة[1].

الاستنتاج

نجح الاستعمار الفرنسي في تملك الأراضي الجزائرية في مدة أقل من ثلاثين سنة من عام 1871م إلى عام 1889م حوالي مليون هكتار، بينما من سنة 1830م إلى سنة 1870م قد تحصل على 481000 هكتار، كذلك تطور التعمير السكاني من 119000 ساكن في سنة 1871م إلى 200000 ساكن سنة[2] 1903 ومعنى ذلك أنه كلما مكث الاستعمار في الجزائر بفترة أطول كلما ازداد توسعه، وبالتالي ازدادت فوائده، بحيث نجد في آخر عهده قد وصل عدد المستوطنين الأوروبيين بالجزائر ما يقارب المليون نسمة، أما الأراضي فقد استحوذوا على حوالي خمسة ملايين من الهكتارات من جملة سبعة ملايين صالحة للزراعة.

ومما لا شك فيه أن أطماع فرنسا في الجزائر كانت بلا حدود حيث زاحمت وحرمت أهل البلاد من الخيرات، فقد عرفت الجزائر إبان هذه الحقبة السوداء من تاريخنا أقصى درجات الحرمان والبؤس، فخلقت فرنسا الشروط التشريعية لكي تستولي على كل مظاهر الحياة الاقتصادية في الجزائر، وتقوض أركان الاقتصاد الوطني الجزائري تدريجيا، ليحل محله الاقتصاد الاستعماري، وأثقل كاهل الأهالي (الجزائريين) بفرض الضرائب المتعددة التي يطلق عليها الضرائب العربية، لنهب مابقي للجزائريين المسلمين من وسائل العيش، ولتجعلهم أجراء، يشتري المستعمرون قوة عملهم بأجور زهيدة، لا تسمن

---

(1) المرجع السابق، ص 202—203.

[2] Charles-Robert AGERON, **Histoire de l'Algérie contemporaine** (1830 1973),que sais-je? n° 400, 5 edition, PARIS, 1974, p.51-52.

ولا تغني من جوع، كما حرمتهم من كل الحقوق المدنية والسياسية. وعاملتهم وكأنهم أجانب في وطنهم حتى قبل تشييد صرح نظام إجتماعي جديد وصارت السيادة لهم والعبودية لنا، واستأثروا بجميع الحقوق ــ استولوا على الوظائف العمومية وعلى المهن الحرة ــ فهم يحتكرون التجارة ورؤوس الأموال ويشرفون على الأمن العمومي فمنهم الموظف السامي والمهندس والأستاذ وصاحب الأبناك وصاحب المعامل والقاضي والشرطي وصاحب الدرك وموظف السكة الحديدية والبواب وهلم جرا...[1].

هكذا لم يبق للجزائري أية وظيفة سوى أن يكون خادما ذليلا عند المستعمرين فانتشر الثالوث الأسود. (الجوع ــ المرض ــ الجهل)، ذلك أن الجزائر لم تكن تشكو من الأمراض أو المجاعات أو حتى نقص الانتاج، بل كان فائض إنتاجها يصدر إلى أوروبا وإلى فرنسا بالذات، فتحول هذا الرخاء إلى شدة وبؤس وفاقه.

إذن فالعبرة لمن يعتبر، وحذار من مغبة الأطماع الأجنبية فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين.

إبراهيم مياسي

دالي إبراهيم ــ مارس 1996

(1) فرحات عباس، **ليل الاستعمار**، نقله إلى العربية أبو بكر رحال، المحمدية، المغرب، 1962، ص 96.

بناء دولة الأمير عبد القادر(1)

لقد عرفت الجزائر عبر تاريخها الطويل عدة شخصيات عظيمة تستحق الذكر والتمجيد، لما قدمته من أعمال جليلة وتضحيات جسيمة، تبقى خالدة على صفحات سجل تاريخ الجزائر.

من أبرز هذه الشخصيات، شخصية الأمير عبد القادر الفذة، والتي لم تنل العناية الكافية لدراسة كل شيء عنها، واستنطاق جميع الوثائق والمصادر التاريخية المتعلقة بمسيرتها فأهم انجازات الأمير بناء الدولة الجزائرية الحديثة على أسس شرعية وقانونية.

ذلك أن الأستعمار الفرنسي حينما قدم إلى الجزائر أدعى أن هدفه هو تأديب الأتراك البغاة وتخليص أهالي الجزائر من حكمهم الجائر، ثم أنزلت القوات الفرنسية إلى أرض الجزائر، وبعد معارك دامية استسلم فيها الداي وأمضى معاهدة الجزائر في الخامس من جويلية 1830، والتي تنص على أن تحترم حرية الأهالي وعقيدتهم ونساءهم وممتلكاتهم ومتاجرهم، وتزول السيادة التركية، غير أن فرنسا لم تف بالعهد وقررت احتلال الجزائر احتلالا كاملا، بعد أن داست على البلاد والعباد.

وأمام هذه الأحداث الجسام لم تلعب الدولة العثمانية الدور الحاسم لانقاذ الجزائر، مما جعل الأهالي وأتراك الجزائر يشعرون بالضعف والهوان، ولا يعتمدون على السلطات الرسمية للدفاع عنهم، حيث أخذت سيادة هذه السلطة تذوب وتتساقط كأوراق الخريف في مختلف أنحاء البلاد ذلك أن

---

(1) جريدة «المساء» الأحد 08 صفر 1409—1988/09/18 والثلاثاء 10 صفر 1409—1988/09/10 العدد 921.

الاحتلال الفرنسي للجزائر قد محا جميع معالم الدولة الجزائرية، وحكم البلاد حكما مباشرا (حيث لا يوجد من يتكلم باسم الأهالي، لا في شكل حكومة أو في شكل حزب أو هيئات محلية، ولا توجد أي واسطة بين السلطات الفرنسية وسكان الجزائر)، ودخلت البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب ليس لهما مثيل، حيث بدأت تصفية الحسابات بين القبائل والأفراد وكثر السطو والنهب والقتل، ويقول محمد بن عبد القادر، في تحفة الزائر: «ولما اشتد الأمر، وكثر القتل، وعظم الكرب، تداعى أهل العقد والحل، من الأشراف والعلماء والأعيان، للنظر في من اجتمعت فيه شروط الامارة، ليبايعوه، ويجمع كلمتهم، ويقوم بشؤونهم»(1) وقد عقد العلماء والأشراف والأعيان عدة اجتماعات وتدارسوا الأمر وتشاوروا فيه، وعرضوا الامارة على محي الدين نظرا لما يتمتع به من مكانة خاصة عند القبائل المختلفة، ولكنه أشار عليهم بالتوجه إلى السلطان المغربي، وباعتباره أقرب سلطة اسلامية شرعية بالمنطقة، كما أنها تمتلك الامكانيات اللازمة للجهاد والوقوف في وجه دولة عظيمة مثل فرنسا.

لذلك توجه وفد جزائري من الأعيان نحو فاس، يحمل الهدايا إلى السلطان المغربي، وقد استقبل السلطان عبد الرحمن البعثة الجزائرية بكل حفاوة ووعدها بتلبية مطالبها، وعين ابنه على امارة المغرب الأوسط، وكان على رأس 5000 خمسة آلاف فارس ومدفعي ميدان، معسكرة في تلمسان، وقد أسرع محي الدين وعبد القادر، مع كل رؤساء بني هاشم، ورؤساء بني مجاهر وبني عامر، وغيرهم من القبائل، لكي يعلنوا ولاءهم لابن وممثل

(1) محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر** الطبعة الثانية، شرح وتعليق ممدوح حقي، بيروت، 1964، ص 147/146.

سلطانهم الجديد، وبسرعة اعترفت البلاد كلها بسلطته. وكانت الخطبة تعلن باسم سلطان المغرب في كل المساجد[1].

وهكذا أصبحت الجزائر تحت العرش المغربي، ولكن الحكومة الفرنسية لم تقبل بهذه العلاقة الجديدة بين أهالي الجزائر والسلطان عبد الرحمن، فانذرته وطلبت منه الانسحاب من الجزائر أو الحرب: فأمر ابنه بالعودة من تلمسان في الحال، فرجعت البلاد على ما كانت عليه، من الاضطراب، والفوضى، والغوغاء.

وأمام هذا الوضع الخطير الذي عاشته الجزائر من فراغ سياسي وهجوم استعماري ألح المرابطون والأعيان والرؤساء على محي الدين أن يقبل الامارة، فقال لهم: «انكم جميعا تعرفون أنني رجل سلام مكرس نفسه لعبادة الله، وأن الحكم يقتضي استعمال القوة بغلظة وسفك الدماء. ولكن ما دمتم تصرون على أن أكون سلطانكم فإني أقبل، ولكن اتنازل عن ذلك لصالح ابني عبد القادر»[2].

ولقد فوجيء الجميع بهذا الحل السعيد، فانتشرت البشائر وعمت الفرحة أرجاء البلاد؛ ويقول نجله في تحفة الزائر: «وتباشر الناس لذلك، لما رأوا من أقدامه للزحف، واقتحامه الصف بعد الصف، وشاهدوا فيه من الصفات العلية والنعوت السنية، فاجتمع اشرافهم وعلماؤهم وأعيانهم.

وتداعى صغيرهم وكبيرهم، وخيموا «بوادي فروحة، من «غريس» عند شجرة عظيمة، كانوا يجتمعون إليها، للشورى بينهم...»[3] وجلس

---

(1) شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر تونس، 1974 ص 54.

(2) نفس المصدر، ص 56.

(3) محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر**، ص 155.

الأمير عبد القادر تحت الشجرة وقام والده، فبايعه على السمع والطاعة، ودعا له، ثم لقبه «ناصر الدين»، وقام عمه علي أبي طالب وبايعه، ثم الاخوة وسائر الأقارب، والأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء، على حسب مراتبهم وطبقاتهم، وتجدر الاشارة هنا إلى الإتفاق الغريب بين هذه البيعة وبيعة الرضوان، واقتفاء أثر الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد نوه الله تعالى في القرآن الكريم ببيعه الرضوان بقوله: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ بايعونك تحت الشجرة».

وبعد أن انتهت البيعة للأمير، دخل مدينة معسكر، وقد غصت كل الشوارع والطريق بالرجال والنساء والأطفال لتعبر عن سرورها وبهجتها وترحيبها بسلطانهم الشاب الجديد.

وفي اليوم التالي (22 نوفمبر 1832) ذهب عبد القادر إلى وادي خصيبية الذي يبعد مسافة عشر دقائق من معسكر، وكان هناك في الانتظار عشرة آلاف فارس عربي للاستقبال والترحيب برئيسهم المنتخب الجديد، كانوا قد اصطفوا في شكل هلال، حسب قبائلهم، حول خيمة ضخمة نصبت وسط السهل، وكان جميع أهالي معسكر قد تجمعوا أيضا في المنطقة(1) فتقدم الموكب الرسمي وسط الزحام الشديد، وترجل الأمير عبد القادر نحو الخيمة ثم تقدم محي الدين أخذا عبد القادر من يده لتقديمه إلى الشعب، وقال: «أنظروا هذا هو السلطان الذي أعلنته النبوءة !» «وهذا هو ابن الزهراء ! أطيعوه كما لو كنتم تطيعونني، الله يحفظ السلطان !» فرد الناس «حياتنا، وأملاكنا، وكل ما عندنا له ! لن نطيع قانونا غير قانون سلطاننا عبد القادر.

وقد أجاب الأمير على ذلك بقوله: «وأنا بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن، لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده. فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات».(2).

---

(1) تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 58.
(2) نفس المصدر، ص 59/58.

وبعد مراسيم الاحتفال طالب الأمير من عمه علي أبي طالب بن مصطفى بن مختار أن يحرر له صك البيعة، ثم أمر مجلس العلماء أن يكاتبوا رؤساء القبائل في جميع أنحاء البلاد لتبليغهم بأمر البيعة، «وأن الامارة الاسلامية، والقيام بشعائر الملة المحمدية، قد آل أمرهما الآن إلى ناصر الدين، السيد عبد القادر بن محي الدين» وأنه سوف يطبق الشريعة المطهرة ولا يقتفي آثار الأتراك من قبله.. لا يصرف شيئا من المال إلا بوجه الحق، وقد نشر أيضا راية الجهاد، لنسلاح البلاد.

ثم صدرت أوامر الأمير، إلى سائر القبائل العربية والبربرية، ونصها: «الحمد لله، إلى قبيلة كذا..خصوصا اشرافها وعلماؤها وأعيانها، وفقكم الله، وسدد أموركم، وبعد، فإن أهل معسكر وغريس الشرقي والغربي، ومن جاورها، واتحد بهم، قد أجمعوا على مبايعتي، وبايعوني على أن أكون أميرا عليهم، وعاهدوني على السمع والطاعة، في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في اعلاء كلمة الله. وقد قبلت بيعتهم، وطاعتهم. كما أنني قبلت هذا المنصب، مع عدم ميلي اليه، مؤملا أن يكون واسطته لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام من بينهم وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو، واجراء الحق والعدل، نحو القوي والضعيف، فلذلك ندعوكم لتتحدوا، وتتفقوا جميعا، واعلموا أن غايتي القصوى، اتحاد الملة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله اتكالي في ذلك كله، فاحضروا لدينا، لتظهروا خضوعكم، وتؤدوا بيعتكم.

وفقكم الله وارشدكم».

حرر عن أمر ناصر الدين، عبد القادر بن محي الدين، من معسكر في الثالث من رجب سنة 1248هـ. وفي السابع والعشرين من نوفمبر 1832م.

البيعة الثانية

وهكذا انتشرت أخبار البيعة الأولى، فسارعت الوفود التي تمثل مختلف القبائل إلى المثول أمام الأمير، وما تقاعص إلا القليل منهم، وانعقد مجلس عام، حضره الجمهور من العلماء والأشراف والرؤساء من كل قبيلة وقرية، وجرى فيه عقد البيعة الثانية، وقد حررت وثيقة أخرى لهذه البيعة قرأت على الملأ وتولى كتابتها العلامة محمود بن حوا المجاهري،وجاء في هذه الوثيقة بعد الديباجة الطويلة:

«لما انقرضت الحكومة الجزائرية، من سائر المغرب الأوسط، استولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران، أعادهما الله دار إيمان وإسلام بجاه النبي (عليه السلام)، وطمحت نفسه العاتية، إلى الاستيلاء على السهول والجبال...قام من وفقهم الله للهداية، وظهرت عليهم العناية، من رؤساء القبائل وكبائرها وصناديدها وزعمائها، فتفاوضوا في نصب إمام، بايعونه على الكتاب والسنّة، يسمعون لأمره ونهيه، ويتابعونه في جميع أحواله، وجالوا في ميدان أفكارهم، فيمن هو لذلك أهل، من ذوي الكمال والفضل، فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل، إلا ذا النسب الطاهر، والكمال الباهر، رأس الملة والدين، قامع أعداء الله الكافرين، أبا المكارم، السيد عبد القادر، إبن مولانا السيد محي الدين، أيد الله به الاسلام والمسلمين...»[1].

وقد حضر هذه البيعة سائر العلماء والأعيان من معسكر، وقلعة هوارة، وأحوازها: كبني شقران وبني غدوا، وسجرارة، وقبائل غريس،

---

(1) محمد بن عبد القادر تحفة الزائر، ص 164.

وأحيائه وعمائره وعشائره، وأعيان القبائل الشرقية، كالعطاف، وسنجاس، وبني القصير، ومرابطي مجاجة، وصبيح، وبني خويدم وبني العباس، وعكرمة، والمحال، وفليته، والمكاحلية.. وأحلافهم، وأعيان مجاهر، والبرجية، والدوائر. والزمالة، والغرابة، وكافة قبائل اليعقوبية من الجعافرة، والخساسنة، وبني خالد وبني ابراهيم ثم القبائل، وصدامة، وخلافة وغيرهم من قبائل الجزائر.

وقعت هذه في 13 رمضان 1248هـ الموافق لـ4 فبراير 1833م، وبها انتقلت السلطة في الجزائر إلى الأمير عبد القادر ليس عن طريق الوراثة أو التعيين وإنما عن طريق الانتخاب والبيعة ورضى الأهالي، وبذلك تعتبر سلطة الأمير سلطة شرعية قانونية، لأنه قد وضع بهذا الاجراء الحجر الأساسي لبناء دولته على أسس ثابتة وقواعد سليمة، ثم أنه أكد أيضا استمرارية سيادة الدولة الجزائرية، ولكنها في ثوب جديد متمثل في عناصر جزائرية أكثر ارتباطا بالأرض، واهتماما بمصالح السكان، وذلك بعد انتهاء دور العناصر العثمانية.

وبعدما استقر الوضع، واستتب الأمر للأمير، شرع في ارساء قواعد دولته على أسس اسلامية وعصرية، كما تصدى لتنظيم المقاومة لطرد الغاصب من البلاد، ومن هنا تبدأ عبقرية الأمير عبد القادر تتفتق وتظهر، رغم صغر سنه، فقد أظهر مقدرة كبيرة في بناء دولة عصرية تقوم على تنظيم إداري محكم، وجيش منظم، وعدالة صارمة، ونظام ضريبي دقيق، وإقامة مصانع لسد حاجة السكان، وتأسيس مراكز للتعليم وغيرها من المرافق العامة، لذلك بدأ في تنصيب هياكل مدنية وعسكرية صلبة مرتكزة على ثلاثة مبادىء أساسية هي:

1 — سلطة صارمة ومطلقة، ولكنها مقبولة من الجميع.

2 — اعتبار الدين الاسلامي المحرك الأساسي للشعب.

3 ـــ المصلحة العامة للجميع وتدعيم الوحدة الشعبية.[1].

ألف الأمير حكومة مركزية سميت بالديوان، وكان مقرها معسكر «تأنسا لأهل غريس وتطيبا لنفوسهم» ثم أصبحت تنتقل حسب ظروف الحرب، وعين على رأس هذا الديوان الوزير الأول أو الخوجة الكبير، وشغل هذا المنصب السيد محمد بن العربي ويساعده ثلاث نواب هم السيد أحمد بن علي أبو طالب ابن عم الأمير وكذلك السيد مصطفى بن تومي والسيد الحاج خروبي الذي كان يشتغل كاتبا عند باي وهران سابقا. أما حاجب الأمير فكان محمد علي الرحاوي. كما أنشأ الخزينة العامة والخزينة الخاصة وعين عليهما على التوالي الحاج جيلالي بن قريحة، خزندار الكبير، وأحمد إبن فاكة، خزندار الصغير، ثم عين كاتب دولة للأوقاف وهو الحاج الطاهر أبو زيد، وكاتب دولة للشؤون الخارجية وهو الحاج ميلود بن عراش، كما كون مجلس الشورى ويتألف من احدى عشرة عضوا تحت رئاسة قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراحي.

كما اتخذ الأمير عدة مدن كعواصم لدولته، وكانت أول عاصمة له هي «أم العساكر»، حيث استقر بقصر البايات ولكن سرعان ما احتلها العدو[2] فنقل العاصمة إلى «تقدامت» عاصمة الرستميين، نظرا لموقعها الحسن والاستراتيجي، وتعتبر «بوغار» و«طازا» و«تلمسان» و«مليانة» عواصم الأمير لأنه كان يتردد عليهما كثيرا، وأخيرا وبعد سقوط «تقدامت» في أيدي المحتلين الفرنسيين سنة 1841، أنشأ الأمير عاصمته المتنقلة والمتمثلة في "الزمالة"[3] وهي عاصمة من الخيام بقطنها ما بين خمسين ألف وسبعين

---

[1] A.BENACHENHOU, l'état Algerien en 1830 ses institutions sous lemir Abdelkader, ALGER, S.D. P., 70.

[2] ADRIEN BERBRUGGER, relation de l'expédition de mascara, PARIS, 1936.

(3) الكولونيل اسكوت، مذكرات الكولونيل اسكوت ـــ عن اقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841، ترجمة وتعليق، اسماعيل العربي، الجزائر، 1981.

ألف ساكن مدني من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة. وبها جميع مرافق الحياة من تجارة وصناعة وتعليم ومرافق صحية وغير ذلك.

كذلك قسم الأمير دولته (السلطنة) إلى ثمان مقاطعات وجعل على كل مقاطعة خليفة وهي كالتالي:

تلمسان ويترأسها محمد البوحميدي الوهاسي، معكسر بقيادة مصطفى بن تهامي (صهر الأمير)، مليانة تحت قيادة الحاج محي الدين الصغير، وبعد وفاته ترأسها محمد بن علال بن مبارك، المدية تحت قيادة محمد البركاني، برج حمزة تحت قيادة أحمد بن سالم، مجانة برئاسة سي طوبال بن عبد السلام، الصحراء الشرقية تحت قيادة الحسن بن عزوز، والصحراء الغربية تحت قيادة سي قدور بن عبد الباقي(1).

كما قسم كل مقاطعة إلى دوائر وعلى كل دائرة آغا، والدائرة عبارة عن مجموعة من القبائل، نصب على كل قبيلة قائد وعلى كل عشيرة وهي جزء من القبيلة شيخ.

وهكذا كانت أوامر الأمير عبد القادر تصل إلى الشيخ الذي يمثل قاعدة الحكم عن طريق القائد، فالآغا ثم الخليفة، وهذا النظام الاداري التصاعدي يجعل الترابط وثيق بين القمة والقاعدة، كذلك يقوض النظام الاداري البالي للعهد العثماني، ويبين أيضا مدى فهم الأمير لروح العصر، والارتقاء بالمجتمع من النظام الاقطاعي القبلي إلى مجتمع عصري يسوده التعايش الاجتماعي والتزام أفراده نحو بعضهم البعض ونحو الدولة.

كما اتخذ الأمير ختم للدولة، يعرف بالطابع السلطاني، وعلم كراية للسلطنة مكون من ثلاثة أشرطة من الحرير إثنتان خضراء مفصولتان بشريط

---

(1) – PAUL AZAN, L'EMIR ABDELKADER; 1808/1883 PARIS, Hachette 1925 P.131/132.

أبيض بوسطه دائرة مطرزة من الخيوط الذهبية بها يد (خميسة) مكتوب حولها «نصر من الله وفتح قريب» (وهو شعار الدولة الجزائرية الفتية) و«ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين»، كما للأمير السوانة (مظلة) وهي علامة السلطة، لكن الأمير كان لا يفضلها رغم أنها تعطي هيبة وأبهة السلطة، كما سك الأمير نقودا خاصة به من الفضة تسمى المحمدية.

هذا، وكان الأمير حريصا على تطبيق العدالة، حيث يتدخل بنفسه في فصل بعض القضايا، كما حرص على نشر العلم والتعليم، واعتنى بالجانب الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة وضرائب، كما كون جيشا عصريا محكم التنظيم وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تخص الدولة وتحتاج إلى دراسة وافية وشاملة لدولة الأمير عبد القادر.

كما كان له تمثيل دبلوماسي متمثل في ارسال قناصل له، واستقبال سفراء ومبعوثي الدولة الأجنبية، فقد عين مثلا محمد بن يخو ممثل له في وهران، واليهودي مردكاي بن دران في مدينة الجزائر، والآغا خليفة بن محمود بأرزيو، أما الفرنسيون فقد عينوا قنصلا لهم في معسكر وهو عبد الله دسيون، المملوكي المصري.

وفي الأخير يمكن أن نقول أن الأمير عبد القادر كان رجل دين ودولة في نفس الوقت، فضلا عن كونه مجاهد بطل مغوار عمل على استقلال بلاده وطرد المحتل الغاصب منها.

احتلال بوابة الصحراء
«بسكرة عروس الزيبان»(*)

لا شك أن الجزائر قد ابتلأت في تاريخها المعاصر بأبشع نوع من أنواع الاستعمار الأوروبي الحديث.

فبعد أن اختلقت الحكومة الفرنسية الاعذار والذرائع لشن حملة على الجزائر، وبعد مناورات ومساومات تم لها احتلال مدينة الجزائر في يوم 05 جويلية 1830. وفي جو من التآمر والدسائس والانهزام والخيانة، وحتى الشكوك والريبة لم يستطع الداي حسين إنقاذ الموقف.

واعتقد القادة الفرنسيون ــ بهذا النجاح ــ أن الجزائر قد فتحت لهم أبوابها واسعة، إغتر الجنرال «دي بورمون» قائد الحملة، فكتب يقول إلى حكومته: «إن العرب ينظرون إلينا كمحررين وإن الجزائر سوف تخضع لسلطاننا قبل خمسة عشر يوما».

لكن الوقائع التاريخية قد كذبت ذلك الادعاء، ولم يتم توسع الاستعمار الفرنسي لكامل التراب الوطني إلا بعد مرور أكثر من قرن. وما احتلال القوات الفرنسية لبسكرة، بوابة الصحراء، إلا حلقة من عمليات هذا التوسع. وسنحاول في هذه العجالة طرح اشكالية هذا الاحتلال وتتبع مراحله.

(1) مجلة حوليات جامعة الجزائر، العدد التاسع، الجزء الأول. أفريل 1995.

الإطار الجغرافي والتاريخي للمنطقة :

تتميز منطقة بسكرة بموقعها الاستراتيجي الذي يعد حلقة وصل ما بين الجنوب الشرقي الصحراوي؛ والشمال الشرقي التلي للقطر الجزائري[1]. وتمتد هذه المنطقة بمحاذاة الحدود التونسية وجبال الأوراس في الشمال كحاجز طبيعي يفصلها عن التل، أما القسم الجنوبي فتغطية الكثبان الرملية المتقطعة بشط ملغيغ وواحات وادي سوف ووادي ريغ.

ويتميز مناخ المنطقة بالطابع القاري الجاف. فهو قليل الأمطار وحار صيفا وبارد شتاءًا وتنتشر واحات النخيل في الأماكن التي تتوفر فيها المياه الباطنية والسطحية، بفعل انخفاضها وامتداد الوديان التي يكثر جريانها في فصل الأمطار (أكتوبر — ماي) على مسافات قليلة تنتهي في الرواسب الرملية، أهمها وادي إجدي وواد الأبيض وواد العرب وغيرها.

وقد كان لقساوة الطبيعة في هذه البيئة الصحراوية وصعوبة الحياة فيها أثره العميق على السكان. فاصطبغت حياتهم بلون من الشدة. يتطلب من الفرد صلابة وقدرة تمكنه من تحمل قساوة المناخ من جهة، ومن التكيف مع الظروف المعيشية الصعبة من جهة أخرى.

وقد حددت ظروف البيئة مواقع الاقامة والاستقرار في المنطقة بحيث أدت إلى أن يتميز مجتمعها بتوزيع جغرافي يتلازم مع توزيع مراكز الاستقرار والأراضي الغنية بالمياه الجوفية. والتي تقوم عليها واحات النخيل التي تعتبر المصدر الأساسي لرزق معظم السكان.

وهكذا يتجمع السكان في الشمال عبر واحتي بسكرة والوطاية ويمكن إلحاق واحة القنطرة بهما وبالشمال الغربي في واحات طولقة وأولاد جلال

---

[1] Jean DESPOIS, «La bordure saharienne de l'Algérie orientale» in Revue Africaine, (1942) pp.197-219.

الدوسن وسيدي خالد. وفي الشمال الشرقي بواحتي سيدي عقبة وزريبة الوادي، أما في الجنوب فيستقر بعض السكان في امتدادات واحات السوافة والرواغة.

وقد تعاقبت على هذه المناطق أمم عديدة منذ العصور الحجرية إلى الفتح الاسلامي. فحسب هيرودوت وسالوست وهانون فقد سكن هذه الجهات الصحراوية الليبيون والأثيوبيون من جهة والجيتوليون من جهة أخرى(1) وكانوا يرعون بماشيتهم بحثا عن الكلأ والماء.

ومن خلال الترجيحات التاريخية فإن المنطقة لم تعرف تواجد فينيقي غير أنه في العهد القرطاجي قامت حركة تجارية واسعة بين المناطق الشمالية والصحراوية وأقيمت أسواق نشيطة ومزدهرة على تخوم الصحراء، وبالأخص على ضفاف شط ملغيغ من أجل تبادل السلع المختلفة التي كانت تحملها القوافل إلى هذه المراكز محملة بالذهب والجلود وريش النعام والعبيد من الجانب الصحراوي والأقمشة والحلي والملح والأحجار الكريمة من الجانب القرطاجي. ولم تخضع المنطقة للنفوذ الروماني والواندالي والبيزنطي إلا قليلا. وكانت من المراكز الأمامية والقواعد الأساسية للثوار ينطلقون منها في ثوراتهم ضد السلطة في الشمال. وعشية الفتح الاسلامي للمنطقة، كانت قبائل أمازيغية أنصاف رحل يستوطنون هذه الجهات من الفرع الزناتي(1) يلقبون بالبربر البتر ويعيشون عيشة تشبه إلى حد ما عيشة العرب في الجاهلية، مما جعلهم يندمجون مع العرب.

لقد فتح العرب المسلمون إفريقية في السنوات الأخيرة من النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وخلال حقبة الفتح الاسلامي إتصل أبو المهاجر بإفريقية وأسس بها مركزا يختلف عن قيروان عقبة ولكنه بجانبه على مسافة ميلين يسمى «تيكروان» وسار على خطه غربا إلى المغرب الأوسط،

---

(1) Ahmed Najah, le souf des Oasis, Alger, maison des livres, 1971 p.27.

(2) Ahmed Najah op-cit pp.45.46.

حيث يخيم ملك البربر «كسيلة» بجبال الأوراس فاتخذ مسلكه إلى هناك بوابة بسكرة التي تمثل نقطة تقاطع في الأطلس الصحراوي، وبذلك تمكن من الانتصار على الزيبان والأوراس وكل الشرق الجزائري حوالي سنة 678م الموافق لـ59هـ. ورغم ذلك فقد استشهد القائد الصحابي عقبة بن نافع الفهري في واقعة «تهودة» من منطقة بسكرة في المعركة التي وقعت بين المسلمين والقبائل البربرية بقيادة كسيلة ومازال ضريحه قائما في مكان يبعد عن تهودة بنحو خمسة كيلومترات، ويحمل إسمه إلى حد الآن «سيدي عقبة».

وقد تم خضوع المنطقة للمسلمين بعد مقتل «الكاهنة» التي قادت المقاومة نُومية الأمازيغية بعد مصرع «كسيلة» في جبال الأوراس، وكانت قبائل زناتة هي أولى القبائل التي اعتنقت الاسلام بعد هذا التاريخ.

لقد عرف المذهب الخارجي (أو الشراة) في القرن الأول للفتح الاسلامي في المغرب انتشارا واسعا[1] وكان شمال منطقة بسكرة مركزا من مراكز الشراة (أو كما يلقبهم خصومهم بالخوارج)، كما احتضنت نفس المنطقة المذهب الشيعي في نهاية القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وتعرضت بسبب ذلك إلى هجمات السلطة الأغلبية، كما خضعت الزاب أيضا للسلطة الفاطمية في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي[2]، وبعد انحصار الدولة الفاطمية على البلاد المغربية، خضعت واحة بسكرة للحماديين أيام الناصر ابن علناس[3].

---

(1) موسى لقبال **المغرب الاسلامي**. قسنطينة 1969 ص 212.

(2) محمد الصالح مومول **السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي** الجزائر، 1983 ص 259.

(3) رشيد بورويبة. **الدولة الحمادية**. الجزائر 1977 ص 117.

ثم عرفت المنطقة نوعا من الاستقلال الذاتي إلى أن قدم بنو هلال من مصر. فكانت المنطقة هي البوابة التي دخلوا منها إلى المغرب الأوسط واستقر عدد من بطون بني هلال وبني سليم في منطقة بسكرة(1). فاستقرت عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان وطرود بن فهم بن قيس بوادي سوف في الجنوب(2) وأولاد جلال بالواحة التي تحمل اسمهم إلى حد الآن في الشمال الغربي للمنطقة. والضحاك في الغرب وكرفة في الشمال الشرقي(3) وهكذا تم تعمير المنطقة من طرف قبائل وبطون عربية قحّ نزحت من الجزيرة العربية واستقرت بمصر حقبة من الزمن ثم تابعت هجراتها إلى المغرب العربي، وقد قامت هذه القبائل والبطون بتعريب المنطقة تعريبا كاملا، بحيث لم يبق من الأثر الأمازيغي إلا بقايا أسماء أماكن أو نباتات أو عائلات أو بعض العادات والمعتقدات التي اصطبغت باللون الأسلامي بعد ذلك.

ثم استولى الأتراك العثمانيون على منطقة بسكرة في نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي وحكموها بواسطة عائلة بوعكاز الشمال وأسرة بني جلاب في الجنوب.

أوضاع المنطقة قبيل الإحتلال :

بعد الغزو الفرنسي لمدينة الجزائري في صيف 1830، انتشرت قوات الإحتلال في البلاد كالجراد للسيطرة والتوسع حتى دخلت مدينة قسنطينة إثر الحملة الثانية(4) يومي 13 و14 أكتوبر 1837 بعد مقاومة عنيفة من طرف السكان بقيادة الباي أحمد، غير أنه لم ينتصر وأجبر على الفرار من

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرها من ذوي السلطان الأكبر المجلد السادس، بيروت، 1958، ص 76.

(2) Najah. op.cit, p.46.

(3) Paul Jefèvre «Monographie de Biskra et du Sahara-Constantinois» B.S.G. d'alger. n° 26 (1921) p110.

(4) Mémoires du Maréchal de mac Mahon. Duc de Magenta, souvenirs D.AlgéRie. Publiés par le contre guy Demiribel. 1932. p.93.

المدينة مع بعض أقاربه وجزء من جيشه، والتجأ إلى الجنوب لجلب الانصار من بسكرة والصحراء عن طريق أصهاره من عائلة إبن قانة المشهورة والتي لها التأثير الكبير في تجنيد القبائل الصحراوية لاسترجاع مدينة قسنطينة.

لذلك يشكل أحمد باي زمالته بجميع الذين خرجوا معه من قسنطينة، واقترح أن تتوجه إلى الجنوب في مكان امن تحت حراسة المشاة، وبذلك يتفرغ لحصار قسنطينة والتمركز على طريق عنابة لقطع المدد، ويذكر أحمد باي في مذكراته:

«... فإذا استطعنا أن نتمركز في طريق عنابة بحيث نقطع جميع الاتصالات بالمكان الذي يمكن أن يبعث النجدات، فإنه يكون لنا أمل كبير في تحقيق النصر، وتمت المصادقة على مشروعه، وكاد يدخل في حيز التنفيذ عندما صاح بوعزيز بن قانة قائلا: «ماذا تريدون أن تفعلوا تبتعدون عن بلدكم وتتوجهون نحو الشمال إذن، فأنتم لا تعلمون أن فرحات بن سعيد (بوعكاز) يقترب بسرعة من الزيبان في الوقت الذي تحاولون فيه الدفاع عن قسنطينة، فإنكم تعرضون أنفسكم للطرد من منطقتكم، ولذلك يجب أن نسرع إلى الصحراء ندخل عائلتنا ومن أتبعنا إلى المدن ثم نخرج متحدين ضد العدو الذي نخشى هجومه أكثر، فالفرنسيون لن يتقدموا بينما فرحات يزحف علينا ومن ثمة يجب أن نبدأ بمحاربته، وبعد ذلك نوحد قوانا ونهاجم الفرنسيون» لم استحسن هذه النصيحة، ولكنه لم يكن لي أهل، عدا أبنائي، أقرب من بوعزيز فلم أكن أعتقد أنه يستطيع أن يقترح على ما من شأنه أن يضرني، وعليه انضممت إلى رأيه ولو أن الله هداني في ذلك الوقت، لفهمت أنه يريد جلبي إلى الصحراء ليأخذ أموالي عن آخرها»(1) وهكذا يبدأ من هنا الصراع الطويل والدموي بين الإخوة الأعداء ليستغله العدو الحقيقي وهو الاحتلال الفرنسي في توسعه وتوغله داخل الوطن.

---

(1) مذكرات أحمد باي بن خوجة وبوضربة وترجمة محمد العربي الزبيري، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981، ص 76.77.

وبعد يومين من ضياع قسنطينة. حينما كان أحمد باي يستعد للانسحاب نحو الصحراء وفق خطة خاله، إتصل به في معسكر بأم الأصناب على طريق باتنة، رسول من قبل قائد القوات الفرنسية قدم له رسالة قصيرة تحتوي على العبارات التالية: «تعالوا اطلبوا الأمان، واستسلموا سريا سنبعثكم إلى فرنسا»[1] وأجاب أحمد باي بالرفض، لكن سرعان ما جاءه شخصان آخران بعد ذلك بثلاثة أيام وهما ابن العطار من قسنطينة والحاج الباي من عنابة موفدين من قبل نفس القائد. وعرضا عليه نفس الاقتراح السابق فأجاب مايلي: «أريد أن استسلم، ولكن لا أحب أن يفرض علي الذهاب إلى فرنسا، ويجب أن يترك لي الأمر في أن أتوجه إلى بلد إسلامي أو إلى بيت الله»[2].

غير أن خاله إبن قانة اعترض عليه وقال له: «ماذا تفعل أتريد أن تنكث عهدا ضربته على نفسك ؟ ألم تقل أنك ستصطحبنا إلى الصحراء ؟ فلا تقبل هذا الاقتراح»[3] فرضخ الباي أحمد لرغبة خاله ورفض العرض الفرنسي وأخذ طريقه إلى بسكرة، وقد أرسل أمتعته إلى القنطرة ثم إلى الأوراس بقرية منعة[4]، وعند وصوله إلى بلدة الوطاية،علم أن فرحات يلاحقه وقد دعم صفوفه بأولاد عبد النور والبلازمة والحضنة، ثم قام بهجوم كاسح على مدينة بسكرة كأول مواجهة بين الأشقاء انتصر فيها فرحات بن سعيد على قوات أحمد باي واحتجز منهم بعض الرهائن كدليل على نصره وأقسم فرحات بن سعيد أنه لن يراسل إلا المريشال فالي (VALEE) حاكم قسنطينة ليخبره رسميا بالنصر الذي أحرزه على أحمد باي وهو بذلك يريد التقرب من السلطة الفرنسية، كما أبلغ حمودة بن الشيخ قائد قسنطينة بأنه سيرسل إليه الرهائن الذين احتجزهم من بسكرة[5] وحسب تقرير الماريشال فالي الذي

(1) مذكرات أحمد باي، ص 79.
(2) نفس المصدر ص 79.
(3) نفسه.
(4) Charles Féraud, «Les Ben-Djellab, sultants de Tougourt, notes historiques, sur la province de Constantine, in **Revue Africaine**, n° 28 (1884) p.219
(5) Féraud, **op.cit**, p.220.

رفعه إلى الوزير من الجزائر بتاريخ 04 جانفي 1838، فإن عبد القادر (الأمير) يبحث عن توسيع نفوذه عبر قبائل مقاطعة قسنطينة وهو على إتصال بفرحات بن سعيد الذي إستولى على بسكرة وأبعد منها أحمد باي، لذلك يقترح المريشال على الوزير تعيين فرحات بن سعيد كقائد على قسنطينة مكان سي محمد (حمودة بن الشيخ الفقون)[1] المسالم وضعيف الشخصية، بينما فرحات بن سعيد رجل قوي ورجل حرب قادر على تعويض أحمد باي. ويمكن أيضا جعل مدينة بسكرة عاصمة لبيليك جديد وتنصيب فرحات بن سعيد على رأس إدارته، وبذلك ربطه نهائيا بقضية فرنسا، وطبعا كان الرد من باريس يوم 17 جانفي 1838 بالموافقة[2]. وفي 02 فيفري 1838 ذكر الماريشال أيضا في تقريره إلى باريس «أنه أرسل فرحات بن سعيد واتفق معه حول حدود الاقليم الذي أصبح تحت إدارته، وسلم له قفطان الشرف، ثم تنصيبه قائدا على الصحراء، وبذلك فإن سيادة فرنسا على إقليم مقاطعة قسنطينة المجاور للصحراء قد تم تنفيذه»[3].

ويظهر أن الماريشال قد جانب الصواب في هذا التقرير حول سيادة فرنسا على الصحراء، لأن خضوع جنوب مقاطعة قسنطينة والصحراء للاحتلال الفرنسي مازال لم يتم بعد، وإنما الذي حصل هو مناوشات بين أعداء الأمس والمنافسين والمتصارعين على السلطة منذ العهد العثماني، كما أن هذه التدابير التي إتخذتها الحكومة الفرنسية تجاه فرحات بن سعيد لم تفلح، بفعل الأحداث والوقائع الدموية التي حصلت بينه وبين خصومه من أنصار أحمد باي وبوعزيز ابن قانة.

---

(1) محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة. مراجعة وتقديم وتعليق د.يحي بوعزيز، الجزائر 1991. ص 114.

(2) Féraud op.cit. p.221.

(3) Ibid. p.222.

ذلك أن أحمد باي قد اتجه من أوطاية إلى ضونقة أين عسكر بالقرب من زاوية سيدي رحال بين فوغالة والعمري من أجل التصدي لقوات فرحات بن سعيد وقطع المدد عنه، حيث اعترض أنصاره من البوازيد حوالي خمس مائة (500) جندي مشاة من أولاد نايل كانوا في طريقهم لنجدة ودعم فرحات بن سعيد الذي يعسكر في واحة ليشانة، واشتبكوا معهم وقتلوا الكثير منهم، وحملوا إلى الباي أكثر من خمسين رأسا.

وعزم الباي على مهاجمة فرحات بن سعيد قبل أن يتقوى ساعده في كل من ليشانة، والزعاطشة، ووقعت معركة ضارية بـ«صحيرة» وهي من اعتى المعارك الدموية بين الطرفين بالزيبان، حيث قتل من قوات فرحات بن سعيد أكثر من ست مائة (600) رجل. وقتل لأولاد بن قانة أكثر من مائة (100) رجل أيضا. والتجأ فرحات بعد ذلك إلى أولاد نايل أما الباي وابن قانة عملا وفق مخطط من أجل سحق كل واحات الزاب القبلي والزاب الظهري(1) انتقاما منهم لموازرتهم لفرحات.

وبعد هذه المعركة طالب فرحات بن سعيد الإمدادات والمساعدة من الفرنسيين، ولم يطلب سوى كتيبتين أو ثلاثة فقط، فماطلوه ولم يجيبوه إلى ما طلب، وبقي ينتظر. وفي نفس الوقت علم بخبر تعيينهم لأبن عيسى خليفة أحمد باي السابق، قائدا وخليفة لهم على المنطقة الساحلية للشمال القسنطيني، فساورته الشكوك في موقفهم نحوه، فاستغل ظروف مساعي الأمير عبد القادر ومراسلاته لقادة مقاطعة قسنطينة للاعتراف بسيادته(*) فأخذ يتقرب منه هو الآخر عليه يستفيد بمنصب إداري أو سياسي من طرفه، خاصة بعدما تخلت عنه فرنسا ويؤكد عداوته لأحمد باي وابن قانة وطردهما من الصحراء خاصة وهو الملقب بـ«ثعبان الصحراء».

---

(1) Ibid, pp.223-224. (1)

(*) وهم على الخصوص، إبن إليس. وإبن عبد السلام المقراني، وأحمد الشريف، وإبن قندوز، والشيخ بن عكاز الذي قدم نص الرسائل التي بعثها له الأمير إلى القائد العسكري الجنرال نقرييه (NEGRIER)

هذا وقد أرسل الحسن بن عزوز ــ كاتب فرحات بن سعيد السابق ــ رسولا إلى الأمير سرا يدعي سي السنوسي ليقابله ويطلب منه أن يعينه خليفة له، لأن أحمد باي وأنصاره يعيشون في الأرض فسادا من قتل وسلب ونهب وظلم في الجنوب الشرقي الجزائري. وأن سي الحسن بن عزوز شخصية مرموقة له معارف كثيرة في الزاب تمكنوه من القضاء على أحمد باي فضلا من مقدوره الكبير في جمع الثروات الطائلة خاصة منها الضرائب.

وبعد مدة توجه الحسن بن عزوز بنفسه إلى الأمير عبد القادر صحبه الحاج الباي شقيق فرحات بن سعيد، رسولين من طرفه لنفرض نفسه، وقد مال الأمير عبد القادر إلى الحسن عزوز وعينه خليفة على بسكرة والزيبان، وكلف خليفته البركاني الذي كان في بوسعادة بأن يرافقه لينصبه فأخذ معه قوة هائلة من سبع مائة (700) جندي مشاة وألف ومئتين (1200) فارس. وعددا من الأسلحة والذخيرة واتجهوا إلى بسكرة، التي فر منها أحمد باي وأولاد بن قانة واتجهوا جميعا إلى الشمال نحو بلدة القنطرة أين جمعوا متاعهم على الجمال وصعدوا بها إلى باتنة وجبال الأوراس. وطلب البركاني من فرحات أن يرافقهم إلى بسكرة، فقبل ذلك على مضض وقال للحسن بن عزيز: «هكذا، ذهب رسولا، وعدت خليفة». ووعده بالمساعدة والتأييد في مهامه الجديدة شريطة أن يعمل من أجل القضاء على أحمد باي وأولاد بن قانة. وفعلا تم التنصيب مع إقصاء أنصار أحمد باي من بسكرة، أواخر عام 1838[1].

وقد عاود فرحات بن سعيد الاتصال سرا بالفرنسيين، وأرسل الماريشال فالي الحاكم العام في ذلك الوقت، وكذلك الجنرال نقريه (NEGRIER) قائد قسنطينة، ولكن رسوله إلى الجزائر قتل، ووقعت رسالته في أيدي الحسن بن عزوز الذي حولها في الحين إلى الأمير عبد القادر،

---

(1) Ibid, pp.227-229.

وتمكن رسوله الآخر من الوصول إلى قسنطينة ولكن رسالته لم تسلم للمسؤولين الفرنسيين، لأنها وقعت في أيدي أناس يبغضونه، فأخفوها، وأبقوها عندهم ثم أرسلوها إلى خصمه إبن قانة بالصحراء الذي حولها بدوره إلى قريبه إبن أحمد بلحاج في سيدي عقبة. فحولها هو أيضا إلى الحسن بن عزوز. فانكشف أمره بعد أن تعاون عليه الرجلان من أجل أن يعاقبه الأمير وأصبح مضرب المثل التالي في المنطقة: «ضبع ميدة القارة ومعه ثعلب الغيران، تغامروا على سيد الغابة»(*).

أعطى الأمير عبد القادر أوامره باعتقاله، فاستدرجه البركاني باللطف والحسنى إلى مدينة المدية وهناك اعتقله واقتاده إلى تاكدمت عاصمة الأمير حيث سلمه له فوضعه في السجن مدة من الزمن.

أما أحمد باي فقد راسل الباب العالي للنجدة، وكذلك باي تونس ليساعده في محنته، غير أن الدولة الحسينية كانت مضايقة من طرف الهيمنة الفرنسية(1).

(*) الضبع: هو الحسن بن عزوز ــ ميدة القارة: ربوة صغيرة أمام واحة الزعاطشة التي ترعرع فيها الحسن بن عزوز ــ وثعلب الغيران: هو إبن أحمد بلحاج تلميحا إلى حياته التعبدية (الدينية) في خلايا زاوية سيدي عقبة ــ وسيد الغابة: وهو الأسد، ويعني به فرحات بن سعيد.

(1) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، إرجع إلى كتاب الأستاذ: Khelifa Chater **Dépendance et mutations précoloniales la régence de Tunis** de 1815 à 1857, TUNIS, publications de l'université de TUNIS, 1984, p.501.

كذلك:

أحمد توفيق المدني «رسائل جديدة بين أحمد باي قسنطينة والباب العالي العثماني قبل وبعد سقوط قسنطينة **مجلة التاريخ** الجزائر، رقم 6 (1978) ص 88ــ61.

دور إبن قانة في تدعيم الإحتلال الفرنسي للصحراء:

لم يتمكن باي قسنطينة المخلوع من تحقيق مسعاه، وتيقن أولاد بن قانة من أن أحمد باي قد خسر كل شيء في الجزائر، وعليهم إلا أن ينفصلوا عنه ويستسلموا إلى القوات الفرنسية.

وتكشف الوثائق التاريخية عن ما آلت إليه بعض الشخصيات الجزائرية في هذه الظروف. حيث بعث الجنرال قالبوا (GALBOIS) حاكم قسنطينة ببرقية إلى الماريشال حاكم الجزائر بتاريخ 15 ديسمبر 1838، استهلها بسرد خضوع فرحات إلى الماريشال فالي وتعيينه في منصب شيخ عرب بعد انتصاراته في بسكرة ثم يذكر: «بعد هذا الانتصار الذي حققه على الباي أحمد، تلقى منكم كدليل على الرضا سيف وزوج من المسدسات، ومنذ هذه الفترة انقطعت علاقاته بقائد المقاطعة، ذلك أن البركاني قائد قوات الأمير عبد القادر قد توغل في أراضي الاقليم وضم قوات فرحات إلى قواته لملاحقة الباي، ويزعم فرحات أنه راسل الجنرال حاكم قسنطينة ليطلعه بأن تعاونه مع البركاني وخضوعه للأمير لم يكن إلا ألعوبة، وبأنه يبقى دائما تابعا للفرنسيين. وقد وقعت هذه الرسالة بين أيدي الأمير فألقي عليه القبض...

وبوعزيز بن قانة آخر قائد بقي في الصحراء تحت سلطة أحمد باي بعد الاستيلاء على قسنطينة، وقد لحق ثروة سيده وصهره أيضا... وحينما لاحظ أن أحمد قد أبعد من تفكيره كل إمكانية للسلم، وامتناعه عن إزالة إدعائاته على مقاطعة قسنطينة، غادره بعدما حاول معه مرارا السعي للحصول على عفو فرنسا وأن يأخذ معه أعرابه، الذين توقف بهم على تخوم بلاد الزمول، وحينما ظهرت على رأس البعثة في هذه الجهات، سارع إبن قانة بمكاتبتي طالبا مني الأمان، فأعلمته بضرورة الالتحاق بي للوقوف أمامي. لكنه أرسل شقيقه أحمد بلحاج الذي أكد إخلاص أخيه لفرنسا وبأنه يجب على عائلته

أن تقيم بقسنطينة...وتعهد في نفس الوقت بطرد ابن عزوز، وسحق أعدوه، وتوسيع السلطة الفرنسية إلى أعماق الصحراء.

تلك هي سيادة المريشال، الحياة السياسية للشيخين فرحات بن سعيد وبوعزيز بن قانة منذ أن أصبحا أسياد مقاطعة قسنطينة.

ومن وجهة نظري وكذلك وجهة نظر القادة العرب المؤثرين فإن اخضاع بوعزيز يعتبر انتصارا ثمينا للبلاد وهدوئها ويعتقد الأهالي أنه يمكن الأخذ وبكل أمان برأي هذا الشيخ الذي ينتمي لإحدى أعرق الأسر في المقاطعة...وبوعزيز رجل سياسي اعتاد على خدمة الحكومة، وله أملاك عديدة في مدينة قسنطينة وضواحيها: عكس فرحات بن سعيد المتغير وسهل الاستمالة...وإن الاعتبارات المختلفة تجعلني أفضل بوعزيز عن منافسه، لهذا أرجوكم تعيين بوعزيز شيخ العرب وبأن ترسلوا لي بأسرع ما يمكن تعيينه، وسيأتي إلى من أجل تسلمه.» الجنرال قالبوا[1]. ومما لا شك فيه أن فرنسا كانت آنذاك في أمس الحاجة إلى قبيلة عربية تعتمد عليها في ترسيخ نفوذها ومحاربة أعدائها خاصة قوات الأمير عبد القادر التي أحكمت قبضتها على كامل الجنوب.

فبمجرد خضوع إبن قانة للسلطة الفرنسية حتى أبرق الجنرال قالبوا مرة أخرى إلى الماريشال ليخبره بالحدث عن طريق برقية من الأركان العامة بقسنطينة بتاريخ 29 ديسمبر 1838، جاء فيها على الخصوص: «إن شيخ العرب السابق، بوعزيز بن قانة، قد هرب، وقرر المثول بنفسه إلى قسنطينة. وكان لمقدمة صدى عظيم، لأنه أهم رجل في المقاطعة حسب الظاهر وقد كان مصحوبا بقائد بسكرة، ومعه حوالي ثلاثين من أعيان الجريد والصحراويين، لم يعرف معظمهم مدينة قسنطينة، وقد أكدوا لي خضوعهم

---

[1] Féraud, op-cit, pp 233-235

وإخلاصهم لفرنسا. وأعلمني بوعزيز بوصوله، وطلب مني أن استقبله استقبالا مشرفا بشيخ العرب قبل دخوله للمدينة، ولكني أخبرته بأني لا أستطيع الاعتراف به رسميا حتى يتم توقيع تعيينه من طرفكم وبعد أداء اليمين ...وأعتقد أنه بمجرد تعيين بوعزيز شيخ العرب حتى يطلب الطابور التركي (قناصة قسنطينة) ليساعده على جمع الضرائب التي تقدر بحوالي خمسين ألف فرنك تدفع إلى الخزينة الفرنسية. أتمنى أن ترسلوا لي تعيينه في أقرب وقت ممكن إنه ينتظر ردكم الايجابي»[1].

وهكذا استسلم إبن قانة، وخان قضيته الوطنية، ووضع نفسه ومن معه في خدمة الاستعمار والاحتلال البغيض، إغتبط الفرنسيون بهذا الخبر، وخيل لهم أن إحتلال الجنوب والصحراء قد تم ضم وتراسل الضباط والولاة فيما بينهم يهنأ بعضهم البعض. لم يطل الرد، فسرعان ما جاء من الحاكم العام بتاريخ 14 جانفي 1839. أيد فيه الماريشال فالي اقتراحات الجنرال غالبوا. ووقع قرار التعيين بأمر فرنسا وفيما يلي نص القرار[2].

قــرار :

«نحن ماريشال فرنسا، الوالي العام للممتلكات الفرنسية في الشمال الافريقي، نظرا لقرارنا المؤرخ بيوم 30 ديسمبر 1838 والذي يقضي بتنظيم الحكم في مقاطعة قسنطينة، حيث السلطات الفرنسية مازالت لا تسير الإدارة مباشرة.

قررنا ونقرر مايلي :

المادة الأولى: يعين السيد بوعزيز بن قانة شيخا للعرب تعويضات لفرحات بن سعيد.

(1) Ibid. p.236.
(2) Bouaziz Ben Gana, Le Cheikh El Arab, étude historique sur la famille bengana, ALGER, 1930, p64.

المادة الثانية: تسمية بوعزيز بن قانة يخول وفق ترتيبات هذا القرار إدارة المدن والقبائل التالية:

ــ بسكرة المدينة وضواحيها، فنياش، شتمه، سيدي عقبة، أوماش، بوشقرون، ليشانة، الزعاطشة، فرفار، البرج، ليوا، الصحيرة، الخادمة، أورلال، مبيي، بيقو، فرضا، القنطرة، وقبائل أخرى تابعة لقيادة الزيبان، وفي نفس القرار عين سي محمد بوالحراس أخ شيخ العرب إبن قانة قائدا على أولاد عبد النور خلفا لابن زكري الموقوف مع صاحبه فرحات بن سعيد بتكدامت. ومن أجل أن يطمئن الحاكم العام من إخلاص شيخ العرب الجديد، أرسل هذا الأخير رسالة بتاريخ 27 جانفي 1839، ليظهر له فيها عن ولائه لفرنسا.

وقد أجابه المريشال فالي برسالة ــ ترجمت إلى الفرنسية فيما بعد من طرف المترجم والمؤرخ إرنيست مرسييه (ERNEST MERCIER) شكره فيها على استعداده لخدمة السلطة الفرنسية، وقد كلف الجنرال قالبوا بأن يسلم له القفطان وأوسمة وظيفة شيخ العرب. وأنه أعلم سكان بلاد الجريد(*)، ووادي ريغ والزيبان؛ بأنني وضعت إدارتهم بين أيديك، وإذا ما احتجت إلى مساعدة فراسلني مباشرة وفي كل وقت.

صدرت هذه الرسالة عن قصر الحكومة بالجزائر، آخر يوم من ذي القعدة سنة 1254هـ الموافق لـ14 فيفري 1839[1]. وسرعان ما اتخذ بوعزيز بن قانة إجراءات عديدة لتنظيم وترتيب حكمه في الجنوب فبادر بإعلام أهل الزيبان عن تعيينه خليفة على الجنوب، وهو في الحقيقة منصب

(*) بلاد الجريد: واحات في الجنوب الغربي التونسي. ويظهر أن السلطات الفرنسية لا تفرق بين الأقاليم، أو أن هناك تمويه من طرف إبن قانة ليوهم حكام فرنسا أنها تابعة له.

(1) Ben Gana, op.cit, p 76.

أعفي من وظيفة شيخ العرب، وأرسل مبعوثين له يحملان اعتماده إلى كل قرية، ولكنهما وقعا في قبضة إبن عزوز الذي أعدمهما بقطع رأسيهما.

لذلك عزم شيخ العرب الجديد، إبن قانة على مواجهة عدوه وخصمه العنيد في الجنوب، فطلب المساعدة والمدد من الفرنسيين المتمثل في كتيبة فرنسية، لكنهم ماطلوه، وطلبوا منه الانتظار مثلما فعلوا مع فرحات بن سعيد سابقا. وهكذا جمد شيخ العرب نشاطه تقريبا حتى ربيع 1840 حين أرسل سي أحمد بلحاج بن قانة إلى الغرابة ليجمع شملهم ويستعجل رحيلهم، فجمعهم جنوب أولاد جلال للتحرك، ولكنهم حينما وصلوا نواحي كتيزات لاحظوا بأن الممر محاصر ويقع تحت السيطرة الكاملة لأنصار إبن عزوز، والذي دعم قواته بثمان مائة (800) فارس أرسلها له خليفة الأمير عبد القادر في بوسعادة والحضنة، الخليفة أحمد بن عمر، فاعترض طريقهم من أجل أن يحقق نصرا ساحقا يدعم به مكانته في المنطقة التي بدأت تهتز.(1) في 24 مارس 1840 وقعت معركة ضارية، بوادي سلسو بين قوات الأمير عبد القادر تحت قيادة الحسن بن عزوز والقوات المعادية له من قبيلة الغرابة المدعمة بقوات إبن قانة الموالية للفرنسيين ورغم المقاومة الباسلة والبطولة النادرة التي أظهرتها قوات الأمير مع قائدها الحسن إبن عزوز، إلا أن الخصم كان عنيدًا وقويا استطاع أن ينزل بهم هزيمة نكراء، تكبدوا إثرها خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وتشتت جمعهم، مما جعل قائدهم الحسن بن عزوز يفر من ميدان القتال وساحة الوغى على متن حصانه.

وتذكر التقارير العسكرية الفرنسية أن هذا النصر حقق مكاسب هامة جدا لفرنسا في الصحراء، حيث كتب الماريشال فالي إلى وزير الحرب يعلمه بهذا الفوز العظيم ومما ذكره: «إن هذا النصر له أهمية كبرى، ولأول مرة منذ عشر (10) سنوات خلت، قائد حديث التعيين من طرفنا، يسير وحده لمواجهة فرق عبد القادر ويحرز عليهم نصرا باهرا»(2).

---

(1) Le commandant Seroka. «Le sud constantinois de 1830 à 1855» **Revue Africaine**, n° 56 (1912) p 409.

(2) Ben Gana, **op.cit** p76.

غير أن المصادر التاريخية تبين أن القتال في هذه المعركة قد وقع مابين قوات الحسن بن عزوز وقوات قبيلة الغرابة التي رفضت الامتثال لأوامره، وكانت تملك إمكانيات وقوة معتبرتين مكنتها من أن تهزم جيوش الأمير النظامية. ويذكر شارل فيرو في دراسته عن إبن جلاب[1] أن إبن قانة ماعلم بهذا الانتصار، سارع إلى ميدان المعركة، واحتجز مدفعين، وأعلام وقطع تسع مائة أذن من آذان القتلى وبعث بها إلى قسنطينة ناسبا هذا الانتصار لنفسه.

وعرفت هذه القضية في الأمثال الشعبية بالمثال التالي: «اللحم إذا يرخص يأكله كل مسكين» وقد أطلق هذا المثال سي أحمد بن القاضي قائد باتنة، الذي كان قريبا من الأحداث وأطلع على خفاياها. وقدم تقريرا مفصلا حول هذه القضية لشارل فيرو، ولكن بوعزيز بن قانة تعجب من هذه الرواية وكذب كل تلك الأخبار في كتابه شيخ العرب[2].

ويؤكد هذا الطرح التقرير الذي كتبه البارون دو غاليوا من قسنطينة يوم 30 مارس 1840 حيث جاء فيه: «عند تقديمي لكم العرض الحال المضي والمفرح حول القضية التي انتصر فيها شيخ العرب ضد إبن عزوز لم أذكر لكم التضحيات التي قدمها حليفنا للتغلب على عدو أعتى منه بكثير، إن شيخ العرب لم يذكر ذلك في رسالته ولكنني إطلعت على أنه إستعمل كل ما لديه من نفوذ وأعطى حتى بعض مجوهرات نسائه ليجلب إليه قبائل الصحراء التي كانت تستعد للالتحاق بصفوف عبد القادر.

ولتشجيع جنوده، وعدهم بعشر فرنكات على الرأس الواحد من رؤوس الأعداء (وتحصلوا على أكثر من 500) لذلك يجب مكافأة شيخ العرب وقد أرسلت له كل ما لدي من أسلحة وحلي وبرانس له وللقادة

---

(1) Féraud, op-cit, p 260.

(2) Ben Gana op-cit, p77.

الشجعان الذين ساعدوه... وعلاوة على ذلك يجب أن ترسلوا إلى برنس تقدمها لرؤساء القبائل الذي سيدفعهم ذلك إلى تقديم ولائهم الصادق»[1].

وقد اتخذ الماريشال إجراءات سريعة من أجل تسديد شيخ العرب مبلغ يقدر بعشرين ألف فرنك. بعد هزيمة سلسو التحق الحسن بن عزوز بسرعة بقوات الحاج مصطفى أخ الأمير عبد القادر، الذي كان يخيم بناحية مسيلة، وكانت هزيمته سببا في ضياع هيبته لدى قبائل الجنوب، مما إضطر الأمير عبد القادر إلى عزله وتعويضه بفرحات بن سعيد الذي أطلق سراحه وكلفه بالالتحاق بمنطقة الزيبان «فأنعم الأمير على فرحات بن سعيد بإيالة بسكرة وما إليها[2]» على شرط أن يلاحق أولاد إبن قانة مع ترك أفراد عائلته عند الأمير عبد القادر كرهائن حتى يضمن عدم خداعه واستسلامه للفرنسيين مرة أخرى.

وفعلا أخلص فرحات بن سعيد هذه المرة وأبلا البلاء الحسن واستطاع أن يضايق القبائل الموالية لأولاد إبن قانة خلال سنتي 1840—1841 ويمنعهم من ارتياد مواشيهم للبحث عن الماء والكلأ، كما أنه قام بجولة في الزيبان صحبة الحاج مصطفى خلال صيف 1841، مكنتهما من جمع الضرائب[3] غير أن البوازيد قد غدروا به وقتلوه بأولاد جلال في سبتمبر 1841 حين ذهب إليهم، فبمجرد مزوله عن فرسه حتى إلتفوا حوله وطعنوه جميعا بالسيف، لأن اعتقادهم أن الرصاص لا يضره[4] ثم قطعت أذنيه

---

[1] Féraud, op-cit, pp 264-265.

(2) محمد عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، الطبعة الثانية، شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة العربية، 1964 ص 300.

(3) Archives du ministère de la guèrre (AMG) H 228 sur la Puissance et les ressources d'Abdelkader, par M.MASSOT, adjoint à l'intendance militaire.

(4) SEROKA op.cit p.420.

وخيته وانتزع منه خاتمه (الطابع) من قبل قاتليه وأرسلوها إلى الفرنسيين بقسنطينة، وهذا حسب برقية الرائد توماس من الجزائر بتاريخ 23 ديسمبر 1841[1].

ودفن فرحات بن سعيد من طرف أنصاره في ضريح (النبي خالد) في مسجد بلده سيدي خالد، وقد أثار موت فرحات بن سعيد موجة من الحزن والأسى في ربوع الجزائر لأنها خسارة كبيرة للمقاومة الجزائرية، لقد أصبح إسمه رمز للكفاح والشجاعة، وقد أثر هذا الحدث في نفوس الشعراء فأنتجت قرائحهم العديد من القصائد ضمن الشعر الملحون (الشعبي) نذكر منها القطعة التالية:

يا فارس إلي جبت تسير ... ردّ الجواب عني عاود الأخبار
عرق الجواد غطى الدير ... ردّ الجواب عني ياراعي انصار
كيفا مات حرمة أهل بن علي ... فرحات الداودي حرمة من جار

ثم يقول:

كيفا مات راعي الأحمر ... يلغوا به في كل نهار
عدوه منه يفزع ... وينهزم على ظهره بالنهار
يوم البارود لاسلاك إلا به ... قتله الطمع بن قانة الغدار
ياالخيال بساء تسيروا ... أبكو يارجال على خلاص الثار[2]

ورغم القضاء على فرحات بن سعيد، واقصاء عائلة بوعكاز، فإن المقاومة الوطنية بقيت ملتهبة. ولم تعرف منطقة الزيبان لحظة واحدة من الهدوء والسكينة. والملاحظة البارزة في هذا المجال هي أن الخلافات القديمة بين العشائر والقبائل قد لعبت دورا هاما في عدم توحيد المقاومة وجمع كل الامكانيات ورص الصفوف ولم الشمل لدحض الدخيل المحتل والغاصب

[1] Féraud, op-cit, pp 332-331

[2] Ibid. pp 224-336.

لسيادة البلاد والعباد. وقد إستفاد الاحتلال الفرنسي من هذه الوضعية ولو بطريق غير مباشر وعمل على بث الشقاق والنزاع، ضمن سياسة فرق تسد؛ واستطاع أن يستدرج بعض العناصر الوطنية وقبائلهم إلى صفوفه لضرب قبائل جزائرية أخرى مع الأسف، وقد سالت دماء غزيرة بينهم خدمت في الأخير المستعمر وأهدافه الدنيئة في البلاد.

وفي تقرير العقيد مارانقو (MARENGO) إلى وزارة الحرب لشهر نوفمبر من سنة 1839(1) يبين فيه خطة الاستعمار العسكري في الجزائر خلال تسع (09) سنوات ماضية، حيث أن تقييم الامكانيات التي سخرت من أجل إستعمار الجزائر تعد قليلة جدا وغير كافية ويجب تدعيمها، كما يجب أيضا التركيز على معرفة طبائع عرب الجزائر لاستغلالها في الاحتلال حتى استعمالها في النشاط الاقتصادي. وفي الأخير إقتراح عدة إجراءات للقضاء على مقاومة العرب، وترسيخ الاحتلال. التقرير موقع من طرف الضابط مارنقو في الجزائر 11 جويلية 1840.

وكالعادة إنتقل إبن قانة في موسم الهجرة إلى الشمال في ربيع 1842 مع أنصاره الرحل البدو إلى مناطق الرعي في التل لترعى مواشيهم الكثيرة.

وخلال هذه الفترة وقع إتصال مابين قائد مدينة سيدي عقبة محمد الصغير بن أحمد بن الحاج والأمير عبد القادر لدراسة الوضع في المنطقة بعد الجريمة والمكيدة التي ذهب ضحيتها فرحات بن سعيد بإيعاز من شيخ العرب إبن قانة. وبذلك بقي منصب خليفة الأمير في الصحراء شاغرا. ولما عرض محمد الصغير بن أحمد بن الحاج ولاءه للأمير وأبدى استعداد لخدمة دولة الأمير في الصحراء عينه خليفة له ودعمه بكتيبة من الجند لمجابهة الأعداء، وصد قوات إبن قانة في المنطقة.

---

(1) AMG-H 228, quelques notes sur un plan de colonisation militaire en Algérie par Lt Colonel Marengo.

ولما رجع إبن قانة من التل خرجت له بعض الوفود إلى قرية الوطاية تستقبله بإسم الزيبان ولكن محمد الصغير قائد سيدي عقبة لم يكن من بين الوفود. فغضب شيخ العرب وأرسل له بوخراص بن قانة ليؤنب خاله(*) وينصحه بالتوبة إذا كان يريد البقاء في منصبه، ولكن الشيخ محمد الصغير لم يكترث بنصائح إبن قانة، وأخبر إبن أخته بأن الأمير سيرسل له جيوشا غفيرة لمحاربة العدو الحقيقي وهو الاحتلال الفرنسي، لذلك فزع إبن قانة لهذا النبأ وعمل على مقاومة محمد الصغير، فأخبر القبائل بعزل قائد سيدي عقبة ثم طلب المدد من السلطات الفرنسية، وأوفد بسرعة عونه المعتاد سي خالد إلى قسنطينة، عله يأتيه بالفرق العسكرية الفرنسية. غير أنه رجع إلا برسائل توصية موجهة إلى قادة القبائل من طرف حاكم قسنطينة، يحثهم فيها على طاعة إبن قانة ومساعدته.

وفي ماي 1843 حدد الجنرال باراغاي ديليه (Le Général Baragay d'hilliers) من جديد المقاطعات التي يتحكم فيها إبن قانة وحذفت له إقليم الجريد لأنها منطقة نائية عنه ولا يمكن بسط نفوذه عليها(1). ولكن غاب عنهم أن الجريد هو إقليم في الجنوب الغربي من القطر التونسي الشقيق. وهكذا جمع إبن قانة قواته المدعمة من القبائل الكثيرة، فضلا عن الكتائب الفرنسية المدججة بالأسلحة الحديثة، وتوجه الجميع لمحاصرة محمد الصغير في مدينة سيدي عقبة من أجل إرغامه على الاستسلام، ولكنه قوبل بمقاومة عنيفة أبداها أنصار محمد الصغير حيث بدأت المعركة حامية الوطيس بين الطرفين واستمر القتال عدة أيام.

(*) محمد الصغير بن أحمد بن الحاج أخت تسمى امباركة البيضة، تزوجت من علي بالقيدوم بن قانة وأنجبت منه محمد الذي أصبح فيما بعد قائد بسكرة ترملت امباركة المرة الأولى فتزوجت مرة أخرى بمحمد بلحاج بن قانة، وأنجبت بوخراص قائد البدو الرحل، ثم ترملت للمرة الثانية وتزوجها بوعزيز بن قانة شيخ العرب وأنجبت له أيضا ولدا هو الحاج بن قانة، الذي أصبح فيما بعد قائد البدو الرحل. إذن الثلاثة إخوة من الأم وخالهم هو خليفة الأمير محمد الصغير قائد سيدي عقبة.

(1) BOUAZIZ, op-cit, p.83.

وحينما فشل إبن قانة على الانتصار لجأ إلى وسائل أخرى لتشديد الخناق على محمد الصغير وسكان سيدي عقبة. وذلك بحرمانهم من العنصر الأساسي للحياة، ألا وهو الماء وذلك بتحويل مجرى الساقية الذي تزود البلاد بالمياه، واعتقادا منه أن هذه الخطة ستجعل سكان سيدي عقبة يطلبون الأمان(1) ثم الاستسلام للحفاظ على أرواحهم ونخيلهم، وبساتينهم.

وفي هذه الظروف العصيبة حدث أمر طارىء غير مجرى الأحداث وهو تخلي أحمد باي بن شنوف أحد قواد الزاب الشرقي عن مؤازرة إبن قانة. وانفصاله عنه ولجأ إلى جبل «أحمر خدو» وبدأ يحرض سكان هذه الجبال على الثورة، وأرسل الى محمد الصغير بن أحمد بن الحاج ليخبره بأنه سيلتحق به ليجاهد بجانبه.

حاول خليفة الأمير فك ذلك الحصار لكنه لم يفلح وأرغم على الرجوع إلى سيدي عقبة بعد أن ترك في الميدان ثلاثين (30) شهيدا.

وبعد أن علم شيخ العرب تحالف أحمد باي بن شنوف مع محمد الصغير أسرع لجمع كل قواته ليقوم بهجوم كاسح على سيدي عقبة قبل وصول نجدات وقوات إبن شنوف. ولكن عاصفة هوجاء أفسدت خطة إبن قانة وأرغمته على فك الحصار والرجوع إلى بسكرة منهوك القوى.

علم محمد الصغير عن طريق عيونه ببسكرة أن وضعية إبن قانة مهلهلة ومفككة. فلم يترك الفرصة تضيع وقصد فورا مدينة بسكرة فاحتل القصبة، بينما كان إبن قانة يقوم بالهجوم على بسكرة من الغرب. ولكن خليفة الأمير محمد الصغير تمكن في الأخير من أن يهزم أعدائه الذين لم يجدوا غير الفرار سبيلا للنجاة بأرواحهم.

---

(1) Ibid. p.84.

وهكذا رجعت بسكرة من جديد إلى سلطة الأمير عبد القادر حين سقطت في أيدي قواته فأعاد تنظيم إدارتها. بينما إبن قانة حاول جمع شمل شتاته بإرضاء القبائل التي حاربت معه وذلك بدفع لهم أموال طائلة بمثابة «دية» لقتلاهم.

سقوط بسكرة في أيدي الفرنسيين

لم تستمر سلطة الأمير عبد القادر ببسكرة طويلا، فسرعان ما انحصرت قواته عن المنطقة فحسب التقرير الذي رفعه إبن قانة إلى السلطات بقسنطينة[1] أنه أضطر إلى الإنسحاب مع انصاره إلى التل. وقتل له عشرين (20) رجلا وعشرين (20) حصانا وجرح خمسة وأربعين (45) رجلا وإثنا عشر (12) حصانا. وقد دفع الدية لأهل كل قتيل كما دفع ثمن كل حصان قتل إلى صاحبه من ماله الخاص.

أما حالة الأمن فقد تدهورت، حيث عمت الفوضى كل مناطق الزيبان، فكثر السطو والاعتداء وقطع النخيل وغير ذلك من الأعمال المريعة والفظيعة.

وهكذا عمل إبن قانة على تضخيم الأحداث من أجل الحصول على المساعدات الفرنسية. وأرسل بخصوص ذلك وفدا بقيادة مبعوثه المعتاد سي خالد إلى السلطات الفرنسية بقسنطينة لطلب النجدة والمساعدة لانقاذ الموقف. وقد حظي هذا الطلب بالقبول من طرف الدوق دومال (d'Aumale Duc) الذي عين حاكما على مقاطعة قسنطينة خلفا للجنرال بارانياي ديلبه خلال ربيع 1844[2]. ورأى أن يغتنم هذه الفرصة ويقوم بحملة كبيرة إلى الصحراء ليحطم قوات محمد الصغير بن أحمد بالحاج خليفة

(1) Féraud, op-cit. p.465

(2) Bengana, op-cit. p.85

الأمير عبد القادر. ويطرد القوات المتمركزة بمدينة بسكرة والتي تقدر بحوالي أربعمائة (400) جندي بقيادة أحمد بن عمر أحد ضباط الأمير الممتازين في الخضنة. وبذلك يفتك عروس الزيبان ويرجعها من جديد للاحتلال الفرنسي. كما كان ينوي أيضا تصفية الحسابات القديمة مع باي الحاج أحمد الذي مازال يعتصم بجبال أولاد سلطان.

ويذكر القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة هنري دورلين الملقب بدوق دومال(*) في تقريره الذي رفعه إلى الماريشال بوجو BUGEAUD الحاكم العام للجزائر بتاريخ 22 مارس 1844[1]، أنه منذ 08 فيفري 1844 بدأت القوات الفرنسية تتحرك وتتمركز بمدينة باتنة حيث أقيم هناك مركزا عسكريا بالتموين والامدادات.

تجمع بباتنة يوم 23 فيفري فيلق قوي يشتمل على جنود مشاة وفرسان ومدفعية تقدر بأكثر من ثلاثة آلاف (3000) مقاتل، وبقيت تنتظر قدوم حوالي ألف (1000) بعير من الصحراء والتي وعد بها شيخ العرب إبن قانة بإرسالها لحمل متاع وأثقال الجيش الفرنسي المتوجهة لاحتلال بسكرة. وقد حاول أولاد سلطان والأخضر الخلفاوية اعتراض سبيلهم وقطع الطريق عنهم في بلدة القنطرة، غير أن العقيد بوتافاكو BUTTAFACO علم بتحركاتهم، فأرسل لهم أربعة أسراب من النخبة ومائتي فارس تحت قيادة الرائد قوبار GAUBEART الذين ساروا طول الليل إلى أن أصطدموا في الصباح مع المجاهدين واشتبكوا معهم في معركة ضارية ترك على إثرها أولاد سلطان خمسة عشر (15) شهيدا مما إضطرهم بعد ذلك إلى الفرار وفتح الطريق للفرنسيين[2].

(*) الدوق دومال: هو الإبن الرابع للملك فرنسا لويس فليب. ولد في باريس 1822 وتوفي في زالوا (صقلية) 1897.

(1) Féraud. op-cit. p.467.
(2) Ibid. p.468.

كما قام أتباع أحمد باي بمهاجمة الحراسة الأمامية للقوات الفرنسية ليلة 19 إلى 20 من شهر فيفري ولكن بدون جدوى. وفي نفس الوقت خرج طابوران من مائتي (200) جمل تحت قيادة الجنرال سيلاغ SILLEGUE من سطيف يوم 18 فيفري لملاحقة أحمد باي المعتصم بجبال أولاد سلطان الواقعة غرب باتنة. وبعد مناوشات عديدة استطاعت القوات الفرنسية من إخضاع بلدة مقاوس (أو نقاوس) باعتبارها نقطة هامة تتحكم في المسالك الصحراوية. كما أن هذه الحملة تهدف إلى حماية ظهر القافلة الفرنسية.

وهكذا بعد كل الاستعدادات أخذت القافلة طريقها إلى بسكرة تحت قيادة الدوق دومال يوم 25 فيفري مع كل معداتها ومؤونة شهر كامل. ومن الغد وصل الطابور الأساسي التابع للقافلة إلى قرية تزا المسمى الأوراسية والتي غادرها سكانها واعتصموا بالجبال. فوجدتها القوات الفرنسية خالية من سكانها ومن كل حركة. فحاولت ملاحقتهم عبر الجبال ولكن دون جدوى. وفي نفس الأثناء قام الدوق مونتبونسيه MONTPENSIER أخ قائد الحملة بالتعرف على السبل المؤدية إلى بلدة القنطرة. كما أخضع العقيد مكماهون قبيلة بني معراف التي تقطن بالسفوح الجبالية في قرية جميلة بزروعها الكثيفة.

استمرت القافلة في سيرها إلى أن دخلت يوم 29 فيفري 1844 بلدة القنطرة وهي القرية الأولى من إقليم الزيبان. وبعدها دخل الدوق دومال على رأس جيشه مدينة بسكرة يوم 04 مارس 1844 بسهولة تامة وبدون مقاومة تذكر. ذلك أن خليفة الأمير عبد القادر محمد الصغير حينما علم بقدوم هذه الحملة على بسكرة غادر المدينة بسرعة وهذا قبل وصول القافلة بخمسة أيام. واعتصم بجبال الأوراس لمراقبة الوضع عن كثب.

لذلك اغتبط قائد الحملة بهذا النصر الذي حققه الاحتلال الفرنسي. وأكد في تقريره أن سكان الزيبان وقبائلها قد خضعوا له، وتقدموا إليه من

أجل طلب العفو عن أخطائهم. كما طالبوا صداقة وحماية فرنسا لهم. وقد أعجب الدوق دومال بالصحراء باعتبارها سهل من الرمال يرتفع قليلا عن سطح البحر وبها إمكانيات طبيعية كبيرة تفيد الاقتصاد الفرنسي.

أما عناصر السكان فيتشكلون من صنفين متباينين هما:

1 ـــ سكان الزيبان الخضر، وهم أناس صناعيون مسالمون يهتمون بالتجارة والفلاحة ويحتاجون إلى النظام والأمن.

2 ـــ القبائل البدوية، وهم عرب أقحاح، ولكنهم من عنصر المشاغبين، والمعروفين بالنهب والسلب. لكن اضطرارهم إلى شراء الحبوب كل صيف من التل يحتم عليهم الطاعة والامتثال.

لذلك أرسل الدوق دومال عيونه من الضباط الذين يحسنون اللغة العربية إلى القرى المجاورة للتعرف على أوضاع سكانها السياسية والاجتماعية وهؤلاء الضباط هم الرائد توماس THOMAS والنقيب دونوف DE NEUVEU والنقيب ديفو DESVAUX والنقيب فورنييه FOURNIER. ولما إستتب الأمر للدوق دومال وتعرف على أوضاع البلاد شرع في اتخاذ إجراءات صارمة كحجز أملاك المجاهدين الفارين والذين لم يسلموا أنفسهم قبل 25 مارس، ومعاقبة المقاومين المحجوزين، وإلقاء القبض على المشوشين وحملهم إلى سجون قسنطينة(1).

كما جند قائد الحملة ثلاثة مائة (300) رجل من الأهالي لاحتلال قصبة بسكرة ووضعها تحت قيادة ضابط فرنسي حتي يتمكن من تدعيم سلطة شيخ العرب ممثل فرنسا في هذه المقاطعة البعيدة. وبعد هذه الترتيبات الجديدة إتجهت القوات الفرنسية لملاحقة المجاهدين من أنصار خليفة الأمير

(1) Ibid, pp 470-471

عبد القادر المرابطون بالجبال حيث تلقوا المساعدة والتأييد الكامل من طرف قبائل بني أحمد في قرية مشونش المتاخمة لجبل أحمر خدو والواقعة على ضفة واد الأبيض، لذلك حصرت من قبل القوات الفرنسية وجرت بها معارك طاحنة واشتبكت القوات حتى إلتصقت ببعضها واستعمل فيها السلاح الأبيض وأبدى المجاهدون بطولة وشجاعة فائقة اعترف بها العدو في تقريره[1].

ولما شعر محمد الصغير بن أحمد بنحاج باشتداد الحصار عليه أمر قواته بالانسحاب والتشتت عبر الجبال والغابات على أن يكون اللقاء والاجتماع في قمة شيلية بجبال الأوراس، وهذا بعدما تهدأ المعركة وتنطفىء شعلتها. وقد فقدت القوات الفرنسية في هذه المعركة ستة رجال منهم الضابط بوران BORAUD وستة عشر (16) جريحا منهم خمسة ضباط[2] بينما فقد بني أحمد سكان مشونش أربعة عشر (14) شهيدا.

وعندما سكتت المعركة وأخمدت شعلتها، اقتحم الفرنسيون الحصون فوجدوها خالية من السكان، ففرحوا بانتصارهم ودفنوا موتاهم ثم رجعوا إلى بسكرة، معتقدين أن قوات الأمير عبد القادر قد قضي عليها نهائيا وأن جذوة المقاومة المتوهجة بالمنطقة قد إنطفأت وأن الصحراء أصبحت تابعة لهم لا ينازعهم فيها أحد.

تلقى الدوق دومال بمجرد رجوعه إلى بسكرة أخبارا مفادها أن أولاد سلطان قد هاجموا المركز العسكري بباتنة وعليه بملاحقتهم ومعاقبتهم. لهذا لابد أن يغادر بسكرة فورا وبالفعل غادرها بعد أن قضى بها عشرة (10) أيام حاول فيها ترسيخ الاحتلال الفرنسي بها، وترك مهمة إتمام التنظيم والتثبيت للرائد توماس.

---

(1) Rapport du 22 mars 1844 du Duc d'Aumale. in R.A n° 28 (1884) pp.467-478

(2) Seroka. op-cit, p 430 aussi Péraud, op-cit, 475.

وبعد أن تصدى الدوق دومال لأولاد سلطان، رفع إلى الوالي العام تقريرا مفصلا حول هذه الأحداث، أرسله من باتنة بتاريخ 02 جوان 1844[1]. ومما جاء فيه أن أهم النتائج المتحصل عليها هذه السنة في مقاطعة قسنطينة هي تسوية الطريق القديم بالقنطرة لتسهيل ربط التل بالصحراء وذلك تحت نقيب الأشغال ريفو RIFFAUT واحتلال بسكرة وتنصيب قوة عسكرية بقصبتها تحت قيادة الملازم بتيقرون PETIT GRAND تتكون من مائتين وخمسة وخمسين (255) جنديا منهم تسعة وأربعين (49) من قدماء عسكر قسنطينة فضلوا البقاء في بسكرة والباقي جنّدوا حديثا من سكان المنطقة ويوجد من بينهم من خدم في جيش خليفة الأمير عبد القادر، وتركت معهم بعض المؤن والأسلحة والذخيرة... مع العلم أن العقيد لابورتون LE BRETON يقوم بمراقبة الطريق الممتد بين بسكرة وقسنطينة من مركز إنطلاقه عند باتنة. كما كان يراقب أيضا أولاد سلطان المحرضين من طرف الحاج أحمد باي المعتصم بجباهم الحصينة والمنيعة وهم مازالوا يحملون لواء الجهاد المقدس[2].

وفي 25 أفريل تجمعت قوة عسكرية هائلة وتمركزت بنقاوس على سفوح جبال أولاد سلطان من أجل القضاء على مقاومة أحمد باي. لم يبق الرائد توماس في بسكرة إلا عشرين (20) يوما دعي بعدها إلى مدينة باتنة حيث تتمركز القوات الفرنسية إستعدادا للهجوم على سكان مناطق الأوراس وقمع مقاومة أحمد باي. ومما يلاحظ في هذا القبيل هو أن العدو واحد وهو الاحتلال الفرنسي بينما المقاومة الجزائرية منقسمة بل مشتتة وغير منسجمة ففي الزيبان رفع لواء المقاومة الأمير عبد القادر عن طريق خلفاءه، بينما بجبال الأوراس فهي تحت قيادة أحمد باي، وهذا ماجعل القوات

---

(1) Rapport du 02 juin 1844, du Duc d'Aumale, in R.A , n° 29 (1885), pp 13-27.

(2) الأرشيف الوطني التونسي، ملف 929، ص 78، خزانة 7 وثيقة 45.

الفرنسية تتوجه بكل قواتها وامكانياتها لجهة واحدة للقضاء عليها ثم الالتفات إلى الأخرى، وهذا ما حصل مع المقاومة الجزائرية في هاته الفترة بصفة عامة.

ومما لا شك فيه أن جذوة المقاومة مازالت مشتعلة في صفوف المجاهدين المرابطين بالأوراس، وخاصة عند الخليفة محمد الصغير بن أحمد بلحاج الذي بدأ بجمع أنصاره ويعقد معهم الجلسات العملية لتدارس الأوضاع الراهنة قصد الوصول إلى السبل الكفيلة بإخراج البلاد من محنتها وتخليصها من الغاصب المحتل. وأخيرا إنتهى إلى تشكيل اللجان من أجل نشر الوعي السياسي في الأوساط الشعبية، وفتح باب التطوع لمن يريد الجهاد في سبيل الله والوطن.

وكانت هذه اللجان تطوف بالقرى والمداشر، وتحظى باستقبالات حارة ورائعة وبالتأييد التام المطلق. «وفي جميع القرى كان الشباب يتسابقون إلى الانخراط في صفوف المجاهدين. أما رؤساء القبائل فقد كانوا في أغلب الأحيان يجددون ولاءهم للخليفة ويعلنون له عن تضامنهم الكامل معه كما كانوا يضعون رهن إشارته كل ما يحتاج إليه من أرواحهم وأموالهم التي سلمت من نهب الاستعمار. وهكذا وبعد أيام رجعت اللجنة مظفرة ومعها ما يزيد عن الخمسمائة فارس. ولكن قوات الاحتلال تعد بالآلاف. هذا إذا قطعنا النظر عن فعالية المدافع والأسلحة الحديثة التي لم تكن عند الجزائريين. ولذلك فكر الخليفة في أن يسلك سبيل الحيلة إذا كان يريد دخول بسكرة وطرد الفرنسيين منها»[1].

لهذا صمم محمد بن الصغير بن أحمد بلحاج على استرداد مدينة بسكرة عن طريق خطة عسكرية تقتضي استعمال حيلة محكمة التدبير[2].

---

(1) محمد العربي الزبيري، **مقاومة الجنوب الاحتلال الفرنسي**، الجزائر (ش.و.ن.ت) 1972، ص 37.

(2) Ben Gana, op-cit. p 98.

فأعطى الأمر إلى مائة وخمسين (150) مقاتل من بين الرجال الأشداء المخلصين الذين لهم قدرات قتالية فائقة. فيستسلمون جماعات ووحدان إلى السلطات الفرنسية ويطالبون بالانخراط في صفوف الجيش الفرنسي، الذي يقوم بحماية بسكرة والزيبان وبذلك يكون القائد محمد الصغير قد أنشأ الطابور الخامس الذي يعتمد عليه عندما يحين الوقت اللازم للهجوم على بسكرة.

وفعلا تم تنفيذ الأمر بكل حيطة وحذر، وشرع كل مستسلم من المجاهدين في أداء مهمته حتى تمت كل الترتيبات داخل قصبة بسكرة في كنف السرية التامة. ففي 09 ماي 1844 أمر الدوق دومال شيخ العرب إبن قانة بأن يجمع قواته وينظم بهم إلى القوات الفرنسية لمحاربة أولاد سلطان وأولاد بوعون ولما سمع الخليفة محمد الصغير بن أحمد بلحاج بهذا الخبر، رأى أن الوقت قد حان للاستلاء على مدينة بسكرة فجند ما بقي له من الفرسان وهاجم ليلا القوات الفرنسية في بسكرة على الساعة الثانية من يوم 12 ماي، وأحرز على انتصار باهر واحتل المدينة.

وقد أورد الرائد توماس وقائع الهجوم في تقرير[1] مفصل وجهه إلى القيادة العليا نجمله فيما يلي: «في صبيحة يوم 12 ماي على الساعة الثانية صباحا دخل حوالي 150 مقاتلا من جنود الخليفة إلى حي القصبة مستعملين الثغرة الموجودة بجدار أسطبل البقر. وفي الحين تنبه الفرسان العرب الذين يكونون زمالة قائد بسكرة، واطلقوا نيران بنادقهم لكن العدو الذي كان يساعده أنصار الخليفة المدرجين في صفوفنا سرعان ما أخمد صوتهم وقتلهم عن آخرهم.

وفي نفس الوقت تسرب العدو إلى جميع ثكنات الجيش داخل وخارج القصبة... لم يضيع العدو دقيقة واحدة فاتجهت أغلبية جنوده بقيادة

(1) Rapport du commandant Thomas, Chargé de l'enquête sur le massacre de la garnison de casbah de Biskra, in Ben Gana. op-cit. pp 99-101.

السيافة إلى مكان الضباط الفرنسيين. وكان أول من صرع هو الضابط الفرنسي كروشار CROCHARD عندما أراد أن يعطي الأوامر إلى الحارس الذي يرابط أمام بابه. وهو من أنصار إبن أحمد بلحاج فقتله مع الآخرين.

وأسرع بتيقران إلى هذا الضجيج خارج منزله، فقتله حارسه بطلقة نارية ثم ضعن بعدة طعنات بالسيف، فجاءه الدكتور أرسلين ARCELIN مسرعا لاسعافه فطلب من حارسه أن يناوله البندقية فسلمها له فارغة، لذلك إهتم بتعميرها وفجأة أصيب برصاصة قاتلة.

ومن جهته إستطاع العريف الأول بيليس PELISSE أن يفر من نافذة بيته ويلتحق بمركز البوليس الكائن في باب أومال وهناك ألقي عليه القبض وبدأ الحراس يتشاورون حول كيفية قتله. وأخيرا إكتفى أحدهم بأن يوجه إلى جبهته ضربة قاسية بمؤخرة البندقية فأغمي عليه، ثم استيقظ وأسرع إلى بيت القائد بتيقران فوجده مقتولا أمام الباب. عندئذ تيقن أن المدينة قد سقطت في أيدي قوات خليفة الأمير عبد القادر، فلاذ بالفرار تحت وابل من الرصاص.

وفي خارج المدينة إلتقى صدفة بأحد الجنود فعرض عليه أن يتبعه إلى طولقة للحماية بشيخها سي محمد الميول وهكذا أصاب العدو هدفه وبلغ غايته المنشودة...«وتجدر الملاحظة هنا أن محمد بن أحمد بلحاج قد وجد بين الغنائم المتحصل عليها في بسكرة إمرأة فرنسية في مقتبل العمر وهي ماري موراتي Marie Morati وكانت تقوم بوظيفة طباخة للجيش[1] فعرض عليها الاسلام ثم الزواج، وتم له ذلك فعاشت معه معززة مكرمة، وأنجبت له طفلين، ومكثت إلى جانبه إلى أن توفي بمدينة توزر (جنوب تونس) 1846، فانتقلت بعد ذلك حوالي 1860 مع ولديها إلى القيروان..

(1) Bengana op-cit. p 102.

وتقول بعض المصادر الفرنسية أنها رجعت إلى فرنسا ثم إرتدت إلى المسيحية، بينما الواقع هو اختيارها لمدينة القيروان له دلالة واحدة هي لا يمكنها الرجوع إلى قرية سيدي عقبة بالجزائر، فاختارت القيروان لما لها من صلة بموطن زوجها وإبنها ومجاورة أعرق وأشرف مسجد في المغرب العربي كله والذي شيده الصحابي الجليل عقبة بن نافع.

وتبين هذه القصة وتبرهن عن الجانب الخفي للصراع الحضاري الدائر في الجزائر بين كل من الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الأوروبية الوافدة. ذلك أنه سرعان ماانتشرت أخبار سحق الحامية الفرنسية ببسكرة، وعلم الدوق دومال بياتنة بتفاصيل الواقعة عن طريق العريف الأول بيليس يوم 14 ماي، وفي حين أخذ طريقه إلى بسكرة مع قواته، فدخلها للمرة الثانية يوم 18 ماي 1844(1).

ولما علم محمد الصغير بن أحمد بلحاج بوصول الفرنسيين إلى بسكرة سارع بجمع متاعه والأسلحة والغنائم المكتسبة وأمر جنوده بالانسحاب نحو جبال الأوراس للمرابطة هناك وعدم الصمود أو التصدي للقوات الفرنسية الهائلة، حتى لا تتمكن من الانتقام.

وعندما وصلت القوات الفرنسية إلى بسكرة، لاحظ الدوق دومال أن المدينة خالية من كل أثر للقوات العربية المجاهدة، لهذا إتخذ إجراءات وتدابير صارمة(2) من نهب واغتصاب وهتك للحرمات والقتل وحجز أملاك المجاهدين.

وفي 23 ماي 1944 أصدر الدوق دومال أمرا عاما إعتبره تنظيما جديدا للجنود، وبمقتضاه عين الرائد توماس قائدا أعلى لدائرة بسكرة. وتحت إدارة الضابط أربعة مسؤولين من الأهالي يعملون في نطاق محدد.

---

(1) Loc-cit.

(2) Correspondance du Duc d'Aumale et de Cuvillier-Fleury- introduction par René Vallery-Radot. I-1840 à 1848 deuxième édition paris. 1910. p 307.

أ ــ **قيادة شيخ العرب**: بوعزيز بن قانة؛ الذي يتلقى منصب خليفة الصحراء، وتمتد سلطته على:

1 ــ **واحة بسكرة**: توضع واحة بسكرة والمدينة تحت سلطة القائد محمد الصغير بن علي بلقدوم بن قانة. وقسمت الواحة الى ستة أحياء هي: باب القبة، رأس الكربة، باب الضرب، باب الغنة، قدشة؛ المسيد، ويذير، ولكل حي كبير الجماعة.

2 ــ الزاب الظهراوي: «ويشتمل على الواحات التالية» بوشقرون، فرفار البرج، ليشانة، الزعاطشة وطولقة. كل هذه الأجزاء تخضع لكبراء الجماعة ماعدا طولقة التي عندها شيخ.

3 ــ **الزاب القبلي**: ويشتمل على الواحات التالية: أورلال، لبوا، مخادمة، بن طيوس، ومليلي، الزاوية ومناهلة، بيقو، أوماش، الصحيرة. لكل من أورلال ومليلي شيخ، والواحات الأخرى تخضع لكبير الجماعة.

4 ــ البدو والآخرين: توضع مباشرة تحت سلطة شيخ العرب، وهم رحل الجنوب: عرب الشراقة وعرب الغرابة وأولاد سيدي صالح.

ب ــ **قيادة سي مقران**: هذا القائد الأهلي المنحدر من أسرة مرابطة لأولاد سي محمد بلحاج، تلقى قيادة الحضنة، وأولاد دراج وأولاد زيان وبني سويق، وبني فراح وأولاد سحنون القنطرة، البرانس والصحاري.

ج ــ قيادة الزاب الشرقي: وقسم الزاب الشرقي مابين الفرعين المتناحرين من أولاد مولة وهما البو عبد الله وابن شنوف، يحتفظ شيخ العرب بتأثيره الواضح على هؤلاء السكان[1].

(1) Ibid, p.106.

وبهذه الاجراءات والترتيبات الاستعمارية اعتقدت السلطات الفرنسية أنها قضت على المقاومة بصفة نهائية ورسخت أقدامها على بوابة الصحراء. لتلج بعد ذلك داخل الصحراء وتتربع عليها.

ورغم ذلك فإن روح الثورة مازالت متأججة في النفوس حيث تمكن خليفة الأمير عبد القادر من تجنيد قبائل دواودة الأوراس وهاجم في الثامن من جويلية 1844 واحة الدروع الكائنة شمال شرقي سيدي عتبة، فأباد الحامية الفرنسية المرابطة هناك، ثم إنتقل بعد ذلك إلى خنقة سيدي ناجي لتخلصها من الاحتلال. وخلال سنة 1845 حاول سكان أحمر خدو أن يراوغوا الرائد سان جرمان بإيهامه الخضوع له، وفي بداية سنة 1846 أشيع في الأوساط الشعبية بقدوم الأمير عبد القادر إلى الشرق الجزائري. لهذا بدأ أنصار محمد الصغير تتحرك وتستعد للمقاومة وقد أثارت هذه التحرشات مخاوف الملازم ليبار Liébart قائد بسكرة(1).

كما امتازت هذه السنة بمقاومة جبال شرشار واسترجاعهم لواحة خنقة سيدي ناجي، وقد واجههم الرائد سان جرمان بمدافعه وأسلحته الجهنمية، وتمكن من القضاء على ثورة النمامشة الباسلة، وعاقب الثوار عقابا شديدا وبدون رحمة(2).

وفي سنة 1847 قدم الزعيم والثائر الشهير بومعزة إلى ناحيتي سيدي خالد وأولاد جلال بعد أن لاحقه طابور المدية. وقد أثار قدومه إلى الناحية روح المقاومة والثورة في المنطقة وعانى الجنرال الشهير هربيون Herbillon الكثير من الشدائد والمصاعب لاخمادها.

---

(1) Serok, op-cit p.440
(2) Charles Péraud, «Les Ben Djellah» in R.A n° 29 [1885] p 395.

وتميزت سنة 1848 بسقوط الملكية الفرنسية، وقيام الجمهورية الفرنسية الثانية، وإنجر عن ذلك أحداث واضطرابات عديدة، حيث اغتنم الثائر على باي إبن الخليفة الراحل فرحات بن سعيد هذه الفرصة فاشعل ثورة عارمة زعزعت الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

كما تميزت هذه السنة باستسلام المجاهد أحمد باي بعد أن فرغت جعبته من كل وسائل المقاومة وانهكه المرض. فتقدم برسالة إلى قائد بسكرة سان جرمان بتاريخ 02 جوان 1848 بطلب الأمان(1) فوافقت السلطات الفرنسية عن ذلك وأرسل إلى باتنة ومنها إلى قسنطينة، ثم أقيم بالجزائر العاصمة تحت الرقابة حتى سنة 1851(2). وبعد وفاته دفن بمسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة.

وأخيرا توجت كل هذه الأحداث بمقاومة شديدة وبطولية خلدت إسمها في التاريخ بحروف من ذهب ونور، وهي ثورة الزعاطشة سنة 1849، والتي تحتاج إلى مزيد من التنقيب والبحث والدراسة لابراز الحقائق التاريخية الكامنة في طياتها لاستخلاص العبر من تاريخنا المجيد والترحم دوما على شهدائنا الأبرار والمجد والخلود للجزائر موطن المجاهدين والأحرار.

---

(1) Charles Féraud, «Les Djellah» in R.A n° 29 (1885) p 395.
(2) Seroka op-cit p.502.

ثورة الزعاطشـــة

عرفت الجزائر خلال القرن الماضي عدة ثورات شعبية خالدة، منها ثورة الزعاطشة التي تعد حلقة مضيئة من سلسلة بطولات الشعب الجزائري الذي ثار من أجل استعادة حريته وكرامته، وجاهد لطرد الغاصب المحتل، وعدم السماح له بالتغلغل في أعماق الوطن.

وكما هو معروف فإن الثورات والحروب تمر حتما بالخطوات الأساسية التي هي الأسباب والمراحل ثم النتائج.

ـ أسباب الثورة :

لهذه الثورة أسباب عديدة مترابطة ومتداخلة مع بعضها البعض يمكن حصرها في النقاط التالية:

1 ـ لا شك أن أول سبب لهذه الثورة هو رفض الشعب القاطع للاحتلال الفرنسي وهو بذلك يعتبر من أقوى الأسباب وأهمها لكفاح الشعب الجزائري ومقاومته للاستعمار الدخيل على البلاد والعباد.

2 ـ صدى الأحداث الخطيرة التي حصلت على الساحة الفرنسية ذاتها والمتمثلة في وقائع الثورة الفرنسية لسنة 1848 وعزل الملك الفرنسي لويس ـ فيليب والإطاحة بنظامه وقيام الجمهورية الفرنسية الثانية كل ذلك أثر على الحياة السياسية بالجزائر فقد عزل الحاكم العام للجزائر الدوق دومال (Le Duc D'AUMAL) ابن الملك لويس ـ فيليب وتعويضه بالجنرال كافانياك (CAVAIGNAC)(1) وذلك يوم 3 مارس 1848 ثم تلاه رحيل

---

(1) Paul AZAN, Conquête et Pacification de l'Algérie, PARIS, Sans date, p 396.

عدة كتائب من الجيش الفرنسي من الجزائر لتشارك في الثورة الفرنسية بفرنسا نفسها وتعمل على إخماد الفتن.

وفي نفس الوقت إنتشرت أخبار مفادها أن بريطانيا قد أعلنت الحرب على فرنسا[1] وأنها تستعد لشنّ حملة عارمة على الاحتلال الفرنسي في الجزائر.. وقد وصلت هذه الأخبار إلى منطقة الزيبان عن طريق العمال البساكرة بالعاصمة.. والذين يعودون إلى بلادهم من حين لآخر.. فأشاعوا هذه الأنباء المثيرة والتي فهمها أهل الزعاطشة على أن ساعة الخلاص والتحرر قد حانت.. فرفعوا لواء الثورة والجهاد[2].

3 ــ كان للظروف العسكرية التي عاشتها مقاطعة قسنطينة الدور الهام في تهيئة الفرص المواتية للشيخ بوزيان ــ زعيم الزعاطشة ــ لاعلان الجهاد.. ذلك أن جيوش المقاطعة قد جهزت لقمع الثورات المشتعلة هنا وهناك؛ في كلّ من الزواغة وبني يعلي مليكش بجبال جرجرة.. وثورة أولاد دراج بالحضنة وأولاد فرج بمنطقة بوسعادة.. وغيرها. وقد أدى ذلك إلى تناقص عدد القوات المرابطة بمركزي باتنة وبسكرة. والتي لم يزد عددها عن ثمانمائة (800) رجل بالاضافة إلى غياب قائدهم سان جرمان (SAINT-GERMAIN)[3] عن دائرة بسكرة.. فاستغل الشيخ بوزيان كلّ الظروف لاعلان حركته الجهادية.

4 ــ أمل الشيخ بوزيان في مواصلة الثورة التي قادها الأمير عبد القادر طيلة سبعة عشر عاما. ذلك أنه كان تابع لدولة الأمير. وكان يشغل منصب شيخ على واحة الزعاطشة ضمن موظفي إدارة الأمير بالمنطقة.

---

(1) Ibid, p.298.

(2) Paul GAFFAREL l'**Algérie Conquise depuis la prise de constantine jusqu'à nos jours**, PARIS, 1886, p.169.

(3) Le commandant SEROKA, «Le Sud constantinois de 1830 à 1855» Revue Africaine, n° 56 (1912) p.504.

وتذكر بعض المصادر التاريخية أنه كان من المرابطين والأشراف...وأنه كان محاربا شجاعا، ومن أحذق الرماة. وأن سمعته كانت واسعة وشخصية محترمة.. وقد حارب ضد جنود الحاج أحمد باي خلال حصار الزعاطشة سنة 1831(1) فضلا عن نفوذه المالي.

ورغم استعمال العدو لكلّ الوسائل الجهنمية من أجل معاقبة الثوار والمجاهدين ليكونوا عبرة للآخرين...كالاعدام والتعذيب والمصادرة والاتلاف والحرق.. وحتى الترويض والتدجين وشراء الذمم.. فإن شعلة الثورة. لم تنطف، بل استمرت مرفوعة يسلمها كل ثائر إلى خلفه لذلك فإن الشيخ بوزيان قد أخذ المشعل عن الأمير عبد القادر لمواصلة الكفاح في سبيل الله والوطن.

5 ـ إنتشار الروح الدينية والوطنية للحفاظ على كيان الشعب العربي المسلم في الجزائر، الذي بدأ يتعرّض للتحطيم وللقضاء على شخصيته الوطنية من طرف السياسة الفرنسية في الجزائر، ذلك أن المواجهة ليست عسكرية فقط بل هي حرب حضارية أيضا.

كما أن للواعز الديني دوره الفعال في تعبية المجاهدين..فقد اعتمد الشيخ بوزيان في كسب ثقة الملتفين حوله. وتقوية عزيمة مؤيديه وترسيخ إيمان كامل السكان بما كان يدعو إليه بأن النصر مؤكد.. وهذا حسب إدعائه لرؤية النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام في المنام(2) وأن الرسول الكريم قد قال له بأن عهد الكفار قد انتهى، وسيبدأ عهد المؤمنين، وبأنه مكلّف بمحاربتهم وإخراجهم من الجزائر(3).

---

(1) SEROKA, op.cit., p 387.

(2) Le commandant FERAUD, «Les Ben-djellab, Sultants de Tougourt, Notes gistorique sur le province de constantine» in, R.A. n° 28 (1884), p.399.

(3) GAFFAREL, l'Algérie conquise, p. 169.

6 ـــ لا شك أن للدافع الاقتصادي الدور الهام في اشتعال هذه الثورة حيث ارتفعت الضرائب على النخيل إبتداء من شهر مارس 1849 من 0,25 فرنك إلى 0,40 فرنك(1) للنخلة الواحدة.. والملاحظ أن هذا الارتفاع في الضرائب مبالغ فيه أدى إلى تبرم السكان(2) كما ألغت السلطات الفرنسية جميع الامتيازات القديمة للمرابطين.. والقاضية بإعفائهم من الضرائب. ومن بينهم الشيخ بوزيان الذي استغل هذه الزيادة في إثارة السكان ضد الاحتلال.

ومهما يكن فإن الظلم الاقتصادي هو من الدوافع الهامة لاشتعال الثورة، غير أنه ليس بالدافع الأساسي لأن الجزائريين يثورون غالبا بدافع الشرف والدين والوطن، ويدل على ذلك تضامن سكان الجهة مع الثوار(3).

إندلاع الثـــورة :

هكذا تظافرت كل هذه العوامل لاندلاع الثورة، والتي أشعل فتيلها.. تصرفات وعجرفة الملازم سيروكا (SEROKA) حيث لاحظت السلطات الفرنسية نشاطا متزايدا للشيخ بوزيان، الذي استدعى رؤساء القبائل والأعراش، فتوافدت عليه الوفود من كل جهة لتدارس الأوضاع ولتهيئة الشروط الضرورية للثورة كجمع المال وشراء السلاح وتخزين المؤن وغير ذلك، وأقيمت بهذه المناسبة الولائم وذبحت الذبائح وانتشرت البهجة والأفراح لأن الخلاص من كابوس الاحتلال الفرنسي قد قرب.

---

(1) أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية**، الجزء الأول، القسم الأول، الجزائر، 1992، ص 352.

(2) LOUIS BADICOUR, La guèrre et le gouvernement de l'Algérie, PARIS, 1853, p.504.

(3) سعد الله، الحركة ص 352.

واستطاع الشيخ بوزيان أن يقنع الجميع ويحظى بثقتهم ويوحدهم تحت راية الدين الحنيف والجهاد المقدّس.. فتكتلت وثارت ضد السلطات الفرنسية التي جاءت تجمع الضرائب في ذلك الوقت.

كذلك أمر الوالي العام ضباط المكاتب العربية بأن يقبضوا على الثائرين...الرافضين للاحتلال الفرنسي، فقام سيروكا نائب قائد المكتب العربي ببسكرة بالتحرك نحو الزعاطشة للقبض على الشيخ بوزيان[1]، واصطحب معه شيخ بلدة طولقة إبن المبيوب صحبة بعض من رجاله الفرسان.. وتوجّه الجميع إلى واحة الزعاطشة حيث وجدوا الشيخ بوزيان يتجوّل وحده في البطحاء التي تتوسط القرية، فطلب منه الضابط الفرنسي أن يتوقف ويذهب معه إلى مقرّ القيادة، وأمره أن يركب بغلة معدّة لهذا الغرض.. ويتبعه إلى بسكرة.

امتثل الشيخ بوزيان للأمر وصعد على ظهر البغلة، ثم فجأة مزق خيط سبحته فتناثرت حباتها على الأرض، فنزل ليتظاهر بجمعها، وهو بذلك يريد أن يربح الوقت.. ليستعد أنصاره للمواجهة، وفعلا سرعان ماانطلق الرصاص من بنادق المجاهدين أفزعت الفرقة العسكرية الفرنسية، فأسرع الضابط الفرنسي ومن معه إلى باب القرية لفتحه بصعوبة ثم لاذوا بالفرار تاركين وراءهم حصانين وبرنوسين أحمرين وبندقية...اغتنمها سكان الزعاطشة..الذين خرجوا عن بكرة أبيهم بأسلحتهم[2].. وكانت هذه الحادثة بمثابة الشرارة الأولى اشعلت نار هذه الثورة العارمة.

وفي بسكرة قدّم الملازم سيروكا تقريرا مفصلا إلى القيادة العليا، أخبرها فيه بأن جميع السكان في واحات الزيبان مستعدون ويناصرون الثائر بوزيان، وأن الجهاد (النفير) قد أعلن من مآذن مساجد القرى.

---

(1) SEROKA, op.cit., p 504.

(2) FERAUD, op-cit, p 401.

وعلى اثر هذا التقرير إنتقل الضابط دوبوسكييه Dubosquet رئيس المكتب إلى الزعاطشة ليطلب من السكان أن يسلموا له الشيخ بوزيان فرفضوا الانصياع وقال له المجاهدون: «إننا نرفض أن نسلمكم الذي تطلبون وأننا سنقاتل عن آخرنا رجالا ونساءًا من أجله»(1).

تيقن الضابط دوبوسكييه أنّ روح الثورة قد انتشرت في المنطقة وأن سكان فرفار وفوغالة مستعدين لحمل السلاح دفاعا عن الزعاطشة وأنّ شيوخ بوشقرون وطولقة قد تخنو عن أوامر السلطات الفرنسية.. هذا أدرك الضابط الفرنسي أن وضعه في هذا الموقف الحرج ضعيف فتراجع إلى بسكرة ليتخذ الاجراءات اللازمة لمعالجة الموقف.

لذلك سارع النقيب لاقرونية LAGRENEE بإعطاء أوامره لشيخ العرب بوعزيز بن قانة بأن يجمع قواته من طرف القوم ويحاصر بهم واحات الزعاطشة وفرفار وليشانة، ويعزلهم عن باقي القرى ويمنع عنهم المدد.

وكان النقيب يعتقد بإجرائه هذا أنه سيحقق النتائج المرجوة وهي أنّ هذه القرى لن تتوان في طلب الأمان، خاصة بعد الأخبار التي تفيد بوصول الطابور الفرنسي الذي سيضع حدا لهذا الشغب(2).

ـــ مراحل الثورة :

مرّت ثورة الزعاطشة بثلاث مراحل أساسية وهي:

ـــ مرحلة انتصار الثورة.
ـــ مرحلة حصار الزعاطشة.
ـــ مرحلة الهجوم الكاسح للفرنسيين.

---

(1) محمد العربي الزبيري، مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الجزائر، 1972، ص 53.

(2) BOUAZIZ BENGANA, **Le Cheikh El-Arab**, Etude historique sur la famille Benagana, ALGER, 1930, p 115.

(3) Paul AZAN, L'Armée d'Afrique, de 1830 à 1852 PARIS. 1936, p.444.

1 ــ المرحلة الأولى :

بدأت هذه المرحلة بوصول القوات الفرنسية إلى الزعاطشة يوم 16 جويلية 1849 تحت قيادة العقيد كاربوشيا (CARBUCCIA) فشدد الحصار على الواحات.. لخنق الثورة وإخمادها في مهدها.

والتخلص من زعيمها بوزيان من أجل إرجاع الأمن واستتبابه في المنطقة لكنها فوجئت بصلابة الثورة وإقدام المجاهدون الذين أمطروا القوات الفرنسية بوابل من الرصاص قضت على العديد من جنودهم، وبعد ساعات طويلة من الاقتتال بين الطرفين تأكد العقيد كربوسيا من هزيمته(1) فأمر ما بقي له من الجنود بالرجوع إلى الخلف.. لكنه كان محاصرا أيضا من طرف سرايا مجاهدي المسيلة وبوسعادة وأولاد نائل الذين جاؤوا لمناصرة إخوانهم في الزعاطشة والذين كبدوه خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وفلت الضابط كاربوسيا وجنوده من قبضة المجاهدين بأعجوبة، حيث انبطح مع جنوده الأحياء إلى جانب القتلى لاهام الثوار بأنّ الجيش الفرنسي قد قضي عليه تماما.. ولما تأكد كاربوسيا من مغادرة المجاهدين للمكان أمر جنده بالقيام.. وفرّوا مسرعين إلى بسكرة.

كان هذا أول هجوم فرنسي على الزعاطشة للقضاء على الثورة ولكنه فشل فشلا ذريعا.. مما زاد من تأجج نار الثورة في صفوف المواطنين (الأهالي) ودفعهم هذا النصر إلى الالتفاف حول الثورة وتمديد لهيبها إلى مناطق أخرى.

ومما لا شك فيه أن هذا النصر قد لقي وقع شديد في نفوس سكان واحة خنقة ــ سيدي ــ ناجي.. فقام الشيخ المرابط سيدي عبد الحفيظ

(1) Paul AZAN, l'armée d'afrique, de 1830 à 1852, Paris, 1936, p 444.

مقدم إخوان الرحمانية برفع لواء الجهاد.. فالتف حوله العديد من القبائل وتحرّك الجميع لتحرير مدينة بسكرة.. وكان موكب المجاهدين يحظى في طريقه باستقبال حار من طرف سكان القرى المجاورة كما كان يتطوّع إليه العديد من الرجال وينخرطوا إلى صفوف الثورة لنصر الحق وإعلاء كلمة الله أكبر.

ولما وصل الموكب إلى سريانه أصدر سيدي عبد الحفيظ أمره لخلفائه بحط الرحال والتمركز على الضفة اليسرى لواد براز لقضاء الليلة هناك.

وفي نفس الوقت أرسل الشيخ عبد الحفيظ رسولا إلى شيخ سيدي عقبة الباي بن شنوف يطلب منه المآزرة والانضمام إلى جند المسلمين لمحاربة العدو المشترك. ولكن إبن شنوف غدر وخان وأسرع بأخبار السلطات الفرنسية.. فخرج قائد دائرة بسكرة سان جرمان في الحين على رأس قوة هائلة ليباغت المجاهدين قبل طلوع الفجر.

حينما وصل سان جرمان واد براز وجد العدوء مخيما على المكان وفي غياب الحراسة الكافية ضرب القائد الفرنسي الحصار على معسكر المجاهدين. ومع آذان الصبح انطلقت الرصاصات الأولى وبدأت المعركة وقاتل المسلمون كالأسود الضارية وقلوبهم مفعمة بالايمان، واستطاعوا في الساعات الأولى من المعركة أن يهزموا قوات العدو ويقتلوا قائدهم الرائد سان جرمان برصاصتين في الرأس[1].. لكن شدة المباغتة وأحكام الحصار جعلت قوة المجاهدين تتقهقر وتنهزم. مما أجبر سيدي عبد الحفيظ على الانسحاب من ميدان المعركة تاركا وراءه خسائر فادحة في الأرواح حوالي مائتي شهيد.. وأسرع بالاعتصام بالجبال المجاورة ريثما ينظم صفوفه ويجمع شتاته استعدادا للهجوم مرة أخرى وتخليص بسكرة من مخالب الاستعمار.

---

(1) AZAN, Conquête, p. 406.

أما الفرنسيون فقد رجعوا إلى بسكرة ظافرين رغم أنهم خسروا قائدهم وجزءا من قواتهم.

ولما وصل نعي سان جرمان إلى الجنرال هيربون (HERBILLON) حاكم مقاطعة قسنطينة آنذاك، عيّن العقيد كربوسيا خلفا له. ثم توجه بنفسه لمحاصرة الزعاطشة.

II ـ المرحلة الثانية :

بدأت المرحلة الثانية بتحرك الجنرال هيربيون لمحاصرة واحات الزعاطشة وقد انتظر نهاية فصل الصيف وانخفاض درجة الحرارة، حتى لا يتعرض الجيش الفرنسي لقيظ الصحراء.

تجمعت القوات الفرنسية بـ«كدية المائدة» المقابلة لبلدة الزعاطشة يوم 7 أكتوبر 1849 على الساعة الثامنة صباحا وقدر عدد الجنود بأربعة آلاف وأربعة مائة وثلاثة وتسعين (4493) جنديا[1].

والجدير بالذكر أن واحة الزعاطشة يحيط بها سور ضخم لحمايتها من غارات الأعداء وتوجد بها عينان جاريتان تعرفان بعين معكوف وعين الفوار، فضلا عن منتوجاتها الزراعية الكثيرة والمتنوعة كالتمور والحبوب والفواكه والخضر.

«ولحماية القرية من غارات الأعداء قام السكان ببناء خندق كبير يحيط بجميع المساكن وكان تقارب الديار بعضها ببعض يسهل كثيرا التنقل عبر السطوح دون النزول إلى الأرض وكان السكان من جهتهم قد فتحوا في حيطان كثيرة من المنازل منافذ صغيرة تسمح لهم بالتنقل من حي لآخر دون أن يظهروا إلى العيان»[2].

---

(1) HERBILLON; **Quelques pages d'un vieux cahier**, souvenirs du général Herbillon (1794-1866), publié par son petit fils, PARIS, 1928, p.136.

(2) الزبيري، المقاومة، ص 67.

لاشك أن هذه التحصينات المحكمة، والغابات الكثيفة والمسافات التي تفصل بين الواحات.. كلّها مصاعب تجعل القوات الفرنسية في وضعية سيئة. لذلك كلما اقتربت من الزعاطشة الأ وتكبدت خسائر فادحة أرغمتها على التراجع منهزمة.. مما جعل الجنرال هيربيون يشتكي من الوالي العام الجنرال شارون الذي لم يزوده بالقوات اللازمة للحصول على نتائج هامة واعطاء لهذه الواحات درسا لن تنساه، وتسليط عليهم عقوبات تبقى عبرة للآخرين[1].

. .

ومن ترتيبات الحصار الذي ضربه هيربيون هو احتلال الزاوية التي تقع على مسافة نصف كليومتر من الكدية، وبها مدرسة تعلوها مئذنة مرتفعة نسبيا وأن موقعها إستراتيجي يوفر جميع شروط تثبيت الحصار والانطلاق للهجوم.

بدأت العمليات باحتلال مكان ربط الزعاطشة ببلدة طولقة بهدف منع سكان الواحة الأخيرة من تقديم أية مساعدة لجيرانهم، ثم صدرت الأوامر للمدفعية بأن تقصف أسوار البساتين المحيطة بالزاوية لاحداث ثغرة فيها.. وبعدما هدمت بعض حيطان السور هجمت القوات الفرنسية على الزاوية ولكنهم وجدوا مقاومة مستميتة من طرف الثوار، فولوا على أعقابهم بعدما تركوا وراءهم عددا من القتلى يقدر بخمسة وعشرين قتيلا منهم ضابط واحد وسبعة وأربعين من الجرحى[2] ثم نصبت بطارية للمدفعية في مكان يبعد عن الزاوية بحوالي بسبعين مترا عن طريق ليشانة لكونه موقع هام للهجوم.. وعلى الفور شرع في تحصينه بأكياس مملوءة بالتراب.. لكنها تعرضت إلى وابل من رصاص المجاهدين.. ورغم ذلك فقد تم احتلال الزاوية ورفع فوق مئذنتها العلم الفرنسي وذلك من أجل إحكام قبضة الحصار على واحة الزعاطشة وتضييق الخناق عليها. وقد كلّف ذلك القوات الفرنسية

---

[1] HERBILLON, quelques pages, p165.
[2] AZAN, op-cit, p 467.

خسائر باهضة في الأرواح والعتاد.. غير أن الشيخ بوزيان استطاع أن ينفذ من هذا الحصار ويرسل الرسل إلى مختلف الأنحاء ليطلب النجدة والمدد لاستمرار مقاومة الأعداء. فتوافدت عليه الكتائب والإعانات من جميع الأعراش.. وتفيد المصادر التاريخية أنّ أجنادا كثيرة قد غادرت وادي سوف في طريقها إلى ميدان المعركة. كذلك أنّ خليفة الأمير عبد القادر الأسبق محمد الصغير بن أحمد بلحاج قد قدم إلى منطقة الزعاطشة على رأس كوكبة من الفرسان من نقطة (تونس) للقتال بجانب إخوانهم، كذلك انضمام القبائل الرحل التي غادرت التل إلى الثورة وقدموا كلّ ما لديهم من قوة، وما انفكت نجدات سكان بوسعادة وأولاد نائل وغيرها تصل إلى ميدان القتال.

III — المرحل الأخيرة :

طالب الجنرال هيربيون النجدة من السلطات الفرنسية والتي وصلته من قسنطينة وباتنة وبوسعادة وسكيكدة وعنابة. فجدد الهجوم بقوة هائلة تحت قيادة ضباط بارزين ومشهورين في ميدان القتال أمثال بارال (BARRAL) والعقيد كانروبار (CANROBERT) ولورمال (LOURMEL)[1] والعقيد دومانتال (DOMANTEL) وقدرت بأكثر من ثمانمائة رجل[2]، فضلا عن عتادهم وأسلحتهم ومدافعهم دون ذكر المرتزقة والاحتياطية من أجل القضاء على الثورة بكل وحشية.

إن الحصار الذي ضرب على الزعاطشة منذ أوائل شهر أكتوبر قد ستمر إلى يوم 28 نوفمبر 1849 تاريخ الهجوم الجديد الذي أعطيت فيه تعليمات بإبادة كلّ الواحة من قتل جميع الأحياء من أطفال ونساء وشيوخ وقطع كل الأشجار بما فيها النخيل مصدر رزق السكان، وتخريب كل

---

(1) HERBILLON, op.cit., p.165.

(2) AZAN, op-cit, p 408.

المنازل وحرقها. ورغم ذلك صمد السكان أمام هذا الهجوم الكاسح ولم يطلب أي شخص من الزعاطشة «الأمان» — أي رفع العلم الأبيض للاستسلام — بل اشتبك الثوار مع الجنود الفرنسيين بالسلاح الأبيض من شارع إلى شارع ومن دار إلى دار(1) حتى امتلأت الشوارع بالجثث.

وبعد معارك طاحنة احتلت القوات الفرنسية كلّ الشوارع والساحات والسطوح وذلك حوالي الساعة التاسعة صباحا(2) فسكتت المقاومة واجهضوا على الجرحى المسلمين نكاية بهم.

«وبعد أن سقطت كل الدور وسكتت جميع الأرواح بقيت دار بوزيان قائمة ومنها كان يتصاعد الضرب، فوضع العدو في أساسها الألغام ونسفت بمن فيها على من فيها واختنقت النيران بالدخان والغبار وآنات الجرحى بأصوات الحجارة المتهاوية، ووسط الركام خرج بوزيان شامخ الرأس كأنه شيخ صحابي من رفاق عقبة بن نافع فإنهال عليه العدو ضربا قبل أن يتجلى عنه الغبار والدخان فسقط شهيدا مضرجا بدمائه. وبعد أن تأكد العدو أنه لم يبق في الزعاطشة حي من البشر ولاحية من الشجر، أقام على باب معسكر هيربيون مقصلة رفع عليها ثلاث رؤوس: رأس الشيخ بوزيان ورأس إبنه الشاب (خوفا من أن يأخذ بثأر أبيه ذات يوم !) ورأس شيخ آخر طالما حارب الفرنسيين منذ 1833 وهو الحاج موسى الدرقاوي المعروف بوحمارة»(3).

وصلت الأخبار إلى القبائل المختلفة. وعلمت بهذه الجرائم الشنيعة فتأثرت كثيرا وعزمت على الانتقام لموتاهم والأخذ بالثأر على المساجد التي هدمتها مدافع الحصار ولغابات النخيل المقطوعة التي تعتبر ثروة الزعاطشة.

---

(1) Ibid, p 410.

(2) HERBILLON, op-cit, p.154.

(3) سعد الله، الحركة، ص 355 — أنظر ذلك

HERBILLON, Quelques pages, pp. 154-155

وفي هذا الصدد نظم الشاعر محمد ليشاني قصيدة طويلة من الشعر الملحون يذكر فيها بطولات ثورة الزعاطشة وقائدها الشيخ بوزيان نورد منها بعض الأبيات :

الحمد لله

فرد الحمد اسعاني بحميك يا أبي الدوذان
توصفت انباي الصحراء سلم عليه بوزيان
بسم الله بدأ القصة صارت في آخر الزمان
هذا الروم جار علينا ايدور يرفد بوزيان
بوزيان راه وعر ماهو شي مهموز للخزيان
عنده صرب في لشانه وأهله كاملة شجعان
غير إلى راشق زويجة طبنجة بالفضة والمرجان
ناقلين أسوار تعجب وامشتين بالطغان

ثم يقول:

ان شاء الله من حوضوا نروا من عسل وخمر ولبان
تابعين طريق النبي ومصدقين يابوزيان
ان شاء الله في الدنيا تسعدوا في الجنة يقول مضمان

ويختم الشاعر قصيدته بالأبيات التالية :

ناصرين الدين قبالة متوكلين على الرحمان
يرحم مبارك بن الأحمر وعلي بن داود فتان
الي قال القول احمد ليشاني نظم غيوان
خيار القول على الهادي الصادق النبي العدنان(1).

كذلك خلد الشاعر بن الشرفي من قرية فلياش هذه الثورة في قصيدة رائعة، بدأها بحمد الله والصلاة على الرسول الكريم ثم طرح السؤال التالي:

---

(1) FERAUD, «Les Ben Djellab» in R.A. n° 29 (1885), pp 410-413.

بخبر واشنة المفعول بين سيدي وناس الكفار ؟

الجواب :

جات ليهم قد الجردان والعساكر مثل الويدان
يحلفوا بعبادة الأوثان لين نخلوها وتبقى قفرا
جمعة من كل أوطان من المدية لمغرب اتلمسان
ثم عساكر حتى لوهران ذي قضية ماذا جرا
والجزاير من كل مرسى جات سكيكدة وعنابة بائبات
على الزعاطشة تلاقات تورخو يامن هو يقرا
العساكر والقوم تدور والمدافع تعمّر بالكور

ثم يقول :

حتى من ملايكة الرحمان يقولوا بنصر بوزيان
لا تشفي فيه العديان يمنعوا من هذا الداهية
شيعتهم وصلت للسلطان حوست من الربعة أركان
الخضر وجميع العربان حتى لتونس والبلديا

ويختم الشاعر قصيدته بذكر اسمه وبالدعاء لنفسه

من كلام منظّم بالناس حبيب ما فيه تدماس
على بن الشرفي في قلياش بالله والطف بيا(1)

ـ نتائج الثورة :

لهذه الثورة نتائج عديدة يمكن إجمالها فيمايلي :

1 ـ انتهت ثورة الزعاطشة بخسائر فادحة حيث خربت الواحة بكاملها وعن آخرها، أباد الجيش الفرنسي سكانها وقطع نخيلها واستعمل

(1) Ibid, pp 416-420.

العدو عنف وقسوة وإرهاب يندى له جبين الإنسانية.. من قطع الرؤوس البشرية وتعليقها على خناجر البنادق والأبواب... نكاية وتشفيا..

قد شهد شاهد من أهلهم عن فظاعة الجنود الفرنسيين، حيث يذكر المؤرخ الفرنسي المشهور والورع والقريب عن الأحداث بوديكور BAUDICOUR «إن الجنود (الزواف) قد انقضوا على الذين لم يسعفهم الحظ للهروب، حيث شاهد جندي مبتور يداعب ثدي امرأة مسكينة (أي يكاد يقطع حلمتها) وهي تطالب سوى الإجهاز عليها للتخلص من هذا العذاب.

وهناك جندي آخر حمل طفل صغير من رجله وضرب رأسه على الحائط ليهشمه وغيرها من الأحداث الشنيعة التي لا يمكن وصفها»(1).

2 ـــ أثارة ثورة الزعاطشة تضامنا ديني ووطني رائع أظهره كل الأهالي، ثم ذلك التصميم العنيد الذي أفشل كلّ مخططات العدو وآثار استغرابه وهو أنّ أحدا لم يأته لطلب الأمان رغم فظاعة الحرب واليأس من الانتصار.

3 ـــ احتلال مدينة بوسعادة حيث قامت فيها ثورة بقيادة محمد علي بن شبيرة. وهو زعيم ديني دعا إلى الجهاد أثناء ثورة الزعاطشة وأرسل النجدة إلى بوزيان وهاجم الحامية الفرنسية التي كانت في بوسعادة منذ 1843، فانضم إليه أولاد نائل وعدد آخر من سكان الناحية.. وقد وصلت نجدة فرنسية من البرج ومن مجانة وحاولت فك الحصار على الحامية التي التجأت إلى الجامع الكبير ببوسعادة وكانت القوات الفرنسية بقيادة العقيد دوماس قد هاجمت المدينة يوم 14 نوفمبر 1849، واستطاعت فك الحصار

---

(1) Charles-André JULIEN, Histoire de l'Algérie Contemporaine, La Conqête et les debuts de la Colonisation, (1827-1871) 2e édition, Paris, PUF, 1979, p.384.

وإنفاذ الخامية.. وبعد نجاح دوماس في مهمته فرض على السكان غرامة ثقيلة قدرت بثمانية آلاف فرنك، ونصب الضابط بأن PEIN قائدا على المكتب العربي كما فرض على الأهالي دفع أثمن ما عندهم من زرابي ومنسوجات مما جعل الكثير منهم يفرّ من بوسعادة ويتوجّه نحو القطر التونسي الشقيق، ولم يرجع.

4 — حرق واحة ناره التي تقع على وادي عبدي بالأوراس، فقد لقيت مصيرا كمصير الزعاطشة على يد كاروبير الذي ترق على إثرها إلى رتبة جنرال. فتقدم كاروبير إلى القرية على رأس قوة قوامها ثلاث فرق من الجيش وذلك يوم 5 جانفي 1850 فقتل وهدم وأحرق وسوى الأرض بها على من فيها.

5 — اندلعت ثورة زواوة والتي كان مسرحها المنطقة الواقعة بين تيزي وزو وسور الغزلان.. وجرت معارك طاحنة انتهت باستشهاد الشريف (بومعزة) يوم 2 أكتوبر 1849 وكان مصير رأسه هو مصير رأس بوزيان[1]، إذ علّقه قائد مركز تيزي وزو على مقصلة في سوق سور الغزلان حتى يتيقّن الناس من الخبر.

إنّ هذه الأحداث وغيرها، تدل دلالة واضحة على أنّ المعركة مع الاحتلال الفرنسي هي معركة واحدة سواء في الزيبان أو الأوراس أو جرجرة وإن تباعدت هذه المناطق.. وهو الشيء الذي منعها من الاتصال والتنسيق من أجل الوقوف كرجل واحد في وجه المحتل الدخيل الذي يريد أن يعطي لنفسه حقا ليس له.

6 — برهنت ثورة الزعاطشة على عجز العملاء والخونة.. وتيقنت السلطات الفرنسية من ضعف ابن قانة (شيخ العرب) بل ساورتهم الشكوك

(1) V. REBOUD, «Bulletin» in R.A. n° 30 (1886) pp. 79-80.

في ولائه. لذلك عاقبته السلطات الفرنسية بتقليص نفوذه، وزجّت به في تنافس داخلي مع أفراد أسرته، وتنافس خارجي مع أسرة بوعكاز. وأنشأوا قيادة جديدة في السحاري عينوا عليها بولخراص بن قانة، الذي سيلعب الدور البارز في ترسيخ أقدام الاحتلال الفرنسي في المنطقة وبذلك ينافس ويقتسم النفوذ مع بوعزيز بن قانة.

كما فتتوا المنطقة إلى قيادات جديدة جعلوا عليها قادة جدد حتى لا يترك النفوذ المباشر فيها لأولاد ابن قانة وحدهم، وقد اتبعت السلطات الفرنسية هذا الاجراء مع كلّ الأسر الجزائرية المتعاملة معها، حيث أعطتها سلطات محدودة تسمح للحاكم الفرنسي بالمراقبة عن كثب(1).

وأخيرا استطاع الاحتلال الفرنسي أن يفرض نفسه على المنطقة بقوة الحديد والنار وأن يسيطر على كامل الزيبان، وهو بذلك يضع قدمه على أول عتبة للصحراء ليدلج إليها، لهذا فإنّ احتلال هذه المنطقة تعتبر مرحلة حاسمة للتوسع الاستعماري في الجزائر عامة والصحراء خاصة.

---

(1) Archives d'autre-mer, AIX, 9H11, Note secret, Sureveillances des indigènes.

بنو هلال

دور بني هلال في تعمير الصحراء الجزائرية

إن دور بني هلال في تعمير الصحراء، دور بارز مازالت آثاره وملامحه تبدو جلية إلى اليوم. لذلك فإن هذا الموضوع الهام يتطلب دراسة عميقة وميدانية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تغطيته وتتبع عملية التعمير التي استمرت قرونا عديدة في هذه العجالة لهذا سأعطي — إن شاء الله — خطوطا عريضة لدور بني هلال في تعمير الصحراء الجزائرية.

وسأمهد للموضوع بأرضية جغرافية وتاريخية، حيث أن الجنوب الجزائري جزء من الصحراء الكبرى الافريقية، التي تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا ويحدها في الشمال الجبال الأطلسية وفي الشمال الشرقي ساحل البحر الأبيض المتوسط، أما من الناحية الجنوبية فيحدها ما يعرف ببلدان الساحل.(*)

وتغطي الصحراء الكبرى مساحة تقدر بثمانية ملايين كيلومتر مربع، وتشترك فيها كل من جنوب المغرب الأقصى، والجزائر وتونس وليبيا ومصر في الشمال، وموريطانيا والصحراء الغربية من الغرب، ومالي والنيجر والتشاد والسودان في الجنوب.(1).

ينقسم جنوب الجزائر من حيث البنية التضاريسية إلى أقسام رئيسية:

(*) وهي بلدان السهل، لأن الكلمة عربية الأصل، فترجمت إلى الفرنسية (SAHEL) ثم عربت إلى كلمة الساحل.

(1) Dictionnaire Univerel des Noms Propres le Petit ROBERT 2. Paris. 1981, Page 1517.

ـ القسم الأول: ويقع في الزاوية الشمالية الشرقية، ويتميز بمنخفض بحوالي أربعة وعشرين مترا تحت مستوى سطح البحر، بينما الأراضي المجاورة لا يزيد سطحها على ارتفاع مائتي متر، ولهذه الأراضي أهمية اقتصادية تتمثل في انتشار الواحات، منها واحات الزيبان شمالا، وواحات وادي سوف، ووادي ريغ جنوبا، كما أنها تزخر بكمية معتبرة من البترول.

ـ القسم الثاني: وهو الذي يشغل الجزء الأكبر من الصحراء، ويتمثل في أكبر المساحات التي تغطيها الكثبان الرملية، وأهمها العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير، إلى جانب عروق أخرى ثانوية كعرق شاش وعرق إيقيدي وعرق الراوي وغيرها. كذلك يتمثل هذا القسم في ما يعرف «بالرق» وهي الصحراء الحصوية التي تكاد أن تكون خالية من مظاهر الحياة مثل «رق تانزروفت».

ـ القسم الثالث: يتمثل في المنطقة الهضابية وهي في معظمها ذات تكوينات جيرية، ومنها هضبة الحمادة التي تمتد في الجزء الشمالي من الصحراء إلى الجنوب من السلسلة الأطلسية، وهضبة تادميت الكريتاسية الفسيحة.

والممتدة بين دائرتي عرض 27° و30° شمالا، وترتفع إلى علو يناهز ستمائة متر وقد غطتها على امتداد مئات الكيلومترات من الشمال إلى الجنوب طبقة من اللون الأحمر القديم، ويعلو تلك الطبقة غطاء صحراوي حديث إشتق منها بفعل الرياح على الخصوص وإن كانت تدفقات السيول قد شاركت في تكوينه[1]. ومهما يكن فإن هذه الهضاب تسودها أحوال طبيعية لا تسمح للانسان أن يستقر بها عموما.

---

(1) جودة حسنين جودة، **دراسات في الجغرافية الطبيعية للصحاري العربية**، بيروت، 1980، ص 72.

ـ القسم الرابع: خاص بالمرتفعات التي تتمركز في الوسط بالجنوب الشرقي وتمثلها منطقة التاسيلي ومنطقة الهقار، فالأولى عبارة عن صخور صلصال رملي شاهقة ومتقطعة، وأصبحت هذه المنطقة من أهم سجلات التراث الانساني في العالم، حيث عثر على أقدم الرسومات المعبرة عن حياة ومناخ المنطقة في القديم، حينما كانت تلك الأراضي خضراء تأوي إليها آلاف الحيوانات وتشتمل على نباتات كثيفة. أما المنطقة الثانية فهي مرتفعات الهقار، ومساحتها كبيرة تقدر بحوالي خمسمائة ألف كيلومتر، ومعظمها من الصخور القديمة البركانية التي تعرضت إلى عملية الحت في كل مكان.

ورغم ذلك فلا تزال بها قمم عالية تصل إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف متر، كقمة «طاهات» التي يبلغ ارتفاعها ألفين وتسعمائة وثمانية عشرة مترًا (2918، وهي تعتبر أعلى قمة جبلية في الجزائر.

ورغم عزلة هذه المنطقة وحرمانها، فإنها تتمتع بأهمية اقتصادية، تتمثل في احتوائها على ثروات معدنية مختلفة. ذلك هي أهم ملامح التضاريس في الجنوب الجزائري.

إن هذا الوضع الجغرافي له انعكاس مباشر على المناخ، حيث يتميز جنوب الجزائر عامة والجنوب الغربي خاصة بمناخ قاري قاس، ففي فصل الصيف ترتفع درجات الحرارة إلى أكثر من خمسين درجة مئوية في الظل، وهي تصل بمدينة أدرار أو عين صالح مثلا في كل صيف إلى أكثر من 45 درجة مئوية، كما تنخفض في فصل الشتاء إلى درجة الصفر، وبهذا يكون المدى الحراري بها كبير جدا(1).

بالاضافة إلى ذلك تتعرض الصحراء لهبوب رياح جافة وفي بعض الأحيان مثيرة لعواصف هوجاء من الرمال، تعرقل جميع أنواع النشاط

---

(1) جيلالي صاري، دور البيئة في الجزائر، الجزائر، 1983، ص 20.

البشري، كما تتميز بندرة الأمطار وعدم انتظامها، وقد يبلغ الجدب أقصاه في المنطقة الوسطى من الصحراء، وعرف هذا الجزء انعدام الأمطار لمدة سنوات متتالية.

وتمتد بالناحية وديان كثيرة، ونادرا ما يشهد جريان بعضها من وقت لآخر، وذلك عقب سقوط أمطار غزيرة، ومن أهمها وادي الناموس، ووادي زوزفانة، ووادي قير، ووادي الساورة، وقد أقيم على وادي قير سد جرف التربة مما ساعد على استصلاح سهل العبادلة كما يوجد وادي الدوارة، ووادي تمغاست، ووادي شناشن وهي تمتد على مسافات قليلة وتنتهي في الرواسب الفيضية والرمال.

لقد كان للظروف المناخية في الصحراء إنعكاس مباشر على الحياة النباتية التي تتميز بالضآلة وتحمّلها للجفاف والحرارة المرتفعة والبرودة الشديدة في نفس الوقت، ويوجد في الصحراء الجزائرية حوالي خمسمائة نوع من النباتات التي هي في العموم قصيرة وسميكة.(1)

وتنتشر في الواحات الغربية أنواع كثيرة من النباتات أهمها على الاطلاق شجر النخيل المنتجة للتمور الذي يعتبر الغذاء الأساسي للسكان، بالاضافة إلى أنواع عديدة من الخضر والفواكه المبكرة كالطماطم والعنب والرمان، كما تشتهر المنطقة بإنتاج أنواع خاصة من النباتات كالحنة والتبغ.(2)

ورغم الموارد النباتية الضئيلة المبعثرة وا[illegible] عدة فإنها سمحت لنمو وعيش أنواع عديدة من الحيوانات كالغزلا[illegible] [illegible]ي تعيش مع ذئاب الرمال ومجموعة كبيرة من الجرذان والأفاعي [illegible] [illegible]واحف المتنوعة والطيور.(3)

---

(1) La Grande Encyclopédie. Tome XXIX. S.D P.66.

(2) E.P. GAUTIER Sahara Algérien. Paris, 1908. p.272.

(3) Grande Encyclopédie, Tome XXIX, p 66..

وتشتهر الصحراء بأهم حيوان، ألا وهو الجمل الملقب بـ: «سفينة الصحراء» الذي يستطيع تحمل عناء العطش والجوع لمدة طويلة، وبذلك فهو يتمكن من قطع مسافات طويلة، ولو كان ذلك في فصل الصيف، كما أن الجمل يستعمل في شتى الأغراض منها النقل والمواصلات والسباق والجر وما إلى ذلك. ثم أنه يعطي الحليب واللحم والجلود والوبر للملابس والخيم، وبذلك يعدّ الجمل بحق أهم حيوان يربى في الصحراء.

ويقوم بعض الرعاة في السهوب وهوامش الصحراء وتوات بتربية الأغنام والماعز التي تعتمد على الموارد النباتية التي ترعرعت بفضل الأمطار الخريفية والشتوية، لكنها سريعة الزوال مما يضطر الرعاة من التنقل والترحال.

كما يوجد في الواحات ــ أين تتوفر المياه والحياة النباتية، أين يعيش الانسان في استقرار ــ جميع أنواع الحيوانات الأليفة الممكن تربيتها مثل، القطط والكلاب والدواجن والأبقار وغير ذلك.

أما من الناحية التاريخية يعدّ تاريخ الصحراء الجزائرية جزءًا من تاريخ الجزائر العام الذي يمثل وحدة متماسكة الحلقات، ولم ينفصل فيها القسم الصحراوي عن البلاد إلا في ظروف استثنائية وملابسات خاصة.

وتدل الدراسات الأثرية على تواجد بشري وقيام حضارات عريقة تعود إلى آلاف السنين، والجدير بالذكر أن هذه المناطق لم تكن في تلك الفترة صحراء قاحلة، بل كانت مناطق ذات أمطار غزيرة، ونباتات كثيفة، وهي تمثل مراكز استيطان وحضارات ناضجة.(1)

وقد تعاقبت على الجزائر والصحراء أمم عديدة منذ العصور الحجرية إلى الفتح الاسلامي منهم الأمازيغ، السكان الأصليون، والفينيقيون، وإن

(1) G.B.M. FLAMAND, «Le préhistorique dans le sahara, et dans le haut-pays oranais», in «Revue Africaine, n° 50, 1906, p 204.

كانوا لم يتوغلوا إلا قليلا، ثم الرومان والروم البيزنطيون الذين شيدوا قلاعا وحصونا على التخوم الشمالية للصحراء، وكان للعرب الذين وفدوا من شبه الجزيرة العربية خلال الفتح الاسلامي، وبعده أثر كبير في تعمير افريقيا عامة والمناطق الصحراوية خاصة، وقد استطاعوا أن ينصهروا مع السكان الأصليين مكونين بذلك أمة واحدة يرجع الفضل في تماسكها وتآخيها إلى الدين الاسلامي واللغة العربية.

وكما هو معروف، فإن الصحراء الجزائرية كانت آهلة منذ القديم بالتوارق، وهي قبائل ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، تنحدر من أصل أمازيغي، يلقبون بالملثمين لأنهم يضعون اللثام على وجوههم، بينما نساؤهم كاشفات الوجه، ويتكلمون لهجة قديمة تسمى «تماهاك» أو «تماجاك»، ويعيش هؤلاء على تربية الحيوان وجزء بسيط من الزراعة، وقد استطاعت هذه القبائل أن تحافظ على تماسكها ونقائها إلى اليوم وهي موزعة عبر الصحراء كمايلي :

أولا: توارق الهقار وهرار، ويوجدون بجبل الهقار.
ثانيا: توارق ازقر وايفوغاس، بالطاسيلي وجبل غات ونواحيه.
ثالثا: توارق كلوي وما يديرون ويقيمون بجبل سكماره.
رابعا: توارق عويمندن شرقي تمبكتو.

أما الجزء الشمالي من الصحراء، فإن أول من وفد عليه زناتة حيث شيدوا القصور وزرعوا النخيل وحفروا الفقاقير(*) لجلب المياه الباطنية. وجلبوا العبيد من السودان لتولي زراعة بساتينهم ورعي حيواناتهم واستخدامهم في التجارة أيضا.

(*) الفقاقير: هو اسم محلي لآبار متصلة ببعضها البعض على شكل أروقة باطنية.

كذلك تشير المصادر التاريخية إلى قيام دولة سجلماسة فقد ثار أمازيغ مكناس على والي القيروان وكونوا مملكة سجلماسة الصُّفرية في الواحات الغربية سنة 757م(1) تحت أسرة (أو عرش) بني مدرار، وأعلنوا استقلالهم الذاتي عند دخولهم في شقاق وتنافس ديني ضد الشيعة. وأصبحت مملكتهم مركزا حضاريا وتجاريا هاما في الجنوب الغربي الجزائري.

هذا، ومن القبائل الأمازيغية التي سكنت الجهات قبائل مطغرة التي تعرض لها ابن خلدون في كتابه حيث يقول: «... ومن قبائل مطغرة أمة بجبال قبلة فاس معروف بهم، ومنهم أيضا قبائل كثيرة بنواحي سجلماسة وأكثر أهلها منهم، ومن قبائل مطغرة أيضا بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصوره واغترسوا شجر النخيل على طريقة العرب فمنهم بتوات قبلة سجلماسة إلى تمنطيط آخر عمالها قوم كثيرون موطنون مع غيرهم من أصناف البربر»(2).

ولم تتوقف هجرة هذه القبائل إلى الجنوب الجزائري وخاصة الجنوب الغربي، خلال القرن الخامس الهجري، نظرا للصراع الذي نشب بين القبائل المغربية القديمة وبين بني هلال التي وفدت إلى المغرب في ذلك الوقت بأعداد كبيرة، وكان من نتائج ذلك أن أرغم الكثير من البطون والعشائر من القبائل الأمازيغية على اللجوء. إلى الصحراء، وأسماء هذه القبائل وتاريخ وصولهم لتوات كالآتي:

أولاد عبد الجليل عام 501هـ ــ أولاد عياش عام 502هـ ــ أولاد خير الله عام 516هـ ــ أولاد واعلي البلبالي عام 518هـ ــ أولاد تذير عام 520هـ ــ أولاد حسين عام 528هـ ــ أولاد بن سليمان

(1) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، الجزء الثاني، الجزائر 1978، ص 48.
(2) إبن خلدون (عبد الرحمن)، **كتاب العبر**، ج 6، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر 1959، ص 245.

عام 531 — الشرفة، حماديون عام 550هـ — أولاد عثمان عام 608هـ — أولاد أحمد عزي عام 608هـ — أولاد عب عام 609هـ — أولاد العابون عام 640هـ — أولاد عيش عام 650هـ — البرامكة عام 656هـ — أولاد علي عام 673هـ — حجيب عام 675هـ — فيينة أحرار عام 698هـ(1).

وبعد استقرار هذه الأعداد من القبائل مع من سبقوهم، نشب بينهم صراع طويل على الرئاسة نتج عنه انقسامهم إلى كتلتين هما: سفيان وأحمد، واستنجد كل فريق بجيرانه من القبائل العربية الضاربة في الصحراء والتي وفدت إلى الصحراء وأسماؤهم كالتالي: — أولاد محمد — الخنافسة الخارزة — أولاد طلحة — أولاد أعيش أولاد نحم — أولاد عمر — أولاد ملوك — أولاد غانم — أولاد ريم — أولاد جبر — أولاد حرز الله — أولاد منصور — أولاد زنان — ذوي منيع — أولاد الحاج(2).

وهذه القبائل هي من أصل عربي منتسبة إلى هجرة بني هلال هذه الهجرة التي كانت على موجات بشرية متتابعة، وليست نقلة جماعة، لأنه لم يكن للهلاليين جيشا نظاميا يؤمر بالحركة فيأتمر(3) وإنما كانوا قبائل كثيرة كان انتقالهم ككل هجرة جماعية، بطيئا متثاقلا ولم يتم على دفعة واحدة أو دفعتين.

وكان عددهم حينما خرجوا من مصر حوالي أربعمائة ألف ساروا نحو المغرب وانتهوا باكتساح جيش المعز بن باديس(4) وانتشروا في البلاد ولم يستقروا إلا بعد مشقة وعناء شديدين. إذ تصدت لمحاربتهم في بادىء الأمر الدولة الصنهاجية بتونس ثم الدولة الحمادية بالجزائر وقد استطاع هؤلاء الأعراب فرض وجودهم على كلتا الدولتين بعد معارك عديدة واقتسموا البلاد بينهم، حيث قال ابن خلدون «...وكانت قسمة إفريقية بين العرب

---

(1) محمد بن مبارك، تاريخ توات، مخطوط ص: 2.

(2) نفس المصدر.

(3) دكتور عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي — دار المعرفة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1968، ص 82.

(4) إبن أبي دينار، المؤنس، تحقيق وتعليق محمد شمام، تونس، 1967، ص 84.

فكانت زغبة طرابلس وما يليها ومرداس ابن رياح باجة وما يليها ثم اقتسموا البلاد ثانيا فكان هلال من تونس إلى المغرب وهم: رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان»(1).

وهكذا نلاحظ أن هذه القبائل ليست جميعا هلالية، ولكن السؤال المطروح لماذا غلب إسم هلال عليها جميعا ؟ وقد ذكر إبن خلدون ضمن هذه الهجرة قبائل عديدة، حيث يقول «وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية والمعقل من بطون اليمنية وعمرة بن أسد بن عامر بن صعصعة وعدوان بن عمر بن قيس بن عيلان وطرود بطن من فهم بن قيس...»(2) وأظن أن الجواب هو ترجيح انتقال الرياسة إليهم وقتذاك. وإن هلال لفظ سهل التداول على الألسنة فشاع بذلك إسم بني هلال على جميع تلك القبائل.

ومهما يكن فإن هذه القبائل متشابهة في الطبائع والتصرفات حيث تحركهم غرائزهم ويفضلون البداوة والنقلة المستمرة على الاستقرار والحضارة، ثم أنهم لم يرتبطوا بإقليم أو رقعة محدودة من الأرض.

وبعد أن استقرت هذه الأعداد من القبائل مع من سبقوهم في الجنوب الجزائري، نشب بينهم صراع طويل على الرياسة. ففي الجنوب الغربي مثلا انقسم السكان إلى كتلتين متصارعتين هما: سفيان وكتلة أحمد، واستنجدت كل فرقة بجيرانها من القبائل العربية الضاربة في الصحراء، وأخيرا تمكنت عرب المعاقيل من بسط نفوذها على الاقليم، وهذا بعد تكاثر عددهم واستغلال ضعف أمراء بني مرين وممثليهم في المناطق الصحراوية.

---

(1) إبن خلدون، العبر، ج 6 ص 58.
(2) نفس المصدر، ج 6 ص 16 و17.

واستطاعت هذه الجماعات العربية أن تنفذ إلى المدن والقصور(*) والواحات الواقعة في مجالات سيرها بالصحراء وقد ذكرهم إبن خلدون في كتابه. وأوضح كيف تمت سيطرة عرب المعقل على هذه الأوطان: «فلما ملكت زناتة بلاد العرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن. قام هؤلاء المعقل في القفار وتفردوا في البيداء فنموا نمواً لا كفاء له، وملكوا قصور الصحراء التي أختطتها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غربا، ثم توات ثم بودة ثم تامنطيط. ثم واركلان، ثم تاسبيت ثم تيكورارين شرقا، وكل واحدة من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأشجار وأكثر سكانها من زناتة، وبينهم فتن وحروب على رياستها فحاز عرب المعقل على هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الإتاوات والضرائب، وصار لهم جباية يعتمدون فيها ملكا...»(1).

هذا ورغم هذه الهجرات المتعاقبة والعديدة والتي ساهمت مساهمة فعالة في تعمير الصحراء، فإنها مازالت تتميز إلى اليوم بضآلة السكان، نظرا لشساعة مساحتها والأراضي الصحراوية المترامية الأطراف.

وقد انتظم سكان الصحراء الجزائرية داخل بيئة اجتماعية ذات طابع بدوي، نظرا للظروف الطبيعية المتحكمة في حياتهم، وخاصة منها ندرة المياه، لأن وجود المياه بكميات كافية يسمح بممارسة الزراعة ومن ثم الاستقرار، أما نقصانه فيعني البداوة والترحال والتشتت، لذلك يصنف السكان إلى صنفين هما: البدو والحضر، فالبدو يقومون بعملية «العشابة» وهي الانتقال في بداية فصل الصيف إلى الشمال نحو الهضاب المرتفعة ثم العودة إلى الصحراء في أواخر فصل الخريف وهي هجرة موسمية يقوم بها جمع القبائل البدوية من الحدود التونسية شرقا إلى قبائل بني غيل غربا. كما تستمر عملية

(*) القصور: مفردة، قصر، وهو عبارة عن قرية صغيرة مسورة لصد هجومات الأعداء.
(1) إبن خلدون، العبر، ج 6 ص 120.

تترحل داخل الصحراء طيلة السنة من طرف قبائل الشعانبة والتوارق وسكان شمرحي الواحات.(1).

أما الخضر فهم يعيشون داخل قصور أو قرى، حيث تمثل القرية الخلية الأساسية للتنظيم الاجتماعي وحتى السياسي في بعض الأحيان، وهي مركز تجاري أو زراعي أو هما معا.

وبذلك فإن عناصر سكان الصحراء الجزائرية تنحدر من أصول ثلاثة، كأغلبية سكان المغرب العربي الكبير ــ الأمازيغ (البربر) والعرب والزنوج(1)، وقد تم بين هؤلاء السكان عبر التاريخ تمازج واختلاط فانصهرت هذه العناصر في بوتقة واحدة مكونة بذلك أهالي الصحراء الجزائرية ضمن مجتمع متجانس له نفس العادات والتقاليد وقد زاد الدين الاسلامي من ترابط أفراد هذا المجتمع وتآخيهم.

ومهما كان أصل هؤلاء السكان فإنهم مرتبطون ومتمسكون بأرضهم ومتكيفون مع الظروف الطبيعية المختلفة، كما نلاحظ لديهم صفات وتصرفات متشابهة عموما، تتمثل في التواضع والبساطة، والقناعة، وطيبة النفس، والطبيعة المرحة، وأغلبية السكان يتمتعون بصحة جيدة، ولا يحذرون كثيرا الجراثيم التي تنعدم تقريبا بفضل تجمع الجفاف والضوء والحرارة الشديدة وهي عوامل تساعد على القضاء عليها.

وخلاصة القول أن بني هلال قد شاركوا في نشر العنصر العربي في الصحراء الجزائرية، واختلطوا بأهل السودان الغربي، وصاهروهم ونشروا الدين الاسلامي واللغة العربية بينهم.

﴿واستغفر الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته﴾

---

(1) إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1981–1912) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 1988 ص 22.

(1) G.SALVY et BARTHE. Les Populations Sahariennes Arabes et Touaregs (ou Arabo-berbères. Cahier Charles de Foucauld pp.75..100.

أطماع فرنسا في الأغواط(*)

مدخـــل:

لقد ترددت السلطات الفرنسية في بادىء الأمر حول إحتلال الجزائر بكاملها أو الاكتفاء بجزء منها. ولما حسمت السلطات العليا الفرنسية في قرار غزو الجزائر كلية، وانتهت قبل النصف الأول من القرن الماضي من إحتلال الجزء الشمالي من الوطن، بدأت تفكر في غزو الجنوب. وقبل الإقدام على توسعها في الصحراء التي تجهلها، طرحت على نفسها عدة أسئلة منها:

— هل الصحراء الجزائرية قاحلة وخالية من جميع مظاهر الحياة؟
— هل سكانها من حضر وبدو عددهم ضئيل أو كثير؟
— ما هي تجارتهم؟ وما هو نشاطهم الفلاحي والصناعي؟
— ماذا يخيف فرنسا من الصحراء؟ وماذا تنتظر منها؟

وقبل الاجابة على كل هذه الأسئلة سارعت السلطات الفرنسية في إحتلال الأجزاء الأولى من الصحراء قبل أن يظهر فيها زعيم ديني وقومي مثل الأمير عبدالقادر يهدد وجودها ويمنع توسعها نحو الجنوب.

(*) مجلة الرؤية، العدد الثاني، ماي وجوان 1996.

فبعد أن أخمدت ثورة الزعاطشة واحتلت بوابة الصحراء بسكرة. شرعت في احتلال بوابة أخرى عبر منطقة الأغواط.

والأغواط من الواحات الجزائرية الجميلة، التي تقع جنوب الجزائر العاصمة، وتبعد عنها بأكثر من أربعمائة كيلومتر، وتنتشر عبر الضفة اليمنى لوادي أمزي الذي يأخذ مجراه من جبال عمور غربا ويتوجه نحو الشرق، وبعد أن يجتاز منطقة الأغواط يحمل إسما آخر وهو وادي إجدي الذي يعبر منه جزء كبير على واحات الزيبان ثم يصب في شط ملغيغ.

أما موقعها الفلكي فهي تقع على خط عرض 33°48 شمالا وعلى خط طول حوالي 3° شرقا. كما أنها على إرتفاع يقدر بحوالي ثمانمائة مترا(1).

وتشتهر الأغواط ببساتينها الغناء المنتشرة في الشمال والجنوب، لأن جبال تسقرارين تفصلها إلى مجموعتين متباينتين. ويطوف بالمدينة صور منيع به العسس عبر الأبراج وقد شيّدت منازل الأغواط من الطوب المستخرج من الطين الذي يلائم البيئة والأوضاع المناخية للمنطقة، ويقطع المدينة وادي الخير المتفرع عن وادي إمزي والذي يعمل على سقي المدينة فضلا عن تخصيب تربة الحدائق التي تنبت فيها خيرات كثيرة من تين ورومان وعنب، وأنواع عديدة من الخضر. يحتوي إقليم الأغواط على القصور التالية:

مدينة الأغواط ـــ العسافية ـــ قصر الحيران ـــ الحويته ـــ تاجموت ـــ عين ماضي.

E. Mangin, ((Notes sur l'Histoire de laghout)), in R.A. n° 37, (1893), p. 360.

أما أعراشها فتتمثل في قبيلة الأرباع الكبرى ــ المتألفة من الاجزاء الأربعة وهي المعامرة ــ الحجاج ــ أولاد صالح ــ أولاد زيد. وتنتشر هذه القبيلة بين الجلفة في الشمال وبسكرة في الشرق وغرداية في الجنوب وأفلو في الغرب، كذلك عرش أولاد سيدي عطاء آلله، وقبيلة الحرازلة المشهورين بالأغواط، فضلا عن قبائل أخرى وفدت إلى المنطقة عبر الحقب الزمانية، إستقرت ورحلت ولكن آثارها وبقاياها ما زال إلى اليوم، وسيأتي ذكر بعضهم خلال هذه الدراسة.

نبذة تاريخية عن الأغواط:

للأغواط تاريخ عريق يبدأ مع المعطيات الأولى والضئيلة لاقليم جيتوليا، من العهد الروماني حتى الفتح الاسلامي. فقد سكنت هذه المضارب قبيلة مغراوة المنحدرة من الزناتة والتي رفضت الخضوع للسلطة الرومانية ولم تقبل إعتناق المسيحية رغم العروض العديدة، بينما رحبت بالاسلام منذ الوهلة الأولى لأن هذا الدين الجديد يتلاءم وطبيعتهم وينسجم مع مزاجهم، فادركوا بفطرتهم أنه شريعة آلله في الأرض.

تأسيس الأغواط:

لم تحدد الوثائق التاريخية بالضبط متى تأسست الأغواط، حيث كانت عبارة عن ضيعة تسكنها قبائل زناتية، إعتنقت الاسلام بعد الفتح الاسلامي خلال القرن السابع للميلاد، ولكن هذا الدين لم يترك أثره الواضح على المنطقة(1) إلا بعد توافد المجموعات الاسلامية عن طريق وادي إجدي، خاصة بعد هجرة بني هلال للمنطقة.

---

(1) Rene Zannetaci, Contribution à l'étude de l'histoire de l'évolution de population de l'Annexe de l'Aghouat, Manuscrit à l'archive d'outre-mer. Aix, 10 H 89, p.8.

ويمكن ترجيح تأسيس الأغواط إلى السنوات الأولى من قدوم بني هلال سنة 1045م[1] إلى المنطقة. وإنضاف إليهم أولاد سالم الذين هاجروا من قورارة (الجنوب الغربي الجزائري) على إثر الحرب الأهلية فإستقروا بخيامهم على ضفاف وادي إجدي، حيث إلتقوا بفرع الأغواط الكسال[*] والبدارة. وقد جلبتهم إلى هذه المناطق وفرة المياه والكلا.

ويلاحظ أيضا أن مجموعة من القبائل قد سكنت منطقة الهضاب العليا الواقعة شرق جبال العمور والأغواط والجلفة ومنها أولاد زكال وأولاد زيد الذين طردوا من الزاب بعد هجوم قبائل بني هلال عليهم، فاستقروا مع من سبقهم وأسسوا قصرا (قرية) أطلق عليه إسم إبن بوتا، ثم لحق بهم مهاجرون آخرون منهم أولاد بوراس القادمين من الزاب فأسسوا قرية بومندالة، وأولاد بوزيان وحميان الغرابة شيدوا قصر نجال وسيدي ميمون، كما أسست بعض قبائل الزاب النازحين قرية بدلاه وقصبة بن فتوح.

ومن خلال هذه القرى والمنازل المبعثرة على إمتداد حوالي ثلاثة كيلومترات إستمد إسم الأغواط وهو جمع لكلمة غوط التي تعني المساكن المحيطة بالبساتين بينما إبن خلدون يخالف هذا الرأي فيقول: «أن الأغواط فرع آخر من قبيلة مغراوة» لذلك يطلق على سكان هذه المنطقة بـ«بني الأغواط».وبعد أن إستقر السكان وتأسست المدينة، أصبحت هذه المنطقة ــ عبر القرون ــ ملجأ الفارين من المشاكل السياسية والدينية، فخلال سقوط الدولة الموحدية فر بعض أنصارها إلى الأغواط حوالي 1269م كذلك إثر صدام المرينين مع بني عبد الواد، أمر عبد العزيز،

---

(1) MANGIN, Op. cit, p. 372.

(*) الأغواط الأكسل: قبائل طردت من طرف بني هلال إلى ناحية البيض، وهم أربعة أعراش هي: أولاد مومن، الرزايقة، أولاد عمران، أولاد عيسى. أما إكسل فهم إسم الجبل بالبيض أنجذب إليه بني الأغواط.

سلطان فاس، وزيره إبن غازي بمطاردة أبي حمو سلطان تلمسان الذي هُزِمَ بالدوسن، وحين ملاحقته إحتمى بالأغواط حوالي 1268م، فناصروه، لكنه إنسحب إلى بني مزاب حينما شعر بالخطر.

أما عهد الباي لرباي التي أسسها خيرالدين بربروس في بداية القرن السادس عشر الميلادي، فقد إمتدت سلطة الأيالة الجزائرية حتى الأغواط ضمن بايليك التيطري الذي نظمه حسن باشا إبن خير الدين وعين عليه سنة 1548م رجب باي كأول باي على التيطري وعاصمتها المدية(1).

وبعد النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي عرفت المنطقة نوعا من التخلخل السكاني، حيث حوالي 1666م غادر عرب يوسف قصر بدلاه بعد خصومات عديدة مع جيرانهم ليؤسسوا قرية تاجموت على بعد 32 كلم شمال غرب الأغواط على ضفاف وادي إمزي، ويستقروا بها. وفي نفس الفترة فرغت تقريبا قصبة ابن فتوح من أهلها على إثر الحادث الأليم الذي رواه الجنرال فيليبار (Philebert) في كتابه(2) كما يلي:

سيدي ناصر ولي صالح بقصر إبن بوتا، يحظى بإحترام الجميع، وكان له فتاة جميلة، خطبها إبن رئيس قصبة ابن فتوح بعد أن هام بحبها، ولكن والدها رفضه وزوجها من أحد شبان قرية ابن بوتا فاغتاظ وعزم على الانتقام، ذلك أنه ليلة الزفاف وتحت الظلام الشديد قام بالسطو على منزل العروسين فقتل الزوج وفر بالزوجة فلحقه أنصار الوالي الصالح. وطوقه، لهذا ذبح الفتاة وإنتحر فوق جسدها وحينما علم سيدي ناصر بالخبر الحزين أخذ حفنة من التراب ووضعها في كفه ونسفها ثم دعا على سكان قصبة ابن فتوح بأن ينسفهم آلله كما نسف هذا التراب، وقد استجاب آلله لدعوته

(1) Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique Sepentrionale*. t. III, Paris 1891, p. 138-139.
(2) Le General Philebert. *Le General Margeritte*. Paris, 1882, p.106, aussi Voir MANGIN, Op. cit. p. 374-375.

ومن الغد أصبحت قصبة ابن فتوح خالية من سكانها الذين توزعوا عبر مناطق كثيرة، منها غدامس التي إتخذت اسمها منهم، لأنهم إلتقوا بعائلات نزحوا من فزان فسألوهم من أين أتيتم؟ فأجابوا بأنهم جاءوا من قصبة ابن فتوح بغداء أمس، فأطلق على المكان الذي جمعهم غدامس ومن المراحل البارزة في تاريخ الأغواط هي التي سجلها سي الحاج عيسى الذي حل بالمنطقة سنة 1698م[1] وإستقر بقصر ابن بوتا وشرع في تعليم الناس القرآن الكريم ونشر التعاليم الدينية الصحيحة والأخلاق النبيلة، فأستبرك به سكان الأغواط وأعتبروه ولي آلله الصالح الذي إستطاع أن يضع حدا للخصومات ويجمع شمل أهالي المنطقة، لهذا فهو حامي المدينة من غارات العدو، وكل أذى.

وفي بداية القرن الثامن عشر الميلادي بدأت معالم مدينة الأغواط تستقر من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي على الضفة الغربية لوادي إمزي. فالمدينة الغربية يقطنها أولاد سرغين. أما المدينة الشرقية فيسكنها أولاد حلاف. ولهذا فإن الأعراش التي تتكون منها المدينة، هي كالتالي:

أولاد سرغين تتألف من:

1 ـــ جماني وبدرارة. المنحدرين من الأغواط الأكسال.
2 ـــ أولاد سخال. الآتين من أولاد زيد في الزاب.
3 ـــ فيلجا. أتين من الجنوب التونسي.

(*) سي الحاج عيسى، ولد بتلمسان سنة 1668م وتوفي بالأغواط سنة 1737م وهو من العائلات العريقة بتلمسان، والده عيسى ابن إبراهيم وأمه السيدة محبوبة بنت سي الحاج بوحفص زعيم أولاد سيدي الشيخ. غادر تلمسان 1694م فمر بمدينة وهران، ثم عرج إلى الأحرار ليمكث عندهم بعض الوقت ليرحل بعد ذلك إلى ابن بوتا ويستقر بها نهائيا. بعد أن أخذ الذكر عن الوالي سيد ناصر، وبذلك إنتشر ذكره في كامل القصور وأكسب التقدير والاحترام.

(1) Zannelacil. Op. cit. A. O.M. 10H89, p. 11.

أولاد حلاف تتألف من:

1 ــ أولاد خريز. أصلهم من فرجيوة.
2 ــ المغاربة. جاءوا من فيقيق بالمغرب الأقصى.
3 ــ أولاد عبدالله وأولاد سالم. آتوا من قورارة.
4 ــ أولاد بوزيان الذين ينتمون إلى فرع الحجاج(1).

ولكل حي مسجده وإدارته المتميز وسوقه الخاص.

وفي سنة 1727م خضعت الأغواط مرة أخرى إلى باي المدية شعبان زناغي الذي فرض عليهم ضريبة سنوية تقدر بسبعمائة (700) ريال، حتى سنة 1784 حينما قدم مصطفى باي المدية ليخيم برأس العيون شمال الأغواط ليجمع تلك الضرائب المفروضة على الأغواط والتي تماطلت في دفعها، لكنه رجع خائبا بعد أن خاض معارك عديدة على السهل الممتد في الشمال الغربي من المدينة.

وفي السنة الموالية عزم باي وهران محمد الكبير على إخضاع الأغواط والانتقام منها، على شرط أن تكون من نصيب بايليك الغرب، فعلا بدأ بإخضاع عين ماضي ثم تاجموت وأخيرا الأغواط التي دخلها بعد معاناة طويلة، ونصب القائد أحمد بن لخضر على سرغين والقائد سائح ابن زنون على أولاد حلاف. وبعد أن تحصل على ضريبة الحرب رجع الباي إلى وهران(2).

وبعد فترة قصيرة، تمرد أهل الأغواط ولم يمتثلوا لممثل الباي، مما إضطر الباي محمد الكبير الرجوع إلى الأغواط سنة 1786م على رأس جيش قوي، لكنه لم يستطيع هذه المرة من اخضاع عين ماضي لأن واليها سي أحمد

---

(1) Phillebert, *Op. cit.* p. 107 aussi MANGIN, *Op. cit.* p. 382.
(2) Mangin, p. 392.

التجاني قد حصنها بسور منيع، فحاصرها الباي لمدة شهرين دون جدوى، فإنتقل إلى الأغواط، بعد أن هيأ له الأمر السائح بن زنون.

وفي سنة 1787م خلف الباي عثمان زميله محمد الكبير، وأراد أن ينتقم من هزيمة عين ماضي، فحاصر القصر وهدد السكان بقطع رزقهم، لذلك خضع أهل القصر وإمتثلوا بدفع الضرائب بعد أن فر الشيخ أحمد التجاني، إلى بوسمغون ثم إلى فاس حيث توفي بها سنة 1814(1) ثم عرج على الأغواط لينتقم من الذين ناصروا الشيخ التجاني، خاصة أولاد حلاف الذين هربوا من الأغواط ليؤسسوا مع أولاد رحمان قصر الحيران لكن ما لبث أن حصلت بينهما خصومات عديدة وعنيفة فقد على إثرها أولاد حلاف زعيمهم سائح بن زنون. وبما أن زعيم حلاف لم ينجب، فعوضه إبن أخيه أحمد بن سالم الذي إستطاع أن يكسب ود الجميع، ويحكم الأغواط بمفرده(2).

---

(1) سي أحمد بن محمد التجاني، مؤسس الطريقة التجانية، ولد سنة 1737م بعين ماضي وتوفي سنة 1814م، ويقال أن أصله من أشراف المغرب، كان عالما زاهدا، مشتهرا بالصلاح، وقصده الناس للتبرك: أسس طريقته سنة 1786م. له تأليف سماه (الكناش) ذكر فيه الآداب الصوفية، والحقائق الآلهية.

وعند إحتلال فرنسا للجزائر، كانت الطريقة التجانية قد إنتشرت عبر مناطق عديدة بجبال عمور وقبائل الأغواط خاصة الأرباع وورقلة وتقرت وتلمسان وتوات والمملكة المغربية والجريد وتونس وغات وغدامس وطرابلس ومصر وسوريا.

خلف الشيخ أحمد التجاني ولدين هما محمد الكبير. ولد سنة 1796 ومحمد الصغير ولد سنة 1799، تولى سي محمد الكبير رئاسة الزواية وبعد وفاة والده دخل في صراعات حادة مع الحكومة العثمانية بالجزائر، ففي سنة 1822 إستطاع أن يهزم قوات الباي مصطفى بومرزاق باي التيطري الذي حاول محاصرة عين ماضي، وبعد خمس سنوات قتل سي محمد الكبير أثناء مواجهة عنيفة مع الباي حسن باي وهران تحت أسوار مدينة معسكر بسهل غريس فخلفه أخوه سي محمد الصغير، الذي يمتاز بقوة شخصيته التي مكنته من مواجهة الصعاب:

L'encyclopédie de l'Islam, Tome quatre, Paris, 1934, p.783.

أنظر كذلك: Louis RINN, *Marabouts et Khouan*, Alger 1884, p.416.

(2) Mangin, *Op, cit*, p.296.

وبعد وصول أحمد بن سالم إلى السلطة سنة 1828 عرفت البلاد نوعا من الاستقرار والهدوء سمح بنمو وإزدهار الحركة التجارية المتمثلة في التبادل بين أهل الشمال المحملين بالحبوب والمواد الغذائية وأهل الجنوب بمنتوجاتهم الزراعية خاصة التمور وسلعهم الافريقية.

سياسة «فرق تسد» وإذكاء الصراع الداخلي:

لا شك أن السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر 1830. كانت وبالا على البلاد والعباد، حيث دخل الوطن في فوضى واضطرابات وتصفية حسابات، وعرفت نواحي عديدة، خاصة الجهات الصحراوية أحداثا خطيرة وقد حرص الأمير عبدالقادر منذ الوهلة الأولى على استتباب الأمن، واخضاع القبائل إلى نفوذه لتدعيم أركان دولته الفتية، كما عمل على إستقطاب القبائل الصحراوية إلى صفوفه قبل وصول النفوذ الفرنسي إليهم.

وفي سنة 1837م وقعت مشاكل عديدة بالأغواط منها إعتراض الحاج العربي(*) على أحمد بن سالم حول حيازة بعض الملكيات، مما أدى إلى طرد الحاج العربي من الأغواط(1). وكان لهذه القضية وقع لدى أهل الأغواط، وصادف ذلك زيارة الأمير إلى النواحي الجنوبية لتنظيم دولته، فوفدت عليه وفود الأغواط لأخباره بأحوال البلاد، «وأوقفوه على ما عليه عشائرهم وبطونهم، من الطاعة له وطلبوا منه، أن يولي عليهم من يسوسهم، ويضبط بلادهم، فأجابهم إلى ما طلبوه. وولي عليهم، السيد الحاج العربي، إبن السيد الحاج عيسى الأغواطي، المشهور فيهم(2)». عينه الأمير خليفة له على تلك النواحي الشاسعة وكتب له المرسوم التالي:

(*) الحاج العربي، ينتمي إلى أولاد سرغين، وهو ينحدر من الوالي الصالح سي الحاج عيسى.

(1) B. Mangin, ((Notes Sur l'Histoire de LAGHOUAT)), in *R.A* n=38 (1894).

(2) محمد بن عبدالقادر الجزائري، **تحفة الزائر**، دار اليقضة العربية، 1964 ص، 291—12.

«هذا ظهير شريف. يتضمن الترغيب في جمع كلمة الرعية، والترهيب من السعي في تفريق الجماعة، والدعاء إلى التمسك بأوامرنا المطاعة. أصدرناه: للمكرم المحترم، السيد الحاج العربي الأغواطي. وذلك أنه، لما تقرر لدينا فضله وعدله، رأيناه أنه أحق من نقلده الأمر الأكيد، ونرمي به الغرض البعيد، ونستفسر به أحوال الرعية، حتى أنه لا يغيب عنا شيء من أحوالها ولا يخفي علينا ما يتشجمها، من طارق أهوالها. وينهي إلينا، جميع ما يحدث فيها، إنهاء يتكفل بجلائلها ودقائقها. وجعلناه نائبا عنا، وخليفة لنا. في قبائل الأغواط: الغرابة والشراقة، ومن إليهم من القبائل الصحراوية، في الجهات الجنوبية فيجمع سائر وجوهها وأعيانها ويخبرهم بأمرنا هذا. ويتلو عليهم ما قلدناه به. ويقرر لديه وجوب طاعته ولزوم إتباعه، والأذعان لأوامره ونواهيه. وقد عين له من العسكر النظامي، ما يتوصل به إلى تقرير الأحكام، وجباية الأموال، وقهر الظالم والأخذ بيد المظلوم. هذا، ما نعتمد عليه، من إنقياد رعيتنا للأحكام الشرعية، والأوامر المرعية ولذلك، لم نبالغ بالاستكثار من العسكر، لخدمة خليفتنا المذكور. فكونوا — أيها الناس — لأمره، السالك فيه على جادة الحق والعدل، سامعين ولكلمته، مطيعين، وأعلموا أن من ينكث فإنما ينكث على نفسه. والله ولي المتقين.

حرر عن إذن مولانا، ناصر الدين، عبدالقادر بن محي الدين، في سنة 1254هـ/1838م(1).

وهكذا تبين لنا هذه الوثيقة أن الحاج العربي قد أصبح الحاكم الشرعي لهذه المناطق الصحراوية، ولهذا وجب على الرعية طاعته بإعتباره ولي أمرهم خاصة وأن البلاد تمر بفترة حرجة من جراء المحنة التي إبتلى بها الوطن والمتمثلة في الاحتلال الأجنبي الغريب عن الملة والدين.

---

(1) المصدر السابق، ص292.

جمع الخليفة الجديد بقرية سيدي بوزيد(*) قوم الأحرار وأولاد خليف وأولاد شايب والأغا جلول آغا جبال عمور كذلك وصله ولاء سي محمد الصغير التجاني مرابط عين ماضي[1]. ثم تحرك بعد ذلك إلى الأغواط. وقد قدم له جمع غفير البيعة خاصة من طرف الأحلاف الذين أيدوه، أما أولاد سرغين فقد رفضوا الاعتراف به. ولذلك فإن موقف أحمد بن سالم أصبح حرجا. ففضل الانسحاب عند صهره إبن ناصر بن شهرة قائد الأرباع بعض الوقت. وحينما شعر بالخطر يداهمه ولم يطمئن على سلامة النفس تحول إلى غرداية ليحتمي ببني يزقن.

وخلال سنة 1838م، عزم الأمير عبدالقادر على تنظيم دولته لمواصلة الجهاد. وأدرك جيدا أهمية الصحراء بإعتبارها نقطة إرتكاز للمقاومة، فضلا عن كونها موردا هاما من الذخيرة والرجال لهذا سعى على إدخالها تحت نفوذه، ولكنه وجد معارضة من طرف بعض أعيان الأغواط الغرابة، ومنهم سي محمد الصغير التجاني، والذين رفضوا الخضوع، وإمتنعوا عن اداء الطاعة، وجاهروا بالعصيان ولم يقدموا المساعدة الشرعية للجهاد المقدس.

وقد إغتر الشيخ التجاني بقوته وبمدينته المحصنة، فتحدى أوامر الأمير الذي كان تفصله عنه مسافة طويلة جدا. ولما علم الأمير حزن لذلك وعزم على استئصال هذا العصيان. فبادر إلى قمع المتمردين والتنكيل بهم ليكونوا عبرة لغيرهم.

تحرك موكب الأمير يوم 18 ربيع الأول 1254هـ الموافق 12 جوان 1838م وتوجه إلى عين ماضي على رأس جيش قوامه ستة آلاف من الخيالة وثلاثة آلاف من المشاة، وثلاثة مدافع ميدان، وستة مدافع هاوون

(*) سيدي بوزيد: قصر صغير على سفح جبل عمور، قريب من زنية.

(1) Mangin, *Op. cit*, p.80.

وبعد عشرة أيام من السير الشاق عبر الفيافي والرمال وصل جيش الأمير إلى حصن عين ماضي، وكان وصوله مفاجأة كبرى للشيخ التجاني، فإندهش لضخامة هذه القوة، حيث لم يكن مستعدا للمواجهة لأن معه سوى مائة وستة وستون (166) رجلا من أولاد سرغين تحت قيادة يحي بن سالم، ومائة وسبعون (170) من أولاد صالح (الأرباع) وسبعة عشر (17) من سكان قرية غيشا وعشرون (20) من تاجموت وإثنان وعشرون (22) من حوتية وخمسة عشر آخرين من الأجانب من مختلف الأصول كاليهود والزنوج، وقد قدرت قواته بحوالي سبعمائة وعشر (710) مقاتل[1].

حاول الشيخ التجاني أن يربح بعض الوقت في البداية ويقاوم بما لديه من قوة ويدافع عن البساتين بمناوشات أثناء الليل، وإستطاع بفضل معرفته للأماكن، أن يعرقل تقدم قوات الأمير، التي تمكنت رغم ذلك من تطويق المكان، وقطع بعض الأشجار الكثيفة لتهيئة المكان لتنصيب المدافع ... الحصن، ثم بدأ القذف. وكلما فتحت ثغرة من أجل الهجوم منها. تسد من الداخل وتكرر ذلك مرارا. «وفي اليوم الخامس عشر تحدى عبدالقادر خصمه التجاني أن يخرج لمبارزته أمام الجيشين اللذين يشهدا هذا اللقاء، وأقترح عليه بأن مصير عين ماضي يتوقف على نتيجة المبارزة، ولكن التجاني بالرغم من قوته وشجاعته فضل الحذر ورفض اللقاء، ولم يسع عبدالقادر إذن سوى أن يبدأ الحفر. وفي الوقت المناسب وصلت الحفر إلى السور. ولكن التجاني رد بحفر من جانبه. وخلال ذلك وقعت عدة اشتباكات هامة، وبهذه الطريقة إستمر الحصار عدة شهور»[2].

تشير الوثائق التاريخية أن هذا الحصار قد تجاوز الستة أشهر، أجهدهم فيها العياء والجوع، وأضناهم القلق والخوف، وإلتزم الأمير بهذا الحصار

---

[1]Arnaud, («Siège d'Ain Madi, par El Hadj Abdelkader Ben Mahi-edèdine») in *R.A.* n°8 (1864), p. 369.

(2) شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبدالقادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية للنشر، 1974، ص130ــ131.

لأنه أدرك أهمية المسألة وعواقبها بحيث إذا رفع الحصار واعترف بفشله فإن جميع المناطق الصحراوية ستفلت من قبضته وتتمرد عن سلطته، لتقع فريسة للتوسع الاستعماري، لذلك أعلن أنه يفضل الموت حيث هو على الاستسلام. والجدير بالذكر أنه في هذه الأوقات الحرجة إستغلت السلطات الفرنسية الفرصة لكي تلين من موقف الأمير تجاه معاهدة التافنة، فأهداه الحاكم العام الجديد الجنرال فالي [Valée] ثلاثة مدافع حصار مع ذخيرتها ليدك بهم حصون خصومه ويقضي على إمكانيات الشعب من المقاومة، وبذلك يضرب الاحتلال الفرنسي في الجزائر عصفورين بحجر واحد، وهما تنازل الأمير عن بعض بنود معاهدة التافنة والقضاء على مرابط قوي، يمكن أن يكون لهم خصما عنيدا وثائرا مقداما في المستقبل.

ولا شك أن هذه الهدية قد رجحت كفة الأمير، وأجبرت الشيخ التجاني على الاستسلام. ففي 5 رمضان 1254هـ الموافق لـ 22 نوفمبر 1838م[1]، وقعت معاهدة بين الطرفين تعهد فيها التجاني بالجلاء عن عين ماضي حسب الشروط التالية:

أولا — أن يدفع التجاني مصاريف الحصار.
ثانيا — أن يكون مجبورا على إخلاء المدينة، في برهة أربعين يوما.
ثالثا — أن يكون له حق أخذ جميع أمواله المنقولة، بلا إستثناء.
رابعا — لأهل المدينة، حق بمرافقة التجاني بأسلحتهم.
خامسا — أن يرفع الأمير الحصار عنهم، ويرجع ثمانية أميال عن المدينة، حتى تخلى.
سادسا — أن يكون ابن التجاني، عند الأمير، رهينة إلى إتمام المعاهدة[2].

---

[1] Arnaud, *Op. cit*, p.445.

(2) محمد بن عبدالقادر، **تحفة الزائر**، ص 302.

تبل التجاني الشروط المذكورة وأمضى عليها وأرسل ابنه معها، فأمنه الأمير وأمهله. وعندما إنتهت المدة المحددة، خرج الشيخ بجنوده وحشوده، و لم يتخلف في الحصن الا المستضعفون. فأمر الأمير بتدمير المدينة وتسوية حصنها وأبراجها ودورها بالأرض.

لحق التجاني بالأغواط الغرابة، فأعلن الأمير بذلك إلى خلفائه ووكلائه في الجزائر ووهران بما نصه: «الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده، وبعد، فإن الله تعالى، منذ ولانا أمر المسلمين، والنظر في مصالحهم، لم نزل نجتهد، ونسعى في تأليف قلوبهم على الاتحاد والخضوع لشريعة سيدنا محمد ﷺ لقوله عز وجل (**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**) وقد توجهنا، هذه المرة، إلى بلاد الأغواط لجمع كلمتهم وإصلاح فسادهم فأظهر عامة أهلها غاية الطاعة والانقياد. إلا ما كان من التجاني ومن إنتمى إليه، فإنهم تجاهروا بالشقاق، وتظاهروا بالتصدي عن الوفاق فأمرنهم بالرجوع إلى الحق وحذرناهم من شق عصا المسلمين، غير مرة. وناشدناهم الله، في صون دمائهم، وأعراضهم. فلم يرجعوا عن غيهم، بل صمموا على قتالنا. واستعدوا لمحاربتنا، فخفنا إن أهملنا أمرهم، من سريان هذا الفساد إلى غيرهم، فيفوت المقصود، الذي هو جمع الأمة على كلمة واحدة وطريقة متحدة، فأخذنا في حصار حصنهم، والتضييق عليهم. ولما إستشرفوا على الردى، وكادت أن تعمل فيهم المدى، طلبوا منا الأمان ــ مع أنهم خدعونا مرات عديدة ــ فمنحناهم الصفح الجميل، صونا لدمائهم وحفظا لأعراضهم لقوله تعالى (**فأعفوا وأصفحوا**) وأمناهم على أن يخرجوا من الحصن، ويتوجهوا حيث شاءوا، فخرجوا كلهم منه، إلا المستضعفين منهم، وذهب التجاني وحريمه وأولاده، إلى الأغواط الغرابة وبقي إبنه الكبير، رهنا عندنا، فالحمد الله، الذي أيدنا بنصره، على من عصى أمره، وناوه، فإنه لا رب غيره، ولا معبود سواه»[1].

(1) المصدر السابق، ص 303.

وفي الأخير دعا أهل الأغواط إلى الطاعة وعدم التحالف مع الفرنسيين. وقال لهم: «أيها المسلمون لا تتخذوا الكفار أولياءكم، بل إتخذوا أولياءكم من بين المؤمنين الحقيقيين فقط»(1).

وقد أرسلت قبيلتان من بني الأغواط، المجاورتين للحصن بالزكاة والعشور، ورفضت بقية القبائل دفع ما كان عليها من الزكاة والعشور، ولهذا عليها أن تتحمل مسؤوليتها ومصيرها المحتوم.

لما فرغ الأمير عبدالقادر من أمر التجاني عاد إلى مدينة معسكر لأخذ نصيب من الراحة. وبعد أن مكث بها عدة أسابيع، ألف جيشا من خمسة آلاف (5000) فارس ومن الخيالة فقط. أمر الأمير أن يحمل كل فارس معه ما يكفيه من القمح والشعير لا غير، وأن يجتمعوا في سهل أغريس ولم يكن أحد يعلم بمراد الأمير. عند غروب الشمس وإشتداد البرودة ظهر الأمير عبدالقادر ممتطيا صهوة حصانه، فتوجه بهم نحو الشمال الغربي، ولما خيم الظلام، أمر بإيقاد أربعة مصابيح أمام الجيش، فجعلت في أسنة الرماح، فكانت ترسل أشعتها إلى الوراء فتضيء كامل الركب، وفجأة تغير إتجاه السير وتحول الركب نحو الجنوب الشرقي، ولم يكن الاتجاه الأول سوى مجرد تمويه. «ولم يزالوا يجدون السير إلى نصف الليل، ثم نزلوا على حافة جدول، فأكلوا وأطعموا خيولهم وبعد مضي ثلاث ساعات عادوا للسير العنيف وإلى نصف النهار، ثم نزلوا فأطعموا الخيل، وأكلوا. ثم عادوا لما كانوا عليه من السير السريع وإستمرار على هذا الحال، أربعة أيام وأربع ليالي، وفي صباح اليوم الخامس، إنكشفت لهم منازل الأغواط، الذين أصروا على عدم الطاعة»(2).

---

(1) تشرشل، **حياة الأمير عبدالقادر**، ص 133.

(2) محمد بن عبدالقادر، **تحفة**، ص 305.

وتحدوا الأمير بمواقفهم العدائية وإمتنعوا عن أداء الزكاة والعشور. بل بلغ بهم الأمر أن هاجموا قوافله للسطو على محتوياتها، كما كانت لهم إتصالات بالفرنسيين ليؤازروهم ضد الأمير، كل ذلك أثار سخط الأمير عليهم بإعتبارهم خونة، وبناء على تعاليم الاسلام فإنهم يستحقون الموت. كانت سهول الأغواط مغطاة بحوالي عشرة آلاف خيمة، وكان الناس ما يزالون نائمين، ولم توقظهم إلا الصيحات العالية، والضربات المتوالية، ولما إنتبهوا رأوا كوكبة من الفرسان تنقض عليهم كالعاصفة. «وكانت صرخات الذعر تردد: «عبدالقادر، عبدالقادر» وكانت النساء والأطفال يركضون هنا وهناك صارخين. أما الرجال الذين كانوا مندهشين وحائرين، فقد كادوا يفقدون شعورهم من شدة الهول فبعضهم جرى غريزيا إلى سلاحه وآخرون ذهبوا إلى خيولهم ولكن العاصفة قد أخذتهم قبل أن يكون لديهم الوقت للتجمع والتنظيم»[1] وقد نبه الأمير فرسانه بأن لا يتعرضوا للحريم ويصرخ فيهم: «صونوا الحريم، أما الرجال فأذيقوهم كأس الوبال»[2]. وإستطاعت قوات الأمير أن تحيط بهم من كل جهة. «وإستاقوهم كقطعان الغنم، ولما أحضروا مشايخهم بين يدي الأمير وقعوا على رجليه، وتذللوا بين يديه، وأعطوه المواثيق والعهود على الطاعة، وحسن السلوك فرحمهم وتقبل طاعتهم ورد عليهم جميع ما أخذ منهم، وفي الحال، دفعوا له أربعة آلاف (4000) جمل، وثلاثين ألف (30000) رأس غنم عما تبقى عندهم من زكاة خمس سنين، وكانوا بعد ذلك من أشد القوم تمسكا بالأمير وأكملهم طاعة له»[3].

وبعد أن إستتب الأمر للأمير في الصحراء، توجه إلى التل ليواصل الجهاد ضد الكفار الدخلاء، وترك الأمر من بعده إلى خليفته الحاج العربي

---

(1) تشرشل، حياة الأمير، ص 134.
(2) محمد بن عبدالقادر، تحفة، ص 305.
(3) نفسه.

لكنه لم يستطع أن يصمد أمام دسائس أعدائه خاصة بعد تحالف الشيخ التجاني وأحمد ابن سالم الذين عمل على تحطيم نفوذه، حتى أرغم على مغادرة الأغواط والفرار بجلده، مما جعل الأمير يعزله ويعوضه بشخصية هامة من تاقدامت وهو السيد عبدالباقي. تقدم الخليفة الجديد أمام الأغواط بقوة تقدر بسبعمائة (700) رجل، معززين بقطعة مدفعية. ولكنه لم يحض بالترحاب والتأييد من طرف الجميع، ورغم ذلك إستطاع أن يدخل المدينة ويحتلها. وبعد أن بسط نفوذه على المنطقة جاءته أوامر الأمير بان يجمع جميع شخصيات الأغواط ويعدمهم أو على الأقل يبعث بهم إلى عاصمة الأمير تاقدامت ليقتص منهم.

ورغم نصائح مساعديه ــ منهم آغا الجديد لأولاد شايب والخروبي من أولاد خليف ــ على عدم تنفيذ هذه الأوامر الخطيرة، فإن الخليفة عبدالباقي عزم على تنفيذ هذا الأمر، فإستدعى أحمد بن سالم ويحي بن معمر ثم حوالي عشرة شخصيات أخرى من أعيان الأغواط تحت حجج مختلفة حتى لا يشعروا بما كان يضمر لهم، وكان يكبلهم بالحديد الواحد تلو الآخر حين وصولهم.

ولما علم بني الأغواط بذلك إشتد شططهم، وإنفجروا في مظاهرة عارمة كالبركان الهائج يدمر كل ما يعترض طريقه، لذلك قتل كل الجنود الذين إعترضوهم وفر الباقي ونجا بنفسه. أما الخليفة فقد أسرع إلى إطلاق سراح مساجينه عله يخفف من غضب الجماهير التي هاجمت منزله، ولولا براعة الآغا جديد والآغا الخروبي الذين إستطاعا إنقاذه لهلك هو أيضا. غنم بني الأغواط المدفع وبقية الأسلحة التي تركتها قوات الأمير وراءها وذلك سنة 1839.

ومعلوم أن الأمير عبدالقادر في هذه الأثناء كان منشغلا بالحرب مع الفرنسيين لذلك لم يهتم بهذه القضية ولم يعين خليفة آخر على الأغواط،

بل أسند الخلافة مرة أخرى إلى الحاج العربي الذي واصل الصراع مع خصومه وخاصة أحمد بن سالم الذي إستطاع في الأخير أن يحرز النصر على الحاج العربي ويقبض عليه في قصر الحيران ثم قام بإعدامه حتى يقضي على نفوذ الأمير في المنطقة نهائيا سنة 1842.

وبذلك أصبح أحمد بن سالم السيد المطلق بالأغواط. ومن أجل المحافظة على نفوذه من جهة وتفادي إنتقام الأمير منه من جهة أخرى بدأ يعمل على إستمالة السلطة الفرنسية، حتى يضع نفسه تحت حمايتها، وقد إستجابت له مصالح الاستعمار لأنها تبحث عن مساعدة محلية تعمل على تحقيق أهدافها التوسعية. والملاحظة الأساسية التي يجب تسجيلها هنا، بعد عرض هذا التناحر بين الأخوة الأعداء هو أن أرواحا عديدة زهقت وإمكانيات وطنية هائلة هدرت باطلا، خدمت مصلحة الاستعمار الفرنسي في الجزائر فقط.

ولا شك أن هدر هذه الامكانيات الهائلة، ساعدت على سقوط الأغواط في قبضة الاحتلال الفرنسي، والذي بدأ بالمرحلة الأولى كعادته وهي مرحلة الاستكشاف والتحضير للهجوم. بدأت هذه المرحلة بجولة الجنرال ماري ـــ مونج (Marey Monge) قائد شعبة المدية العسكرية في شهر مارس 1844م مع طابور قوي من ألف وخمسمائة (1500) جندي.

وعند وصول هذه القوة العسكرية الفرنسية إلى قصر زكار أسرع أحمد بن سالم بإرسال أخيه إلى القائد العسكري الفرنسي ليقدم له الولاء ويطلب منه أن يمنحه منصب خليفة على الأغواط ويمثل السلطة الفرنسية ليس في الأغواط بقصورها الخمس (العسافية ـــ قصر الحيران ـــ الحويطة ـــ تاجموت ـــ عين ماضي) فقط، بل على الأرباع والحرازلة وبني مزاب.

أدرك الجنرال أهمية هذه المسألة فأسرع إلى إبلاغ رؤسائه، فبادر بإرسال يحي بن معمر إلى الجزائر العاصمة محملا بتقرير إلى الماريشال

(Bugeaud)، الوالي العام للجزائر، والذي كتب مباشرة بدوره، الماريشال سولت (Soult) وزير الحرب بباريس، ومما كتبه نذكر مايلي: «فضلا عن ما تقدم لنا من ثروات فإن المناطق الآهلة في الصحراء هي ضرورية لسياستنا وتجارتنا، كما يجب أن نسود في كل مكان ساد فيه عبدالقادر.... وبسيطرتنا على هذه المناطق تنفتح لنا آفاقا واسعة لازدهار تجارتنا وربطها بإفريقيا الداخلية، ونعمل على حرمان عبدالقادر من مصادره في هذه الأماكن»(1) لذلك وافق الحاكم الفرنسي على كل الاجراءات المتخذة في هذا الشأن وأعطى الأمر لتحضير بعثة عسكرية إستكشافية إلى الأغواط، أوكلت قيادتها إلى الجنرال ماري ــ مونج يوم 12 أفريل 1844م.

في الفاتح ماي غادرت البعثة المدية، وفي 14 ماي وصلت إلى بلدة تاقين، أين تمت عملية تنظيمها باللمسات الأخيرة، فتكونت من ألف وسبعمائة جندي، منهم مائة وأربعون من قناصة إفريقيا وأربع مائة فارس من القوم، مدعمين بألف وأربع مائة (1400) جمل والتي استعملت لأول مرة لأغراض حربية لدى القوات الفرنسية(2)، ذلك أنها تتحمل العطش والجوع لمدة طويلة حتى لقب الجمل بـ«سفينة الصحراء». غادر الطابور طاقين يوم 17 ماي، ليصل إلى تاجموت يوم 21 أين إستقبله أحمد بن سالم محاطا بأعيان الأغواط وقصورها.

وغاب عن هذا الاستقبال الشيخ التجاني، الذي أرسل ولاءه للجنرال. وأدركت السلطات الفرنسية قيمة الشيخ التجاني بإعتباره أن له شعبية ونفوذ معتبرين لدى الأهالي، لهذا يجب معاملته بشرف حتى يخضع نهائيا للسلطة الفرنسية، ويصبح صديق على أساس أنه عدو لعبدالقادر، وعدو العدو صديق. لهذا يجب التعامل معه بحذر، حتى لا ينفر ويغلق أبوابه

(1) Mangin, Op. cit, p.57.
(2) Ibid, p. 68.

وجه القوة الفرنسية. وبإشارة من أحمد بن سالم فإن الطابور الفرنسي لم يذهب إلى عين ماضي. وإنما بعث الجنرال وفدا من بعض الضباط بقيادة العقيد سانت آرنو[1] (Saint-Arnaud) للاطلاع على المكان وأخذ ما فرض من ضرائب وبسط سيطرة فرنسا على المنطقة.

تردد الشيخ التجاني في إستقبال هذا القائد المسيحي، ولكنه في الأخير إقتنع بحجج قائد الوفد، ومكنه من أن ينجح في مهامه. ثم عاد واستقبله الجنرال ماري مع الثناء، كما أن الجنرال أعاد إلى التجاني ما دفعه من الضرائب.

في 23 ماي تحرك الطابور ليخيم في الحوتية، ومنها إلى الأغواط ليقيم فيه يومي 26 و 27 ماي، وفي 28 ذهب الطابور ليخيم بقصر الحيران، ويوم 29 ببودرين، وكان يصحبهم في هذه الرحلة أحمد بن سالم.

وفي تقريره يشير الجنرال ماري (Marey) إلى الاعتراف بتعيين إبن سالم خليفة على المنطقة، لأنه يمثل الضمان الكامل للنفوذ الفرنسي في الأغواط بإعتباره شخصية مرموقة، وعدو لعبدالقادر.

ومن أجل تقوية وضعيته فقد حدد له مرتب بثمانية عشر ألف (18000) فرنك وألفين وخمسمائة (2500)ف لكل آغا معين معه، بالاضافة إلى تسجيل عشرين فارسا ومائتي جندي من المشاة.

ويضيف التقرير أنه من خلال هذه الاجراءات يمكن إستخراج ثلاثة نتائج هامة هي:

1 ــ إخضاع كل سكان الجنوب والغرب، وهم مستقلين وثائرين.

---

(1) Ibid, p. 89.

2 ــ جذب التجارة الداخلية إلى الجزائر العاصمة، بدلا من توجه جزءا منها إلى تونس والآخر إلى المغرب.

3 ــ ترهيب السكان الذين يساندون عبدالقادر، ويعتمد عليهم في هذه الأقاليم.

هكذا فإن ابن سالم يعتبر من أهم وأقوى قادة الجنوب، تسانده قوة عسكرية تقدر بألف ومائتين (1200) جندي وخمسمائة (500) فارس، وقطعة مدفعية(1). ثم يضيف الجنرال في تقريره بأنه يجب تنظيم الأغواط حتى نجني ثلاث فوائد هامة هي:

1 ــ جعل الأغواط مركز تحرك عسكري وإداري، وسياسي، وتجاري.

2 ــ قطع كل الاتصالات بين الشرق والغرب، وأي تحرك في هذه المناطق يكون تحت أنظارنا وبموازرتنا.

3 ــ وضع المنطقة الأكثر تمردا في الجزائر مع أولاد سيدي الشيخ بين أيدي خليفة قوي مدعما بشعبة وهران(2).

لكن الحرب الفرنسية ــ المغربية ومعركة إيسلي 1844م عطلت هذا المشروع، وإكتفت السلطات الفرنسية بتقديم الرواتب لأحمد بن سالم ومساعديه، حتى يتحكم في قصور الأغواط، كقصر الخيران والعسافية والحوتية وتاجموت وعين ماضي، كذلك في قبائل الرباع والحرازلة وأولاد عطاء الله والسعيد عتبة.

---

(1) Ibid, p.95.
(2) Loc-cit.

خلال سنة 1846م إستطاع الأمير عبدالقادر أن يكسب تأييد أولاد نائل له بجنوب المدية عن طريق سي شريف بالأحرش. مما جعل أحمد بن سالم معزولا في منطقة الأغواط، ومنفصلا عن القوات الفرنسية في الشمال ورغم ذلك بقي مخلصا للسلطة الفرنسية.

وفي شهر فيفري 1847م عاود الجنرال ماري جولته إلى الجنوب من أجل إخماد ثورة سي موسى بوحمار(*) في مهدها جنوب المدية. وهو زعيم الطريقة الدرقاوية المنتشرة بكثرة عند بني الأغواط وأولاد نائل، وكادت القوات الفرنسية أن تقبض عليه ببلدة مسعد ولكنه إستطاع أن يهرب إلى متليلي، حيث إستقبل إستقبالا حارا من طرف مريديه.

إستطاعت السلطات الفرنسية أن تخلق نوعا من التنافس والتناحر بين بعض الزعماء والقادة الوطنيين. وقد لعب كل من الجنرال يوسف(**)

(*) سي موسى بن حسن المصري الملقب باسم (بوحمار) صاحب الحمار. ولد بمصر ونشأ فيها قام برحلة إلى سوريا والقسطنطينية ثم عرج على الجزائر وطرابلس إلتقى بسي محمد بن حمزة قائد الطريقة الشاذلية الذي أقنعه بإتباع هذه الطريقة.

ومن الشاذلية إنبثقت الدرقاوية، فأصبحت الأولى خاصة بتونس وليبيا والثانية خاصة بالجزائر. وفي سنة 1829 وصل سي موسى إلى الأغواط وأولاد نائل، حيث أسس زاوية ببلدة مسعد. وفي سنة 1845 واجه الأمير عبدالقادر ودخل معه في معركة ضروس قرب جبل موزاية، إنهزم على إثرها سي موسى فالتجأ إلى مسعد ثم إلى الأغواط. واجه كذلك الوجود الفرنسي في الصحراء فشارك في ثورة الزعاطشة سنة 1849م، ولعب دورا هاما في تدعيم الشيخ بوزيان زعيم الثورة، وقد إستشهد، داخل الزاوية التي نسفها الجنرال هيربيون بالألغام، مع آخر شهداء الزعاطشة.

(**) إسمه يوسف جوزاف فنتيني (Yusuf Joseph Ventini)، يقال أنه لقيط ويحتمل أنه ولد بجزيرة ألب (Elbe) بتوسكانا حوالي 1809م. وقع في قبضة القراصنة الذين باعوه في تونس، حيث أصبح مملوك الباي الذي رعاه أحسن رعاية، لكنه غدر به وفر سنة 1830م إلى الجزائر، عن طريق دسائس السفارة الفرنسية بتونس، ليشارك في الحملة على مدينة الجزائر كمترجم وقد وصل بعد الحملة فانخرط في الجيش الفرنسي كمترجم. وفي ديسمبر 1830 نظم فيلقا من المملوكين ليترأسهم ثم أصبح ملازم آغا العرب في 17 ماي 1836. وترقى إلى قائد

(=)

والجنرال ماري مونج الدور البارز في هذا الشأن لتدعيم سياسة ((فرق تسد))، وأهم إنشقاق وقع في هذه الفترة حصل بين أحمد بن سالم وصهره إبن ناصر بن شهرة(١) قائد الأرباع؛ وقد أدى كل ذلك إلى اضطرابات خطيرة بالجنوب وأحداث جسيمة بجنوب اقليم المدية وتزامن كل ذلك مع ثورة الزعاطشة. لذلك عزمت السلطات الفرنسية على القضاء عليها بكل الوسائل للتفرغ بعد ذلك لقضية الأغواط.

(=) سرية ضباط فرقة الشرف في 14 أوت 1835؛ عين باي على قسنطينة سنة 1836 لينافس أحمد باي، ومن هنا بدأ يصعد في سلم الرتب العسكري، وخاصة بعد أن أخذ الجنسية الفرنسية في 18 فيفري 1838، فترق إلى رتبة عقيد في 19 ماي 1843، ورتبة جنرال في 19 جويلية 1845 إلى أن أصبح جنرال فرنسا يوم 24 ديسمبر 1851 وبعد عام قلد وسام الصليب الكبير، ثم تولى جنرال الفرقة العسكرية يوم 18 مارس 1856، توفي بكان 16 مارس 1866، أنظر Trumelet, le géneral Yusuf, Paris 1980.

(١) يرجع أصل إبن ناصر بن شهرة بن فرحات إلى قبيلة المعامرة المنحدرة من الأرباع. ولد سنة 1804 بقرية الغرق جنوب مدينة الأغواط بحوالي 8 كلم. وقد اشتهر جده فرحات بالشجاعة والكرم حتى جعلته قبائل الأرباع شيخا ورئيسا لهم، ثم تولى من بعده إبنه إبن شهرة باعتباره هو أيضا شخصية مرموقة، هذا نشأ ابن ناصر في وسط يتفاخر فيه بالشجاعة والبطولة والفروسية والشهامة فضلا عن حفظه للقرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، كما تعلم مبادىء الفقه على مشائخ الطريقة القادرية التي ينتمي إليها وارتبط خاصة بشيخها أحمد الشاوي بالأغواط. مما جعله خصما للطريقة التجانية وأتباعها.

كل ذلك أهله بأن يكون هو أيضا قائد الارباع. لهذا كان مطمح مصاهرة من القادة والمشائخ ومنهم أحمد بن سالم خليفة الأغواط أنذاك والذي أراد بمصاهرته تقوية مكانته ضد أعدائه. تزوج أول مرة بنت أحمد بن سالم. وأنجبت له بنتا. وإصطدم بالنفوذ الفرنسي ورفض الخضوع له توجه إلى أعماق الصحراء للهجرة والجهاد وطلب من زوجته أن تتبعه فرفضت فطلقها. وتوفيت بنته منها فيما بعد، وأثناء جهاده في الصحراء ضد الاحتلال الفرنسي منذ سنة 1851، توجه إلى مدينة ورقلة ليتحالف مع سلطانها محمد بن عبدآلله على الكفاح ضد الوجود الفرنسي وتزوج ثانية من بنته المسماة الياقوت، وقد أنجبت له ولدين هما: محمد، قتل مسموما من طرف الدوائر الاستعمارية بعد رجوعه من بيروت. والثاني هو ابن شهرة الذي إشترك مع الليبين في الجهاد ضد الاحتلال الايطالي واستشهد في طرابلس 1912. وبعد وفاة الياقوت تزوج ابن ناصر بالمرابطة نوة وهي من كريمات أولاد سيدي الشيخ، فقد أنجبت له فرحات ويحي وثلاث بنات وكان رحمه آلله بطلا شجاعا، دام كفاحه على ما يربو من ربع قرن ضد الاحتلال الفرنسي من سنة 1851—1875. واشترك في كل الثورات التي (=)

ذلك أن خليفة الأغواط أحمد بن سالم قد قدم للسلطات الفرنسية تقريرا مفصلا عن بدايات الثورة في الجنوب بتاريخ أفريل 1851م. هذا أسرعت الهيئات العسكرية لاعطاء الأوامر لتجريد حملة عسكرية من المدية تحت قيادة الجنرال لادميرول {ladmirault} في شهر ماي 1851م.

وصل الطابور الفرنسي إلى الجلفة يوم 3 جوان، فإستدعي قائد الحملة كل قادة القبائل ومنهم خليفة الأغواط والآغاسي الشريف بالأحرش لتدارس الموقف. وقد أبدى الجنرال ميله إلى إبن ناصر بن شهرة لتعينه خليفة بالأغواط مكان أحمد بن سالم حتى يكسب وده غير أن الوالي العام لم ينس موقف أحمد بن سالم من فرنسا خلال الصراع المرير ضد الأمير عبدالقادر ما بين سنوات 1846ـــ1847م. حيث كان كل الجنوب الجزائري في غليان مشتعل بالثورة ضد الوجود الفرنسي، وكل السكان ضد التواجد الفرنسي ما عدا أحمد بن سالم الذي بقي مخلصا للفرنسيين(1) لذلك ثبته في منصبه.

ففي كل صيف يذهب الأرباع مثل باقي القبائل إلى التل لشراء الحبوب، وفي شهر جوان 1851م إغتنم الآغا إبن ناصر بن شهرة هذه المناسبة بتشجيع من الجنرال لادميرول للذهاب إلى الجزائر العاصمة، ليقدم

(=) حصلت في هذه الحقبة، ولم يستطع الاستعمار أن ينال منه، لمعرفته التامة بخفايا الصحراء، فكان ابن ناصر الملاح الحقيقي للصحراء. والجدير بالذكر أنه قد وجد المؤازرة والتأييد من الشعب التونسي في الجنوب خاصة الجريد ونفزاوه وكذلك العاهل التونسي الذي أذن له بالركوب من موسى حلق الوادي إلى بيروت. وذلك يوم 2 جوان 1875 مع الكبلوتي، واستقر بجانب الأمير عبدالقادر وابنه محي الدين إلى سنة 1883. ثم توفي رحمه الله بالشام. أنظر:

Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Algerie, Alger, 1891.

كذلك: أرشيف الوطني التونسي: صندوق 12ط ملف 237 ـــ صندوق 78 ملف 929 خزانة 7 وصندوق 212 ـــ اضمامة 139 ـــ خزانة 12 ـــ صندوق 223 ـــ اضمامة 384 ـــ وبهم وثائق عديدة غنية بالمعلومات.

(1) Mangin, *Op. cit.* p.105.

شكواه إلى العقيد دوريو [Durrieu] المدير العام للشؤون السياسية بخيفة الأغواط وإدارته، غير أن الخليفة أحمد بن سالم لحق به وأحبط مخططه، تيقن إبن ناصر أنه لا جدوى من الفرنسيين، فإشترى ما يحتاجه من الحبوب ثم قفل راجعا، بعدما توعد فرنسا بالعواقب الوخيمة وحينما خيم مع أهله بالشهبونية قرب بوغار، أرسل له الجنرال لادميرول، الملازم كروس [Carrus] مع ثلاثين (30) صباحي من المدية يوم 03 سبتمبر لأن كروس أدعى أنه صديق لابن ناصر وخبير في شؤون العرب ـــ باعتباره يهودي ـــ ويعرف كيف يؤثر عليهم، فلما إتصل به للمفاوضة ولاقناعه بالرجوع عن نواياه المبيتة تجاه فرنسا. لكن إبن ناصر وأخوه أبو بكر قد حضرا لهم كمينا، ليبرهن لهم عن قدرته القتالية، فجردهم من أسلحتهم وخيولهم وملابسهم عدا ما يستر عوراتهم ثم أطلق سراحهم ليرجعوا من حيث جاءوا مشيا على الأقدام، ليخبروا رؤساءهم بأن ((إبن ناصر بن شهرة قد رفض طاعة الفرنسيين، التي كلها مذلة وأهانة، ويلتحق بالسلطة الحقيقية التي تمثل الدين والاستقلال)) ويعني بذلك الحكم الوطني ممثل في المجاهد شريف ورقلة محمد بن عبدآلله(*).

(*) من هو محمد بن عبدآلله؟ إنه من أولاد سيدي أحمد بن يوسف فرع قبيلة أهل الغسول، التي كانت خيامهم منصوبة شمال تلمسان.

إسمه الحقيقي حسب الوثائق الفرنسية، هو ابراهيم بن أبي فارس تارة وابراهيم بن عبدآلله تارة أخرى، ويذكر محمد المرزوقي في كتابه، الصراع مع الحماية: ((أن محمد بن عبدا آلله تونسي الأصل من بلدة العوينة بمعتمدية دوز في نفزاوة وينتمي إلى المرازيق))، وتذهب بعض الروايات أنه من عائلة أولاد سيدي الشيخ، في عام 1840. كان رجل عادي لا ذكر له. استقر بتلمسان مع أسرته واشتغل طالبا أي معلم القرآن الكريم في زاوية سيدي يعقوب المنتمية إلى أولاد سيدي الشيخ.

بدأ يظهر على سطح الأحداث، عندما كان آداة في يد آغا الغسول المعين من طرف الأمير عبدالقادر في وظيفة إدارية صغيرة. وكان الآغا المسمى مولاي الشيخ علي يطمح إلى وظيفة سامية، لأنه كان غير راض بحكم البوحميدي خليفة الأمير على تلمسان ويريد منافسته، فاستمال إليه ابراهيم بن عبد آلله، باعتباره شخصية لها نفوذ ديني، يمكن أن تزاحم الأمير، فعلا بعث محمد بن عبد آلله، برسالة إلى ملك فرنسا لويس ـــ فليب عرض فيها أنه على استعداد أن

(=)

كان الشريف محمد بن عبد الله آنذاك قد رجع من الشرق، واستقر بورقلة لمقاومة زحف الاحتلال الفرنسي، فإتصل به ناصر بن شهرة في الرويسات (ورقلة) للتنسيق والعمل المشترك لايقاف المد الفرنسي إلى الجنوب، وكان ذلك خلال شهر نوفمبر[1].

(=) يكون خصما للأمير عبدالقادر، ومناصرا للفرنسيين (أنظر الرسالة في المجلة الافريقية، عدد 68 سنة 1927، ص432.). وفي 15 ديسمبر عام 1841 حصل لقاء ما بين الكولونيل تمبور (Tempour) حاكم وهران، ومولاي الشيخ علي، ومحمد بن عبد الله، ومصطفى بن اسماعيل زعيم الدوائر والزمالة والعدو اللدود للأمير، واتفقوا على التعاون في محاربة الأمير عبدالقادر، ولذلك منحت السلطات الفرنسية لقب (سلطان) لمحمد بن عبدالله، ثم عينه الجنرال بوجو سنة 1842 خليفة على تلمسان بعد سقوطها في أيدي الفرنسيين، ويبدو أن هذا التعيين بعد مكافأة له على مساعدته التي قدمها مع أنصاره للفرنسيين أثناء حصار تلمسان. ولكن هؤلاء سرعان ما ارتابوا في إخلاصه ولم يطمئنوا لسلوكه، فتعرض للمضايقة دفعته إلى تغيير موقفه، وحمل لواء الثورة ضدهم فيما بعد، فلقد طلب منه حاكم تلمسان الجنرال بيدو أن يحلف على مصحف لتأكيد إخلاصه لفرنسا، كما طلب منه أيضا أن يترحم على الموتى الفرنسيين الذين قتلوا خلال حصار تلمسان في حفل دفنهم، ولكن السلطان محمد بن عبد الله رفض ذلك وقال: ــ حسب ما رواه العقيد تروملي في كتابة الفرنسيون في القفار ــ: إنني معكم إلى أن يحكم الله بافتراقنا. ثم قرر الاعتكاف في ضريح مسجد سيدي أبي مدين شعيب ظاهريا، بينما كان يحضر مع أنصاره وأتباعه لتفجير ثورة في وجه السلطة الفرنسية، وبقي عدة سنوات بدون أي نشاط يذكر، حتى استيقظ الناس صباحا في إحدى الأيام من عام 1844م، فوجدوا على جدران مدينة تلمسان العبارة التالية: محمد بن عبدالله ناصر الدين أبقاه الله وسلطه على رقاب الكافرين. لهذا أرغمته السلطات الفرنسية على تغيير المكان وأشارت عليه بأداء فريضة الحج حتى يبتعد عن الجزائر، فغادر تلمسان غاضبا وحاقدا بصحبة عائلته، وقد إعتبر ذلك عبارة على نفي مهذب، فأقام بمكة المكرمة واتصل بعدد من الجزائريين المنفيين والفارين، منهم محمد بن علي السنوسي ــ صاحب الزاوية السنوسية ــ كما كانت له إتصالات بالعثمانيين. وتعاون الأطراف الثلاث على مقاومة الاستعمار فرجع إلى أرض الوطن مع الحاكم العثماني الجديد لطرابلس (عزت باشا) وبمباركة السنوسي ودخل إلى صحراء الجزائر حوالي 1850، وصادف ذلك وفاة سلطان ورقلة الحاج أحمد بن بابة تاركا السلطة في يد للازهرة، التي عرضت منصب السلطان على محمد بن عبد الله فقبله، ومن هنا عرف إسم سلطان ورقلة، أخذت. هذه المعلومات من دراسات عديدة منها:

Louis Rinn, Insunection de 1871 en Algerie Alger, 1891.

(1) Ibid. pp.276-277.

رجع إبن ناصر إلى الأغواط واستولى على قرية قصر الحيران وحصنها فإتصل به السكان من كل جهة، خاصة أعيان المدينة للتعاون معه، لأنهم يئسوا من التفاهم والتعايش مع الفرنسيين وعزموا على الثورة للتخلص من نفوذهم.

إستنفر محمد بن عبد الله سنطان ورقلة كل القبائل الجزائرية، مما جعل السلطات الفرنسية تتحذر من خطره وتتخوف من تحركاته ونداءاته على الجهاد المقدس(1).

وعلى إثر هذه المخاوف أمر الوالي العام للجزائر الجنرال راندون Randon يوم 7 فيفري، الجنرال لادميرول بتشكيل طابورا متنقلا(2).

فاستدعى هذا الأخير كل من قوم التيطري والتل وشكل منهم قوة تتألف من الف وخمسمائة (1500) فارس، وانضموا إلى قوم أولاد نائل تحت قياة بن شريف بالأحرش.

وفي 22 فيفري تحرك الطابور المتكون من عدة سرايا وفرق عسكرية واتبع الجنرال لادميرول الطريق الذي سلكه زميله الجنرال مونج سنة 1844 لأنه قد قدم للمصالح الاستعمارية عدة معلومات ضرورية في عملية الاحتلال.

وصلت القوة الفرنسية إلى أسوار الأغواط يوم 4 مارس، وبعد أن تجولت في المنطقة عادت من حيث أتت، لأن الحملة كانت عبارة عن جس نبض قوة المقاومة، لهذا أخبر قائد هذه الحملة الدوائر الاستعمارية بأهمية المنطقة، وحث السلطات الفرنسية على الهجوم لاحتلال الأغواط التي تعد العتبة الأساسية في الولوج إلى الصحراء والتوسع فيها.

---

(1) A.O.M.1H 11 n° 275.

(2) Memoires du Marechal RANDON, Tome premier, Paris, 1875, p. 155.

من تاريخ أولاد سيدي الشيخ(*)

تقديـم:

تعرضت الجزائر خلال القرن الماضي لأبغض نوع من أنواع الاستعمار الأوروبي الحديث، حيث هجمت القوات الفرنسية الغادرة على العاصمة. واحتلتها يوم 5 جويلية 1830م. ثم أخذت تتسرب داخل البلاد كالمرض الخبيث، لكنها واجهت مقاومة باسلة وعنيفة من طرف الشعب الجزائري لتطهير أرض الأجداد الطيبة.

وقد مرت المقاومة الشعبية بمراحل وتطورات عديدة، يمكن إجمالها فيمايلي:

ـ **المرحلة الأولى** ـ (ما بين 1830 ـ 1848م) تميزت بالمقاومة المسلحة والمقاومة السياسية للوجود الفرنسي، وقد تولى المقاومة المسلحة هذه الفترة زعماء معروفون ورجال غير معروفين، والمعروفون هم على الخصوص الأمير عبدالقادر وأحمد باي، ومصطفى بومزراق، وغير المعروفين منهم القائد ابن زعموم بمتيجة والحاج سيدي السعدي في العاصمة وضواحيها والاغا محي الدين بن مبارك شيخ القليعة وغيرهم؛ وهناك أيضا مقاومة سياسية تمثلت في بعض الشخصيات كحمدان بن عثمان خوجة وأحمد بوضربة، والشيخ إبن العنابي، وغيرهم. وهناك أشخاص قاوموا وهم مجهولون،

(*) مجلة: الثقافة، الجزائر، العدد 114، 1997.

وقد كانوا ينبهون الناس ويؤلفون اللجان، ويكتبون في الصحف، ويراسلون بعضهم البعض من أجل تنظيم المقاومة وتخطيطها، لأن الاحتلال الفرنسي في الجزائر قد محا جميع معالم الدولة الجزائرية وحكم البلاد حكما مباشرا حيث لا يوجد من يتكلم باسم الأهالي لا في شكل حكومة أو في شكل حزب أو هيئات محلية ولا توجد واسطة بين السلطات الفرنسية وسكان الجزائر.

ذلك أن هذه المقاومة لم تكن تتمثل في أشخاص فقط، بل كانت تتمثل في شعب رافض للاحتلال، فهي ارادة جماعية تلقائية لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى زعامة أو قيادة.

المرحلة الثانية ـ (ما بين 1848 ـ 1871م) وقد تميزت هذه المرحلة بالمقاومة المسلحة التي خرجت من المدن إلى الأرياف والجبال والصحاري، وتمثلت في المرابطين ورجال الدين (العلماء) الذين تزعموا هذه المقاومة، وهذا بعد أن ثبت الفرنسيون أقدامهم على السواحل والمدن.

وعندما قامت الجمهورية الفرنسية الثانية. أصدرت قرارا في شهر مارس 1848م ينص على أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي، فاتجه الاستعمار إذن نحو المناطق الداخلية والنائية لاتمام عملية الاحتلال الكامل للجزائر لكنه اصطدم في طريقه بالمقاومة الشعبية مثل ثورة الزعاطشة بقيادة الشيخ بوزيان عام 1849م. ومقاومة جبال جرجرة خلال الخمسينات تحت زعامة محمد الشريف بوبغلة وفاطمة نسومر. وفي الصحاري تعرض الفرنسيون لمقاومة شعبية عنيفة من قبل أهالي الأغواط. وأهالي وادي سوف ووادي ريغ ووادي ميزاب وغيرهم. أما الستينات من القرن الماضي فقد تميزت بثورة أولاد سيدي الشيخ الباسلة والمريرة والتي هي محور هذه الدراسة. وختمت هذه المرحلة بثورة 1871م لعائلتي المقراني والحداد، وواكبت ثورة الشريف بوشوشة (1869 ـ 1874م) في الصحراء.

المرحلة الثالثة ـــ وتمتد إلى العقد الأول من القرن الحالي، حيث عرفت البلاد عدة انتفاضات وثورات منها على الخصوص ثورة واحة العمري بنواحي بسكرة (1876م). وثورة الأوراس (1879م)، ولكن القوات الفرنسية أخمدتها واستطاعت أن تقضي على جميعها، لعدم اتحادها وتماسكها، وتحديد أهدافها ومناهجها. وبذلك اعتقدت السلطات الفرنسية أن عهد الثورات قد ولي في الجزائر، وما عليها إلا أن تتم عملية الاستحوذ الكامل للوطن، لكنها اصطدمت في طريقها بمقاومة شديدة تمثلت في ثورة بوعمامة التي استمرت سنوات طويلة مدافعة عن التراب الوطني، وهي في الحقيقة استمرار وامتداد لثورة أولاد سيدي الشيخ منذ سنة 1864م.

وقبل الخوض في دراسة الثورة الأولى لأولاد سيدي الشيخ يجدر بنا أن نتعرف على هذه الأسرة.

نبذة تاريخية عن أولاد سيدي الشيخ:

ينحدر أصل أولاد سيدي الشيخ من أسرة الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) حسب المصادر والوثائق العربية والأجنبية[1]. والتي سكنت مكة المكرمة في بداية ظهور الدين الاسلامي، ثم هاجرت ومكثت بمصر لبعض السنوات، وانتقلت إلى تونس بعد ذلك، ونظرا لما تتمتع به هذه الأسرة من احترام ونفوذ ديني معتبرين فان بعض أفرادها قد احتلوا مناصب هامة في الدولة خلال القرن الرابع عشر الميلادي[2].

هذا و لم تلبث هذه الأسرة أن رحلت من تونس متجهة نحو الغرب في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، تحت قيادة سيدي معمر، الذي اعتبر من الأولياء الصالحين، لهذا تزعم هذه القبيلة وقادها إلى بلاد بني عامر. فحضيت باستقبال حار ـــ جدير، بأحباب الله وأتباعه، حسب اعتقادهم ـــ وقد استقروا في بادىء الأمر في منخفض وادي القليتة ما يقرب

[1] TRUMELET (Col). *Les Français dans le desert.* 2ème édition. Paris 1885, p.80.
[2] Ibid, p.81.

أربعة أجيال، حيث شيدوا القصور (القرى) منها الأربعاء التحتاني والأربعاء الفوقاني، وأقاموا القباب على أضرحة أجدادهم كقبة سيدي معمر وسيدي عيسى بوليلة وسيدي بن حيّة وسيدي بوسماحة، وسرعان ما سئم زعماء هذه القبيلة المكوث بنفس المكان والسكون به، فغادر البعض من أفرادها هذه القصور واتجهوا بقيادة سيدي سليمان ولد أبي سماحة غربا نحو واحات فيقيق، أين توفي هناك، وبذلك فان شجرة نسب أولاد سيدي الشيخ من الخليفة أبي بكر الصديق حتى سليمان بن بوسماحة تكون كمايلي:

الخليفة أبو بكر الصديق، عبدالرحمان، محمد، سفيان، أزراو، اندبوي، توفيل، إيدير، زيدان، عيسى، محمد الشبيه، تسودي، عيسى، أحمد، زيد، عسكر، حفيظ بن حرمة آلله، عقيل، سعد، سليمان، معمر، عيسى بوليلة، بن حيّة، بوسماحة، سليمان[1].

واشتاق الابن الأكبر سيدي محمد ولد سيدي سليمان إلى وطن أجداده. فما لبث أن غادر فيقيق تاركا وراءه أخوته هناك، ونزل بالشلالة التي مكث بها حتى وفاته، بينما استقر أخوه سيدي محمد المجذوب فيما بعد بعسلة غرب قصر الشلالاة الظهرانية، ولقد أنجب ولدا رزق (البركة) والتقوى والاحترام والتقديس في بعض الأحيان، واعتبر ولي آلله الصالح، وهو سيدي عبدالقادر الذي شاع إسمه في كامل الجنوب الغربي الجزائري والجزء الشرقي من المغرب الأقصى، وأصبح له العديد من الاتباع والاخوان والمريدين، مع العلم أن ميلاد هذا الولي الصالح كان عام 1530م والوفاة عام 1615م ودفن في الأبيض الذي أصبح يطلق عليه منذ ذلك الحين اسم الأبيض سيدي الشيخ.

---

(1) Archives d'outre-Mer. (A.O.M). 22h9.

خلف سيدي عبدالقادر ذرية كثيرة. تنازعوا فيما بينهم حول الزعامة الدينية والقيادة السياسية، بعد وفاة والدهم فانقسموا إلى قسمين هما:

ـ قسم استقر في قصر الأبيض سيدي الشيخ، حول قبر أبيهم بزعامة الابن الأكبر الحاج ابن حفص.

ـ قسم آخر استقر في الناحية الغربية من القصر، بزعامة الابن الثالث سيدي الحاج عبدالكريم وعددهم أكبر من القسم الأول.

وقد عاش القسم الأول حياة البداوة في الخيام مع العبيد والأتباع والخدم، ثم استقروا في شرق قصر الأبيض سيدي الشيخ وأسسوا لأنفسهم زاوية خاصة، وسموا بأولاد سيدي الشيخ الشراقة، كما أنشأ الفرع الآخر زاوية خاصة بهم أيضا، وسموا بأولاد سيدي الشيخ الغرابة.

هذا وقد ورث سيدي حمزة ولد أبي بكر السيطرة الروحية والدينية لأولاد سيدي الشيخ لأنه سليل الحاج أبو حفص الابن الأكبر للولي، حيث أن هذا الفرع من الأسرة يتمتع باحترام وتقدير سلاطين المغرب الأقصى الذين ارتبطوا بهم منذ القدم بالمصاهرة، ذلك أنه في سنة 1844م وقع اختيار السلطان المغربي مولاي عبدالرحمان على السيدة ياقوت شقيقة سي حمزة ليتزوجها.

تسرب النفوذ الفرنسي داخل أولاد سيدي الشيخ:

توجت انتصارات الماريشال «بوجو» (BUGEAUD) على القوات المغربية في موقعة «إيسلي» (ISLY) بالحدود المغربية خلال صيف 1844م[1]. بمعاهدة طانجة يوم 10 سبتمبر 1844م[2]، والتي نصت في

[1] FERAY-BUGEUAD d'Isly [Mell], *Lettres du MARCHAL BUGEAUD*, Duc d'Isly, (1890-1849), Paris, 1922, pp. 276-283.
[2] A.O.M. 30h15, Convention conclue à Tanger, le 15 Septembre 1844, pour régier les différents survenus entre la France et le Maroc.

بندها الرابع على محاصرة ثورة الأمير عبدالقادر بالحدود الجزائرية المغربية من طرف القوات المغربية غربا والقوات الفرنسية شرقا من أجل انهاء الخلاف المغربي ــ الفرنسي.

ثم كانت معاهدة لالة مغنية المبرمة يوم 18 مارس 1845م. والتي تعد الفيصل بين النزاع المغربي ــ الفرنسي على الحدود، حيث بموجب هذه الاتفاقية حددت الحدود الشمالية بين الجزائر والمغرب. وحدد معها مصير بعض القبائل المنتشرة على هذا الخط[1] ومن بينها أولاد سيدي الشيخ، الذين أعلنوا منذ البداية ولاءهم للأمير عبدالقادر. لكنهم انضووا على مضض تحت السلطة الاستعمارية بالجزائر، لا سيما الفرع الشرقي، التي حاولت فرنسا أن تجعل منهم وسيلة لتوسعها في الجنوب الغربي. حيث عينت سيدي حمزة ولد أبي بكر ــ بعد مساومات ومشاورات ــ خليفة على الجنوب الجزائري سنة 1850م[2].

ذلك أنه خلال سنة 1851م ظهر، وبرز على أحداث الساحة الصحراوية الشريف محمد بن عبدالله، سلطان ورقلة، وبعد رجوعه من الأماكن المقدسة، وبعد تشبعه واقتناعه بالأفكار السنوسية[3]. والذي

(1) A.O.M., 30H15. المعاهدة الواقعة في لالة مغنية بين الدولتين الفرنسية والمغربية، يوم 18 مارس 1845م: ــ ويذكر الشرط الرابع أن أرض الصحراء لاحد فيها بين الجانبين لكونها لا تحرث وانما هي مرعى فقط لعرب الايالتين التي تنزل فيها وتنتفع بخصبها وماءها ولكلا السلطانين التصرف في رعيته بما شاء وكيف شاء من غير معارض، ان امتازت وإلا فمن أراد أحداث أمر في رعيته حالة اختلاطها برعية غيره فليكف عن غير رعيته ويحدث في رعيته ما يشاء فالأعراب الغربية هم المهاية وبني غيل وأولاد سيدي الشيخ الغرابة وعمور الصحراء وحميان الجنبة والأعراب الشرقية هم أولاد سيدي الشيخ الشراقة وكافة حميان من غير حميان الجنبة.

(2) A.O.M., 22H5, Les Oudad Sidi Cheikh Cherraga, manuscrit de six pages Gevernment Général d'Algérie, Alger, le 19 Avirl 1899.

(3) H.DUVEYRIER. «La confrerie musulmane de Sidi Mohamed Ben-Ali ES-SENOUSSI» B.S.G. De Paris, 1884, p. 156.

حاول الاتصال بابن عمه الخليفة سي حمزة ليستميله إلى صف المجاهدين من أجل القيام بالثورة المسلحة العارمة، ضد التواجد الفرنسي الغريب في الديار الجزائرية الاسلامية. لكنه لم ينجح في تحقيق ذلك، ورغم ذلك فقد تفطنت السلطات الفرنسية لهذه التحركات والاتصالات، فاضمرت الشر للخليفة، وأصبحت تراقبه عن كثب. ثم أرسلت له سرية تحت قيادة الرائد «ديليني» (DELIGNY) رئيس مكتب العرب لمقاطعة وهران، بحجة المراقبة العادية، لكنها استدرجته وألقت القبض عليه واقتادته معها إلى وهران ليسجن. حسب التهمة لمدة عامين(1).

حاول أخوه النعيمي أن يستغل هذا الوضع لصالحه، فعيّنته السلطات الاستعمارية قائدا على آغوية تشتمل على اثنتي عشر قيادة، لكنه لم يلبث أن خضع لأفكار شريف ورقلة محمد بن عبدالله، فانضم إليه ضد الاحتلال الفرنسي. لذلك أفرجت فرنسا على سي حمزة بعد سبعة أشهر فقط من سجنه. وأعادت إليه منصبه كخليفة على الجنوب الجزائري، ثم أخذه الجنرال «بيليسي» (PELISSIER) معه لشن حملة ضد العروات وأظهر سي حمزة طاعته للقائد الفرنسي بمحاربته بشدة الأرباع وأولاد نائل على رأس قوة من ستمائة فارس وبعض الصبايحية في واد النساء واقتك منهم خمسة وعشرين ألف رأس غنم. وألفان ونصف من الجمال، وكسب بذلك ثقة الفرنسيين من جديد.

وفي شهر أفريل 1853م برهن الخليفة سي حمزة مرة أخرى عن اخلاصه للسلطات الفرنسية، وذلك بمشاركته في الحملة التي قادها العقيد «دوريو» (DURRIEU) لضرب القبائل الثائرة على الحدود المغربية، وأهمها قبائل حميان الشافعة. وقد رجع من هذه الحملة يسوق أمامه غنائم من

(1) TRUMELET. *Op. cit*, p.95.

عشرين ألف جمل وثلاثين ألف من الأغنام[1]، استفاد منها الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

كما أسند الفرنسيون أيضا مهمة خطيرة وانتقامية للخليفة وهي قيادة حملة كبيرة ضد سلطان ورقلة، باعتبار سي حمزة رجال زاوية يتمتع بهيمنة وهيبة دينية عند القبائل الصحراوية، يمكن جلبهم إلى صفه والانفصال عن الشريف محمد بن عبدآلله ضمن سياسة «فرق تسد».

ورغم ما قدمه من خدمات جليلة للسلطات الفرنسية إلا أنها لم تعترف بذلك ولم تطمئن إليه نظرا لنفوذه القوي على القبائل الصحراوية، ومزاحمته للسلطة الاستعمارية، فعزلته واستدعته الى الجزائر العاصمة. قصد التحقيق حول بعض الشكاوي التي رفعها ضده أهالي الصحراء، غير أنه لقي حتفه. يوم 15 أوت 1861م. وأدعى الفرنسيون أنه مات بمرض الكوليرا الذي أصابه بالعاصمة، ولابعاد الشبهة، قامت السلطات الفرنسية بنشر إشاعات في أوساط السكان مفادها أنه مات مسموما من قبل زوجته المسماة التالية بنت رابح.

ذلك أن نبأ توقيفه قد أثار القلق والشكوك وعدم الارتياح في كامل أرجاء الصحراء، والتل الوهراني، أما موته فقد أشعل نار الغضب لدى السكان، ونعاه الشاعر الصحراوي الشيخ يوسف الشعاني بقصيدة طويلة، منها مايلي[2]:

---

(1) TRUMELET. «Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la provence d'Alger en 1864» in *R.A.* n°30 (1876), p. 180.

(2) Si Hamza BOUBAKER. «Origine de la guerre du sud-Orannis conte la france» (1864-1900) in *Revue d'Histoire Maghrebine*. Tunis, n°6 (1976), p. 136.

سلطان الصحراء فرق جنة ما بان خيل النجـــع ومسر غـــدي
ذيك المية شيبت كل العربــان زاخت بمخـــــــردة ذي
غاب شيخ القوم ذات لمطشان حـــرم النجـــع لقـــدر صدى
غدروا فيه الروم شيخ لحيوان غـــــدروا والعـــــس ردى

وقد خلّف سي حمزة أخوين هما: سي لعلا وسي الزبير وستة أبناءهم: بوبكر، وسليمان، ومحمد، وأحمد، وقدور، والدين[1].

هذا وقد عينت السلطات الفرنسية الابن الأكبر بوبكر في مكان أبيه، ولكن برتبة «باش آغا» التي هي أقل من رتبة خليفة، أي أقل من رتبة أبيه.

لقد تفانى سي بوبكر في خدمة الفرنسيين. ولا سيما في القضاء على ثورة الشريف محمد بن عبدالله قضاءا مبرما، لكنه سرعان ما قتل هو أيضا مسموما من قبل أحد أتباعه في 22 جويلية 1862 وهذا حسب التقارير الفرنسية. التي أظهرت كذلك أن وفاته كانت بمثابة خسارة كبيرة للفرنسيين لأنهم كانوا قد وجدوا فيه الشخص المطيع الخدوم.

عينت السلطة الفرنسية سي سليمان بن حمزة خلفا لأخيه سي بوبكر، وهو في عزّ شبابه، حيث لم يتجاوز عمره الثاني والعشرين سنة، كما عزلت القائد سي الزبير من أغاوية ورقلة بسبب مرضه المزمن والعضال، وقامت بتعيين شقيقه سي لعلا بن بوبكر مكانه. وكان سي لعلا صاحب طموح ونشاط ويكن كل الكره والبغضاء للفرنسيين، وكان متأكدا من أن الفرنسيين كانوا وراء وفاة سي حمزة وابنه سي بوبكر. فأخذ يستعد ويحاول أن يدفع بابن أخيه سي سليمان الى الانفصال عن فرنسا وإشعال نار الثورة ضدها مستغلين في ذلك عدة ظروف مثل رحيل بعض من القوات الفرنسية المرابطة بالمنطقة إلى الحروب والغزو الاستعماري في المكسيك والكوشنشين (الهند الصينية).

(1) A.O.M., 22H9.

ذلك أن السلطات الاستعمارية بالجزائر، قد كثفت من نشاط مكاتب الشؤون العربية[1] (Bureaux Arabes)، وشعرت بأن الزعماء الوطنيين بدأوا يفتقدون قواعدهم الأساسية بمرور الزمن. ونفوذهم الشعبي، وإنهم أصبحوا شبه موظفين قابلين للتغيير والعزل، ويبدو أن هذا الزعم غير صحيح.

أسباب الثورة:

اتبعت السياسة الاستعمارية عدة أساليب في تكريس احتلالها وبسط نفوذها في الجزائر. منها أنها استعملت نفوذ أسرة أولاد سيدي الشيخ، كمطية للتسرب والتوغل داخل البلاد. وحينما تيقن الزعماء من خطر هذه السياسة وقفوا للتصدي لها. واعلنوا الجهاد للذود عن حمى الوطن والدين والعرض والشرف.

ولا شك أن تفاعل العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية عجل باندلاع الثورة، التي يمكن حصر بعض أسبابها في النقاط التالية:

1 ــ رفض الشعب الجزائري للوجود الاستعماري الفرنسي في بلاده. وهذه من الأسباب الرئيسية والأولى لكل ثورات الجزائر. لأن الجزائريين قد نظروا الى الفرنسيين على أنهم كفار جاءوا لتنصيرهم، فهم إذن أعداء خارجين عن الملة والدين يجب طردهم.

---

(1) كانت مكاتب الشؤون العربية وسيط بين السلطة الفرنسية وزعماء الأهالي، وتأسست هذه المكاتب بموجب قرار وزاري، صدر بتاريخ فبراير **1844**م. وانشئت مكاتب عربية في كل المقاطعات وخاصة إقليم الجنوب، وعلى رأس هذه المكاتب ضباط برتبة رائد أو نقيب يساعده نائبان برتبة نقيب وملازم مع كاتب ومترجم وقائد من الأهالي . أنظر:

- J. DUVAL. A. Warnier, *Bureaux Arabes et Colons* Paris, 1869.

2 ــ إنتقاص من قيمة أسرة أولاد سيدي الشيخ، والعمل على تحطيم نفوذها السياسي والاجتماعي. حيث قامت السلطات الفرنسية بتجاهل شخصية زعيمهم الباش آغا سليمان، وعزل سي الزبير عن آغوية ورقلة وتعويضه بأخيه سي لعلا، وكانت ترمي من وراء هذا التعديل ضرب أفراد الأسرة الواحدة من جهة وسحب آغوية ورقلة من دائرة نفوذهم. وربطها بمقاطعة قسنطينة من جهة أخرى.

كما أن السلطات الفرنسية بالبيض عينت بعض القياد الجدد من الأهالي في المنطقة، دون الرجوع إلى سي سليمان لاستشارته وموافقته، مما آثار حفيظته.

3 ــ فرض ضرائب باهضة وغير معقولة على أولاد سيدي الشيخ إلى جانب مصادرة أراضيهم وأملاكهم العقارية والحيوانية من طرف السلطات الفرنسية.

4 ــ ارهاق السكان بالضرائب العديدة. تفرضها الحكومة الفرنسية لافقارهم وتحطيمهم ماديا، لأنها تمتصُّ كل ما لديهم من فائض، وتجعلهم في ضيق دائم وفي اضطرار مستمر لسد الرمق، وبالتالي لا يتمكنون من القيام بالثورة أو حتى التفكير فيها. ولكن التاريخ كشف لنا أن العكس هو الذي كان يحصل دائما مع الشعب الجزائري.

5 ــ من أسباب الثورة أيضا هي النوايا المبيتة للسلطات الفرنسية ضد سي سليمان.

ذلك أنه في بداية سنة 1863م حصلت مشاجرة عنيفة في بلدة قرارة بوادي ميزاب انقسم السكان على إثرها إلى قسمين هما الصف الشرقي والصف الغربي.

وتمكن الصف الغربي بواسطة رئيسه إبراهيم بن بوهون من شراء تأييد الباش آغا سي سليمان ورشا شعانبة متليلي وخدامة ورقلة فشن هجوما ليلا على خصومه نال منهم.

ثم طلبت السلطات الفرنسية من الباش آغا سي سليمان أن يوقف المعتدين، لكنه تماطل في التنفيذ، ومن هنا أخذ يفكر في رفع لواء الثورة، ووجه نداء إلى أفراد عائلته أكد فيه بأن الفرنسيين الذين سمموا أباه حمزة وأخاه بوبكر لن يتورعوا في قتله هو كذلك والتخلص منه. لذلك لابد من الثورة العارمة(1)، وقد وجد هذا النداء صداه الواسع.

والملاحظ هو أن سي سليمان كان يضمر الشر للفرنسيين منذ سنة 1863م.حيث بدأ في تحضير الثورة. ليخلص البلاد من بلائهم.

6 ـــ سوء معاملة ضباط المكاتب العربية للسكان، خاصة بعد أن استدعى الضباط القدامى، ذوو الخبرة والمقدرة في معاملة الأهالي إلى الحرب في ايطاليا والمكسيك. وعوضوا بضباط جدد ليس لهم معرفة بأوضاع البلاد وطبيعة سكانها، فاتسمت سياستهم بالشدة والعنف. وعدم التفاهم مع الأهالي.

وفي الحقيقة أن الجزائريين قد عانوا الكثير من سياسة هذه المكاتب العربية سواء من الضباط القدامى أو الجدد.

7 ـــ أما السبب المباشر لاندلاع الثورة فهو ذلك الحادث الذي حصل يوم 29 جانفي 1864م، حينما اجتمع عدد من أفراد عائلة أولاد سيدي الشيخ في ساحة البيض وكان معهم سي الفضيل كاتب الباش آغا

---

(1) L-Charles FERAUD, «Les Ben-Djellab, sultans Tougourt Notes Historiques sur la province de Constantine» in *R.A.* N° 30 [1886], pp. 433-434.

سي سليمان وأخذوا يلعبون لعبة (الخذف) أو (الخربقة) وهي لعبة ذات شهرة واسعة ومنتشرة بكثرة في الجنوب. وهي تشبه لعبة الشطرنج، وتتطلب الكثير من التروي والتفكير والبراعة والذكاء وقد انضم إليهم مجموعة من الصبايحية التابعين للمكتب العربي بالبيض. وخلال اللعب تدخل أحد الصبايحية إثر تحريك بيدق (كلب) بطريقة غير صحيحة، فأدى ذلك إلى حصول مشاجرة بينه وبين سي الفضيل انتهت بتدخل كل الصبايحية الذين اقتادوه الى مقر المكتب العربي بأمر من الملازم «بورن» (BORIN) وعاقبوه هناك بالعصا على الأقدام[1].

لما علم سي سليمان بالحادث أسرع إلى المكتب العربي، واطلق سراح كاتبه، بعد أن توعد الضابط الفرنسي بالعواقب الوخيمة لأنه اعتبر هذا الحادث إهانة كبيرة له ولعائلته لذلك أخذ يستعد لاشعال نار الثورة في وجه الاستعمار الفرنسي فاجتمع مع مجلس الجماعة، كمجلس حرب وتشاوروا في الأمر ثم قرروا الجهاد من أجل طرد المستعمر الغاصب والغاشم من أرض الأجداد الطيبة.

مراحل الثورة:

يمكن تقسيم ثورة أولاد سيدي الشيخ الى مرحلتين أساسيتين هما:
- المرحلة الأولى الواقعة ما بين 1864م ــ 1867م.
- المرحلة الثانية وتمتد من 1867م ــ 1881م.

أ ــ المرحلة الأولى ــ 1864 م ــ 1867م:

لقد أعلن سي سليمان النفير للقيام بالثورة والجهاد المقدس على المحتلين الفرنسيين. بعد أن وافقه المجلس واستجاب له عدد لا بأس به من

---

(1) Si Hamza BOUBKER, *Op. cit.* pp.137-138.

الاتباع والأنصار، وكلفوا سي الفضيل في أن يلعب الدور الحاسم في تعبئة الجميع، وان يقوم بإبلاغ كل القبائل والعروش والمقاديم والأخوان والتابعين للزاوية، بهذا القرار الهام والخطير.

وفيما يلي نص الرسالة التي أعلن بها النفير، والتي عثر عليها في المخطوطات التي تركها سي الفضيل.

«الحمد لله ذي الاسم الأعظم[1] والصلاة والسلام على نبي الهدى من عبد ربه سليمان بن الشهيد حمزة بن أبي بكر رحمهما الله إلى كل من مقادم الطريقة الرشيدة وشيوخ القبائل وكبار العماير السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد هذا مني إليك بإتفاقه جماعتنا بشرى باعلان الجهاد في سبيل الله على سنة رسول الله ﷺ ضد الكفار الفاسقين الفرنساويين لعنهم الله الذين صالوا علينا وتعدوا وأطغوا وشرعوا في إهانة ديننا الحنيف لا أراد الله بعدما فسقوا في أرضنا وأحلوا ما حرم الله فها نحن رفعنا راية المحمدية وبشرنا كل مسلم بالجهاد. راجين من المولى سبحانه وتعالى أن ينصرنا على الكفار المخزيين وراجين منكم ومن ناسكم جميعا أن (**أعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**) فإياكم ثم إياكم.

وكونوا من القوم الذين وعدهم الله (ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ولن يخلف الله وعده.

الجهاد ثم الجهاد وبيوم المصانع وميدانه والجمع اللازم قبله يخبركم تفصيلا حامل البلاغ هذا وليبلغ من لا يبلغه من بلغه والسلام.

---

(1) Ibid., p.138.

كتب بأمر خديم الدين سليمان بن حمزة.
يوم 22 شهر شعبان عام 1280(*).

وهكذا توضح هذه الرسالة مدى سوء تصرف الادارة الاستعمارية تجاه الشعب الجزائري ومقدساته. وتبين طغيان الاحتلال وتجبره، وهذا ما يدفع الشعب الجزائري الى الثورة كلما حانت له الفرصة للدفاع عن كيانه ووطنه ودينه.

وحسب الاتفاق الحاصل بين سي سليمان وعمه سي لعلا. والذي تأكد فيه قرار اندلاع الثورة، والاستعداد لها، فإن سي لعلا قد شرع في تنصيب المخيم منذ 17 أو 18 فيفري بمنطقة أنومراك مع الشعانبة والخادمة(1)، كما أبلغ قبائل سعيد عتبة بالأمر، وطلب من آغوبة ورقلة أن تكون في مقدمة الثورة، وتستعد للتعبئة.

ومنذ 26 فيفري شرع سي لعلا في اخضاع القبائل التي رفضت الانضمام للثورة بوادي النساء، ولما علم الحاكم الفرنسي بالأغواط «سوزوني» (SUZZONI) بذلك، بعث بقوة عسكرية تحت قيادة قائد المكتب العربي النقيب «لوتولي» (LETELLIER) إلى وادي النساء لحمايتهم وتهريبهم إلى الشمال(2).

والجدير بالذكر هو أن قاعدة الثورة بدأت تتوسع وان التأييد لها يزداد من يوم إلى يوم. ذلك أن أولاد سيدي الشيخ الغرابة قد علموا بهذا الأمر واستعدوا للثورة مع الأشقاء الشراقة، وقد صادف أن حضر زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة الشيخ بن الطيب لزيارة أبناء عمومته، وليعطي

(*) الموافق لـ أول فيفري 1864م.

(1) TRUMELET, *Op. cit*, p.181.
(2) Ibid, 182.

عهده لسي سليمان بمساعدة الثورة، ومن الغد حضر سي جلول بن حمزة الى مخيم سي سليمان آتيا من المنيعة مع الخنافسة، وقسم كبير من التوارق، ثم التحق بهم الثائر والمجاهد ابن ناصر بن شهرة، والذي كان يتزعم الثورة منذ عام 1851م على رأس عدد من سكان الأرباع.

لم يمض شهر فيفري 1864م حتى تمت الاستعدادات للثورة: فاشتعلت نيرانها يوم 08 أفريل حينما باغتت قوات أولاد سيدي الشيخ مخيم الجيش الفرنسي في هضبة عوينة بوبكر شرق البيض، فأثار هذا الهجوم المفاجيء الهلع والاضطراب والفوضى في صفوف القوات الفرنسية وأسرع سي سليمان قائد الثورة الى خيمة العقيد «بوبريتر» [BEAUPRETRE] وقتله[1]، ولكن حراسة قتلوا سي سليمان في نفس اللحظة.

ورغم ذلك فقد استمرت المعركة حامية الوطيس، وانتصرت قوات الثورة. وقد أثار هذا الانتصار إعجاب الجميع فنهضت الجزائر من أقصاها إلى أقصاها، وبدأت القبائل تنضوي تحت لواء الثورة.

وقد ذكرت التقارير العسكرية ان الخسائر الفرنسية في هذه المعركة كانت فادحة، وان الضباط الفرنسيين الذين قتلوا، هم على الخصوص العقيد «بوبريتر»، والنقيب «إسنارد» [ISNARD] ونقيب المكتب العربي بتيارت والمترجم «كابيسو» [CABISSOT] ونقيب الصبايحية «تيبولت» [THIBAULT] مع ملازمه الأول «بيران» [PERRIN] إضافة إلى قتل ملازم القناصة «بوبي» [BEAUPIED][2].

وتمكن «فافلييه» [FAVELIER] بيطري هذه الفرقة من الفرار والنجاة مع الجندي «ريس» [RES] والصبايحي ولد سي علي بن عودة،

---

[1] Le Général DU JONCHY, «[illegible] des Oules sidi cheikh» in *B.S.G. et Ar, d'Oran,* [1940] p. 196.
[2] Ibidem.

وقد ساعدهم قائد ستيتن أحمد بوبكر من الوصول إلى بر الآمان، وقد ذكر البيطري «فافنيه» تفاصيل المعركة ورحلة النجاة في تقريره، الذي عثر عليه الجنرال «جوشاي» سنة 1894 بالمكتب العربي بالبيض. ذلك أن هذه الوثيقة مؤرخة بـ 5 نوفمبر 1865م وجدت ضمن أوراق الجنرال دي سوني (De Sonis) القائد الأعلى لسعيدة، وقد جاء ليُحقق حول الثورة[1].

وهكذا استطاعت هذه الثورة أن تفتح طريقها بنصر باهر حيث تمكنت من سحق وقهر قوات عسكرية هائلة مجهزة بأحدث الأسلحة والعتاد. وقد أحدثت هذه الهزيمة ضجة كبرى سواء لدى السلطات الفرنسية نفسها أو لدى الجماهير الفرنسية بالجزائر وفرنسا، كما كان لها وقع طيب عند أهالي الجزائر، مما جعلها تحضى بتأييد واسع لدى معظم القبائل في شمال البلاد وجنوبه وقد انفصل البعض منها عن السلطات الفرنسية وانضمت إلى الثورة مثل قبائل الأحرار وبني قيل وبني جرير وغيرهم.

وعلى اثر استشهاد سي سليمان بن حمزة بايعوا سي محمد كقائد لهم ليتزعم الثورة، خلفا لأخيه الراحل، ونظرا لصغر سنه الذي لم يتجاوز العشرين سنة. فقد استعان بعمية سي الزبير وسي لعلا في إدارة الثورة[2].

وقد امتاز سي لعلا بنشاطه المتزايد، وبرز خلال هذه الثورة بحيويته وأفكاره الثورية وتنظيماته المحكمة. فقد كاتب سكان مناطق الطويلة والخضر وقصور جبال عمور ليلتحقوا بالثورة ويمدوها بالدعم المادي والبشري، منها خاصة جنوب أولاد يعقوب الزرارة، وقد قام سي لعلا بجولة عبر هذه المناطق ليحث السكان على الانضمام إلى الثورة ومؤازرتها بالمجاهدين والذخيرة والمؤن. وكان لهذا التنقل التأثير الكبير في تنفير الأهالي واستعدادهم إلى الجهاد.

(1) Ibid, p. 207.
(2) TRUMELET, *Op. cit,* p.192.

وقد اضطر آغا جبال عمور الدين بن يحي من الانسحاب ومغادرة المنطقة مع بعض من قوته وأهله، خوفا من زحف الثوار عليه. واستقر مؤقتا في الناحية الواقعة بين سيدي بوزيد ــ زنينة يوم 13 أفريل ثم ما لبث أن صعد إلى الشمال، وبذلك فسح المجال للثورة بأن تمد نفوذها إلى هذه المناطق الاستراتيجية حيث لجأ إليها قائد الثورة سي محمد مع أتباعه يوم 15 أفريل، واستقر في قصر البيضاء(1).

كما تدعمت الثورة يوم 17 أفريل بانضمام قبيلة أولاد شايب من دائرة بوغار تحت قيادة الآغات النعيمي ولد الجديد وأخوته بعد انفصالهم عن السلطة الفرنسية. وقتل قائد طاقين جلول بن مسعود(2). عميل الاستعمار.

وكان الآغا النعيمي واخوته الثلاث بوبكر، والمداح، وبن يوسف على رأس قوة تقدر بحوالي خمسمائة فارس، قاموا بهجوم كاسح على معسكر فرنسي يقوم بمهمة التجسس وجمع الأخبار عن تحركات الثورة لصالح المكتب العربي ببوغار. وقضوا على الملازم أحمد بن رويلة وضابطين فرنسيين واحد عشر صبايحي من جملة خمسة وعشرين، وقد فر الباقون الى قصر الشلالة تاركين وراءهم مخيمهم وعتادهم كغنيمة لأولاد شايب، وغنموا أيضا حبوبهم المخزونة وغادروا طاقين باتجاه الجنوب الغربي ليلتحقوا بزعيم الثورة سي محمد بن حمزة.

وأمام هذه التطورات اضطرت السلطات الفرنسية الى اتخاذ اجراءات سريعة من أجل الحفاظ على نفوذها في الجنوب الجزائري. فقد أسرع الجنرال يوسف بتنظيم كتيبة في بوغار للسيطرة على القبائل الثائرة وتهدئة الأوضاع، وقد تمكن من جمع أكثر من ألفي رجل بعد انضمام بعض فرق إقليم وهران إليه وتحرك بهم يوم 26 أفريل نحو الأغواط(3)، لتطويق لهيب الثورة، ريثما يتم القضاء عليها، بعد التنسيق مع الفرق العسكرية المعبأة لهذا الغرض.

وهكذا استعد الطرفان، الفرنسي والثوار لخوض المعارك الضارية لتحقيق أهدافهما المتناقضة.

---

(1) Ibid. pp. 273-274.
(2) Ibid, p. 275. et aussi FERAUD, *Op. cit*, p.434.
(3) DERRECAGAIX (Le Général), *Récit d'Afrique YUSUF*, Paris, 1907, pp.202-204.

وفي هذا الوقت عرفت الجزائر عدة انتفاضات منها مقاومة قبيلة فليته المرابطة بجبال الونشريس، والتي لها علاقات وثيقة بأولاد سيدي الشيخ، وقد تأثرت بأحداث الثورة، وقد تزعم هذه المقاومة الشيخ سي الأزرق[1]. مقدم الطريقة الدينية القادرية (أو الدرقاوية التي هي فرع من القادرية) وحاولت هذه المقاومة الالتحام بثورة أولاد سيدي الشيخ ومؤازرتها، غير أن القوات الفرنسية قد منعتها من ذلك، وسحقتها في الحين، كما تمت زعيمها سي الأزرق وأرغمت الآخرين على الاستسلام.

ومن أشهر المعارك التي خاضها سي محمد بن حمزة معركة ابن حطب يوم 26 أفريل 1864م ضد فيلق الجنرال «مارتينو» (MARTINEAU)[2] السائر نحو البيض، وقد تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح، حيث أن بعض المصادر قد أشارت أن الفيلق قد سحق عن آخره، بينما يشير البعض الآخر أنه تمكنت بقية من الفيلق من النجدة والانسحاب والوصول إلى البيض بصعوبة كبيرة من الغد[3].

لما شاع خبر انتصار الثورة في أرجاء الوطن، سارعت بعض القبائل الى الانضواء تحت لوائها وتدعيم صفها خاصة الأحرار وقبائل جبال عمور، فسارعت السلطات الفرنسية مرة أخرى باتخاذ اجراءات مشددة لتطويق هذه القوة الصاعدة، فرصدت فرق عسكرية تحت قيادة ضباط محنكين أمثال الجنرال يوسف والجنرال دليني (DELIGNY) والجنرال روز (ROUZ) والجنرال لاباسي (LAPPASSET)[4] وتشديد الخناق على الثورة، وقطع كل المساعدات عنها.

وفي يوم 13 ماي 1864م وقعت معركة ستيتن بين قوات الثورة بقيادة سي محمد وقوات العدو بقيادة دليني. وكانت معركة ضارية. فقد فيها الثوار

(1) Paul GAFFAREL, *l'Algérie, Histoire, Conquête et colonisation*, Paris, 1883, p.258.
(2) A.O.M. 22H9, Manuscrit du Capitaine chef du bureau arabe, E.PANSARD, Histoire des Oulas-sidi cheikh, p. 85.
(3) TRUMELET, op. cit, p. 385.
(4) Archilles FILLAS, l'Insurrection des Oulad sidi Cheikh en 1864 (Récit Militaires) Alger, 1884, 1884, pp. 24-25.

العديد من رجالها. ومما جعل سي محمد يتراجع إلى الجنوب. وذلك بعد القصف المكثف والعنيف على قصر سيتن عاصمة أولاد سيدي الشيخ آنذاك[1]. ثم تمّ احتلالها من طرف القوات الفرنسية، وتمكن بذلك الجنرال دليني الانتقام من السكان العزل للهزائم السالفة. ولقتلى معركة عوينات بوبكر، مما جعل الامبراطور الفرنسي يعتقد أن ذلك سيجعل حدا نهائيا للثورة، وعليه أن يوجه رسالة يقدم بها التهنئة للجنرال دليني[2].

غير أن الثوار قد اعتصموا بالجنوب للارتكاز وتنظيم صفوفهم ولم شملهم ورصّ الامكانيات، للانطلاق من جديد.

وفي نفس الوقت أمرت السلطات العسكرية الجنرال يوسف بملاحقة المجاهدين عبر جبال عمور، فغادر بوغار إلى الأغواط ومنها انتقل إلى عين ماضي، وتاجرونه، وبريزينة والأبيض سيدي الشيخ، ونهب القبائل الموالية للثورة وإرغامهم على دفع الضرائب الباهضة بالاضافة إلى اهانتهم وتعذيبهم جسديا.

استغل الثوار ارتفاع درجة الحرارة، للانقضاض على المراكز الفرنسية وعلى القبائل الموالية لهم. فقاموا بالهجوم على فرندة لتأديب الخونة يوم 12 جويلية 1864م[3]. وتأديب كل من الآغا أحمد ولد قاضي وقدور بن صحراوي الذين ساعدا القوات الفرنسية ضد اخوانهم في ثورة أولاد سيدي الشيخ، لذلك أسرعت السلطات الفرنسية بتعزيز حامياتها بتجهيز خمس كتائب لمحاصرة الثورة، وهي كتيبة الجنرال «الوقران» (LE GRAND) وكتيبة دليني مارتينو وكتيبة «جوليفي» (JOLIVET).

ورغم هذا الحصار استطاع الثوار بزعامة سي محمد القيام بالهجوم العنيف على قوات الجنرال جوليفي بعين البيضاء يوم 30 سبتمبر 1864م، وألحق بها خسائر فادحة[4]. واسترجعت الثورة بذلك المواقع الرابطة ما بين الخيثر وعين البيضاء، وسيطرت على كل قبائلها. أما سي لعلا فقد سار نحو الضاية لتعزيز صفوف الثورة.

---

(1) P. GAFFAREL. Op. cit. p. 258.
(2) Ibid, p. 260.
(3) PANSARD, op, cit, p. 258.
(4) Ibid, p. 91.

لهذا أعطت الحكومة الفرنسية الأوامر الصارمة لقوات الجنرال دليني والجنرال يوسف، لفك الحصار عن هذه الجهات كما أمرت قوات العقيد «شانزي» (CHANZY) بأن تلاحق جيوب الثورة بمنطقة سيدي علي بن أيوب.

استطاعت هذه القوات الضخمة من ايقاف زحف الثورة مؤقتا. فارغمت وحدات سي محمد وسي لعلا إلى مغادرة المكان والاعتصام بالصحراء، لهذا عرفت الثورة مع نهاية سنة 1864م نوعا من الفتور جعل القوات الفرنسية في راحة تسمح لها بالاهتمام والاشتغال بمعاقبة الشعب الجزائري على مؤازرته للثورة فاعتقلت العديد من الأفراد عشوائيا، ونفت البعض منهم إلى جزيرة كورسيكا والبعض الآخر إلى المغرب الأقصى مع عائلتهم أو إلى الشرق الجزائري.

قام الجنرال دليني بتنصيب قوته بالبيض لتشديد الحصار على الثورة. ومراقبة تحركاتها عن طريق عيونه، ثم كانت معركة غارة سيدي الشيخ يوم 4 فيفري 1865م[1] جرح على إثرها سي محمد بن حمزة ثم توفي بعد ذلك متأثرا بجروحه يوم 22 فيفري بعد ثمانية عشر يوما من المعركة. وقد خلف الشهيد سي محمد في قيادة الثورة شقيقه سي أحمد ولد حمزة وعمره [illegible] عشر سنة، ونظرا لصغر سنه فقد تزعم سي لعلا مع أخيه سي [illegible] الثورة في هذه المرحلة بعد أن تلقى [illegible] لترتيب شؤون الثورة.

لهذا كانت سنة 1865م سنة التحضير والاستعداد للمعارك القادمة وضم صفوف القبائل والتحامهم بالثورة خاصة أولاد زياد والرزانية ورحمان وأولاد شايب وبقيادة نعيمي ولد جديد وأولاد نائل والأحرار وعكرمة (طراقي) والرزيقات، كذلك أولاد مومن وقراريج من الأغواط الأكسل، ثم عائلات من ستيتن مع قائدهم أحمد أبوبكر وعائلات أو عقيل مع القايد يحي بن زيدان. وكل هؤلاء من الأخوان والمريدين لزاوية سيد الشيخ.

(1) Ibid, p. 93.
(2) Ibid, p. 97.

شاهدت سنة 1866م عدة معارك طاحنة ضد القوات الفرنسية. برز خلالها العقيد «دي كلومب» [de Colomb] الذي أحرز على عدة انتصارات نظرا لخبرته القتالية ومعرفته بالمناطق الصحراوية.

وأهم هذه المعارك، معركة الشلالة في أفريل 1866م. التي تغلب فيها دي كلومب على المجاهدين نظرا لاختلال التوازن بين القوتين في العدة والعدد.

وقد دون العقيد دي كلومب هذه المعارك في مدونة، مخطوطة باليد. عثرت عليها بمركز الأرشيف الوطني الفرنسي بآكس ـــ آن ـــ بروفانس في ثلاثة وأربعين صفحة[1]، وتعد من المصادر الأساسية في كتابة تاريخ هذه المرحلة، رغم أنها تعكس وجهة نظر العدو.

على اثر معركة الشلالة تشتت رجال الثورة، وتوزع معظمهم عبر التراب الوطني، واختبأ القادة في مخابئهم، وبذلك عرف الجنوب الغربي الجزائري بعض الهدوء، أدخلت الثورة في مرحلة جديدة من مسيرتها.

المرحلة الثانية 1867م ـــ 1881م:

لم تثن الهزائم الأخيرة من عزائم أولاد سيدي الشيخ على مواصلة الثورة، ولم تتحطم معنوياتهم بل ما زالت آمالهم قائمة في نيل النصر. فقد اعتصم الثوار بالجنوب والحدود الجزائرية الغربية لمعاودة القتال عن طريق الكر والفر، واستعمال أسلوب حرب العصابات للتغلب على القوات الضخمة للعدو.

---

[1] A.O.M., 22H9, DE COLOMB. Note sur les Ouled-Sidi Cheikh, et sur le cercle de Gery ville-(Mannuscrit).

ومن المعروف تاريخيا أن الفترة الممتدة من 1867م إلى 1869م تقريبا كانت فترة حرجة بالنسبة للجزائر كلها. حيث عرفت البلاد أزمة اقتصادية خانقة(1) كما اجتاحتها كوارث طبيعية عديدة كالقحط والجفاف وانتشار الأمراض والأوبئة مثل الكوليرا والطاعون، إضافة إلى زحف الجراد الذي أتى على الأخضر واليابس، مما ترتب عنه حدوث المجاعات الخطيرة بين عامي 1867م-1868م أهلكت العديد من الأهالي، قدر بأكثر من مليون هالك(2).

رغم هذه الكوارث، فان الثورة لم تقلل من نشاطها حيث واصلت الهجومات على المراكز الفرنسية انطلاقا من الحدود، والجدير بالذكر هنا هو أن الفرع الغربي لأولاد سيدي الشيخ قد آزر أبناء عمومتهم في هذه المرحلة، فانضم سي الطيب بن الشيخ زعيم الغرابة الى الثورة وساندها مساندة فعالة، خلافا للزعماء الآخرين الذين كانت مواقفهم متذبذبة. تارة مع اخوانهم ومؤازرة الثورة وطورا مع الفرنسيين للحصول على مناصب وامتيازات أو من أجل تصفية حسابات شخصية وأهم هذه الشخصيات هي:

— سي الشيخ بن الطيب، زعيم الغرابة، توفي عام 1870م.

— سي سليمان بن قدور، وهو أخ سي الشيخ بن الطيب، دخل في منافسة شديدة مع أبناء عمومته الشراقة.

— سي معمر بن سي الشيخ بن طيب، قتل عام 1874م(3) إثر معركة ضد القوات الفرنسية وأعوانهم في نفيش جنوب جبال المالحة على الحدود من الشط الشرقي.

---

(1) André MOUSCHI, «La crise économique de 1866 à 1869 dans le constantinois, Aspect démographiques» in *HESPERIS*, (1959), Paris, pp. 105-123.
(2) D. SARI, *Le désatre démographique* Alger, 1982.
(3) L. VOINOT, «La situation sur la frontière Algéro-Marocaine du telle lors de l'Insurrection des Oulades Sidi-cheikh dans le sud Oranais» (1864-1870) in *R.A.* n°60 (1919), pp. 401-402.

إذن انضم سي سليمان بن قدور إلى الثورة عام 1867م وأبلا البلاء الحسن، لكنه لم يلبث أن غير من موقفه وانقلب على عاقبته وفاجأ الجميع واستسلم للفرنسيين عام 1868م. فكَافَأَتْه بمنصب آغا على البيض، ثم كلفته بضرب القبائل الموالية للثورة في مناطق النعامة والشلالة بوسمغون وعسلة وتيوت وصفيصفة وغيرها.

وخلال شهر أكتوبر 1868م شاع نبأ وفاة سي أحمد ولد حمزة بتافيلالت اثر اصابته بمرض الكوليرا عن عمر يناهز السبعة عشرة عاما(1) وتذكر بعض المصادر الأخرى أنه مات مسموما، وقد خلف وراءه ابنين صغيرين كفلهما سي قدور ولد حمزة(*) الذي خلفه على رأس الثورة.

تمكن سي قدور ولد حمزة من أن يوحد صفوف أولاد سيدي الشيخ وينظم الثورة ويقودها بمواصلة مسيرة الجهاد وضرب العملاء والهجوم على الحاميات الفرنسية.

ففي فيفري 1869م جرت معركة ضارية بأم الدبداب بين القوات الفرنسية المدعمة بالعميل سي سليمان وقوات الثورة انتصرت فيها قوات العدو. لأنها أكثر تنظيما وأكبر عددا، أما سبب هزيمة المجاهدين فترجع الى سوء التفاهم بين الأشقاء الشراقة والغرابة، وانفصال وانسحاب أولاد سيدي الشيخ الغرابة عن الثورة والرجوع إلى المغرب، كذلك وصول أسرار الثورة إلى العدو فتمكن من معرفة تحركاتها وخططها فسهلت عليه عملية المواجهة.

---

(1) TRUMELET, Notes pour servir l'Hstoire de l'Insurrection dans les sud de la province d'Alger de 1869. in *R.A.* n° 26 (882), p. 357.

(*) سي قدور، ابن الخليفة سي حمزة من أم زنجية تدعى مباركة بنت يعيش، وقد عارض بعض أبناء عمومته في أن يتولى قيادة الثورة، بحجة أنه لا يمكن أن يرث «البركة» ولا يستحق أن يكون زعيمهم الروحي لأن هذا من حق سي حمزة ولد بوبكر، الذي ولد عام 1859م غير أن سي قدور استطاع أن يقف في وجههم وأن يفرض نفسه عليهم بمساعدة سي لعلا وسي الزبير.

ورغم هذه الانتصارات فإن السلطات الفرنسية ما فتئت تدعم قواتها لمواجهة الثورة. فأرسلت عدة بعثات منها بعثة «وانمبفين» [WIMPFEN] التي تمكنت يوم 19 مارس من ضرب قبيلة حميان ضربات موجعة انتقاما منها لما قدمته من مساعدة ودعم للثورة، واستطاعت القوات الفرنسية من الانتصار على قبيلة حميان بفضل المساعدات الجبارة التي قدمها لها الخائن (في ذلك الوقت) سي سليمان بن قدور، هذا كافأته مرة أخرى بإضافة أغوية حميان لسلطته، فأصبح يلقب بآغا أبيض وحميان.

وبحلول سنة 1870م تأثرت الثورة بالأحداث التي حصلت على الساحة الفرنسية بأوروبا، وانهزام فرنسا أمام بروسيا (ألمانيا) وسقوط نابليون الثالث مع الامبراطورية الثانية وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة، كل ذلك كان له تأثيره وصداه في الجزائر، التي تبدل فيها النظام من حكم عسكري إلى حكم مدني في الشمال بينما الجنوب بقي خاضعا للحكم العسكري.

ومن أهم الأحداث التي سجلتها الثورة هي خوضها معركة ماقورة يوم 17 أفريل 1871م ضد بعض القبائل الموالية للاحتلال الفرنسي والمدعمة بالجيوش الفرنسية. فكانت معركة طاحنة أضرت بالمجاهدين كثيرا فقد استشهد فيها أزيد من مائتي شهيد. فأثر ذلك على مسيرة الثورة، حيث لم تستطع حتى مواكبة ثورة سنة 1871م لمحمد المقراني والشيخ الحداد، الصاعدة من شرق البلاد.

وفي 23 ديسمبر لحق الجنرال «عصمان» [OSMONT] بالقائد سي قدور بن حمزة الذي اخترق صفوف القوات الفرنسية بكل شجاعة نحو التل، وقد أصابه في موقعة ميقوب، فرّ على إثرها إلى الجنوب مع عمه سي لعلا(1).

---

(1) GAFFAREL. *Op. cit,* p.263.

تعتبر هذه المعركة بمثابة الضربة القاضية هذه المرحلة من الثورة، فهي آخر المعارك المنظمة للثورة لفرع أولاد سيدي الشيخ الشراقة ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ومن أهم الوقائع التي سجلت في هذه الفترة هي غياب سي سليمان بن قدور عن الساحة بسبب خلافات حادة بينه وبين السلطات الفرنسية حول تسديد بعض المبالغ المالية، فأقالوه من منصبه في نهاية 1871م واعتقل بناحية عين تموشنت، ثم لاذ بالفرار مع عائلته إلى المغرب الأقصى يوم 12 أفريل 1873[1]. واختفى هناك ولم يظهر حتى قيام الثورة الثانية لأولاد سيدي الشيخ.

فبعد بعض المحاولات الفاشلة لزعيم الثورة سي قدور، من أجل تنشيط الثورة، انطلاقا من قصر كرزاز، قرر الاستقرار مع الأسرة الثورية بالمغرب الأقصى، ولم يعد يظهر على مسرح الأحداث إلا في الثورة الثانية، وبهذا انتهت المرحلة الثانية للثورة، بل توقفت الثورة الأولى لتندفع الثورة الثانية بقيادة الشيخ بوعمامة.

بعض نتائج الثورة:

ترتب عن هذه الثورة عدة نتائج وحقائق يمكن اثباتها في النقاط التالية:

1 ـــ تبرهن هذه الثورة، كغيرها من الثورات التي عرفتها الجزائر، عن رفض الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي، ومقاومته بكل ما يملك من قوة، حتى يخلص البلاد والعباد من هيمنته.

---

(1) A.O.M, 22H9 Rapport du Monsieur le prefet d'Oran, jules Machias, sur la fuite de si Slimane Ould Kaddour, Oran, le 16 Avril 1873, n°588.

2 ــ تعرضت الثورة في مسيرتها إلى عدة مشاكل وصعوبات. منها كثرة الخلافات بين قادة الثورة، مما جعلها ضعيفة وفاترة في بعض الأحيان، وقد استغلت السلطات الاستعمارية هذا الخلاف كالعادة لزرع سياسة «فرق تسد» لتتسرب داخل صفوف الثورة لمعرفة خططها وقوتها، وتتمكن بعد ذلك من مواجهتها.

3 ــ واكبت هذه الثورة عدة ثورات جزائرية، منها ثورة **1871** بزعامة المقراني والحداد في شرق البلاد، وثورة الشريف بوشوشة في الصحراء.. غير أن الجهود لم تتضافر لتتوحد في ثورة واحدة ما دام هدفها واحد، والعدو واحد، والوطن واحد.

4 ــ إذا كانت هذه الثورة لم تحقق أهدافها، فإنها قد كتبت صفحة خالدة في تاريخ المقاومة الوطنية، لأنها حلقة مضيئة من سلسلة بطولات الشعب الجزائري.. وقد وضعت لبنات أساسية في صرح تشييد سيادة البلاد، لهذا يجب إقرار الحقيقة التالية وهي فإن كانت لم تربح المعركة فإنها قد ربحت الحرب، لأنه في الأخير قد تحقق للوطن ما كانت تصبو إليه هذه الثورة وهو الحرية والاستقلال والحمد لله.

ثورة الشيخ بوعمامة(*)

تقديم:

ما كادت جذوة ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة تخبو، حتى ظهرت ثورة أخرى أكثر مراسا وأشد عنفا وهي المتمثلة في ثورة أولاد سيدي الشيخ الثانية أو ثورة الشيخ بوعمامة.

فبعد آخر المعارك التي خاضها فرع الشراقة ضد الاحتلال والتواجد الفرنسي، تشتت العائلة وهاجر أغلب أفرادها إلى المغرب الأقصى وانتقل البعض الآخر إلى الجنوب ضواحي القليعة (المنيعة).

لكن ذلك لم يُشكل فراغا سياسيا بالمنطقة، إذ سرعان ما ظهر على مسرح الأحداث الفرع الغربي لأولاد سيدي الشيخ، فلم تكد تنتهي السنوات الثلاث (1878—1880)، والتي هي الهدوء الذي يسبق العاصفة حتى ظهر زعيم من الفرع الغرابة متحديا أولاد عمومته الشراقة الفارين من جهة وصامدا أمام تسلط وتجبر القوات الفرنسية من جهة أخرى، وهذا الزعيم هو الشيخ بوعمامة.

(*) مجلة حوليات جامعة الجزائر، الجزء 2، عدد ممتاز، رقم 10، أفريل 1997.

ترجمة للشيخ بوعمامة:

هو محمد بن العربي بن الشيخ بن الحرمة بن الشيخ بن محمد بن ابراهيم بن التاج والمشهور بأبي عمامة، وهو سليل عائلة أولاد الحرمة(1) التي تنحدر من أولاد سيدي التاج الابن الثالث عشر للجد الأول سيدي الشيخ، وقد انحاز هذا الفرع في التراب المغربي بمقتضى معاهدة لالة مغنية ليوم 18 مارس 1845. لذلك يطلق عليهم أولاد سيدي الشيخ الغرابة.

ولد بوعمامة حوالي 1838 أو 1840 بفيقيق في قصر الحمام الفوقاني(2) وتجمع الوثائق التاريخية على أنه غادر فيقيق نهائيا عام 1875 ليستقر بمغرار التحتاني الذي أسس به زاوية على غرار زاوية أجداده(3) واتبع حياة الزهد والنسك حيث يقضي معظم أوقاته في التعبد أو تعليم القرآن أو دراسة المسائل الفقهية التي تطرح عليه.

ولهذا النشاط الحثيث والحيوية المتزايدة، حظي الشيخ بوعمامة باحترام وتقدير كبيرين من كل أقاربه وأتباعه واعتبر عندهم بأنه من أولياء الله الصالحين وبذلك أصبح زعيمهم الروحي الذي ورث البركة عن أجداده، فازدادت شهرته ونفوذه في المنطقة، فتكاثر عدد أتباعه ومريديه وإخوانه، مما أثار إنتباه السلطات الفرنسية التي إنزعجت من هذا النشاط المتزايد، وأصبحت تتحدث عنه في تقاريرها، حيث إهتمت بنفوذه ومركزه في أوساط القبائل الجزائرية وخاصة الصحراوية منها، فتكاثر عدد زواره لتقديم الزيارة (الهدايا) منهم قبائل الترافي وحميان وأولاد زياد والأغواط والأحرار وغيرهم، وقد وعدهم بوعمامة بقرب الخلاص من الاحتلال الفرنسي(4) وأنه سيشعل نار الحرب (الثورة) ضده ويخلص البلاد من ظلمه.

---

(1) Augustin Bernard «Bou-Amama». *Question Diplomatique et Coloniale*, 5eme Année, (1901). Tome X, p.622.
(2) Bezy (Le citoyen), *Insurrection du Sud-Oranais*, Oran, 1881, p.10.
(3) E. Graulle, *Insurrection de Bou-Amama*, (Avril 1881), Paris, 1905, p. 7.
(4) A.M.G. H376. Lettre de Monsieur le préfet d'Oran à Monsiur le Gouverneur Général Civil de l'Algérie, Oran, le 9 Avril 1881.

وقد أشيع في الأوساط الشعبية أن بوعمامة ورجاله سوف يطردون الفرنسيين من البلاد قبل حلول فصل الصيف القادم[1] عام 1881م.

أسباب الثورة:

لقد تضافرت عدة أسباب مترابطة وجملة من العوامل المتداخلة، أسرعت بتفجير الثورة، نورد فيما يلي أهمها:

1 ــ لا شك أن في مقدمة الأسباب هو رفض الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي، ومقاومة هذا الدخيل كلما حانت له الفرصة.

2 ــ تشير بعض الدراسات الفرنسية إلى أن أسباب الثورة ترجع بالدرجة الأولى إلى إنتشار المجاعة في أوساط الأهالي، وذلك نظرا للنظام الاستعماري وأسلوبه في الجزائر والذي يقتضي أن يحطم ويخذل الانسان العربي[2] ويحط من قيمته في بلاده. وقد حرمه الاستعمار من جميع وسائل الرزق حتى تسهل عملية اخضاعه للهيمنة الفرنسية وهكذا تم السيطرة على السكان ثم الاحتلال الكامل للبلاد.

3 ــ فشل البعثة الرسمية لدراسة مشروع مد الخط الحديدي عبر الصحراء (Transsaharien) في الجنوب الغربي لاقليم وهران خلال سنة 1879، فقد أجبرت البعثة على العودة على أعقابها بعدما تحرش بها سكان قرية تيوت لذلك عزمت الحكومة الاستعمارية على إقامة مركز عسكري للمراقبة في قصر تيوت[3] الذي هو بجوار المغرار التحتاني مقر زاوية بوعمامة وقد أحدث هذا النبأ قلق متزايد لدى بوعمامة والقبائل الصحراوية

---

(1) A..M.G, H376, Lettre du Gouverneur Général Civil de l'Algérie, à Monsieur le Ministre de la guerre de Paris, Alger le 5 Avril 1881.
(2) Guy de Maupassant, *Au Soleil* Paris, 1902, pp. 35-36.
(3) Graulle. *Op.cit,* p.9.

التي ترفض السيطرة الفرنسية عليها، فأشعلت نار الثورة في وجه المحتل لتدافع عن مجال نفوذها بقيادة أولاد سيدي الشيخ وخاصة الفرع الأصغر الذي أصر بأن يلعب دور الزعامة بقيادة بوعمامة في هذه المرحلة من المقاومة.

كما أن فشل بعثة العقيد فلاترس (FLATTERS) لنفس الغرض في الصحراء الشرقية الجزائرية، وإبادة أفرادها، خاصة الفرنسيين منها. من طرف قبائل الطوارق، قد أثار غيض الاستعماريين الفرنسيين بالجزائر، وأرادوا الانتقام من الشعب الجزائري، فاغتنموا فرصة أشتعال ثورة بوعمامة لتنفيذ أغراضهم.

4 ـــ استياء وتذمر القبائل الصحراوية، وضيم قبائل جبال القصور، خاصة قبائل، أفلوا والبيض التي منعت من التنقل بمواشيها إلى الجنوب خلال موسم الترحال وذلك في فصلي شتاء (1879ـــ1880) و (1880ـــ1881)، مما أدى إلى موت مواشيهما بأعداد كبيرة من شدة البرودة السائدة بتلك المنطقة حيث بلغت نسبة الخسائر التي لحقت مواشي دائرة آفلو وحدها، والمقدر بثلاثمائة رأس 80% (37% في سنة 1879ـــ1880، و 43% لسنة 1880ـــ1881)(1) ويرجع السكان هذه الخسائر الى سوء تصرف الادارة الاستعمارية التي يجب تخليص البلاد والعباد من شرها ورأت في تباشير الثورة، وفي أخبار الجهاد ضد الفرنسيين أملا في الخلاص من القيود المفروضة عليها.

5 ـــ بالاضافة الى الأسباب الداخلية، هناك أسباب خارجية أذكت شعلة الثورة وهي خاصة غزو فرنسا للقطر التونسي الشقيق في مطلع سنة

---

(1) عبدالحميد زوز، **ثورة بوعمامة**، 1881ـــ1908، (جانبها العسكري 1881ـــ1883، الجزائر 1981، ص 47.

1881 والحوادث التي أعقبت هذا الاحتلال والتي كان لها وقع وصدى عند بوعمامة ورفاقه، وخاصة بعد أن تحول جزء كبير من الجيش الفرنسي المرابط في الناحية الوهرانية الى تونس[1] ليساهم في الحملة ضدها.

6 ــ إن الدعوة السنوسية المنتشرة عبر الصحراء، والتي ترمي إلى مقاومة الاحتلال الأوربي للبلاد الاسلامية، قد وصلت الى بوعمامة عن طريق مقدمها في عين صالح الحاج المهدي ولد باجودة، وكان لهذه الدعوة الدور الهام في تشجيع بوعمامة ورجاله على الوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي والتصدي لتوسعاته في المنطقة.

7 ــ كان لدعوة جمال الدين الأفغاني، وحركة السلطان عبدالحميد العثماني، الداعيتين إلى جمع شمل المسلمين في إطار الخلافة الاسلامية تأثير في نفس بوعمامة باعتباره رجل علم ودين متحمس وصاحب زاوية ينشد هو الآخر إصلاح المجتمع الاسلامي إنطلاقا من الجزائر، وهذا الاصلاح يتطلب مقاومة السيطرة الأوربية على البلدان العربية[2].

8 ــ أما السبب المباشر للثورة فيتمثل في مقتل ضابط فرنسي برتبة ملازم أول وهو «وانبيرونر» (WEINBRENNER) نائب رئيس المكتب العربي لمدينة البيض يوم 22 أفريل 1881، مع أربعة صبايحية من حراسه حينما حاول إيقاف نشاط بوعمامة واعتقال مبعوثيه لدى الجرامنة وهما الطيب بن الحرماني ومرزوق السروري[3].

---

(1) Graulle, pp.13-14.

(2) H.M.P. De La Martinière et M. Lacroix, Documents pour servir à l'étude de Nord-Ouest africain, Tome II, Lille 1896, p. 772.

يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع العشر والعشرين، قسنطينة، دار البعث، 1980، ص 248.

(3) P.Wachi, «Notes, itinéraires et souvenirs, pour service à l'histoire de la province d'Oran, L'INSURRECTION de BOUAMAMA, (1881-18812), *R.T.* 1904, pp. 336-337.

مراحل الثورة:

بعد أن تضافرت تلك الأسباب وغيرها اندلعت الثورة، فقد أجبر الشيخ بوعمامة على إشعال فتيل الثورة، حتى وأن كان ذلك قبل موسم الحصاد لأن الأهالي قد نفذ صبرهم، حيث إلتزموا بتعليمات الشيخ التي أبلغهم بها منذ بداية شهر أفريل والمتمثلة أساسا في جمع السلاح والذخيرة والمؤن، لأن ساعة الخلاص قد إقتربت.

وقد حذر العميل الخائن أحمد ولد القاضي باش آغا بفرندة السلطات الفرنسية بتحركات بوعمامة منذ 15 أفريل 1881، حيث قدم إلى القائد العسكري للناحية تقاريره التي تحتوي على أخبار بوعمامة التي جمعها من قبل عيونه المنتشرة حول زاويته.

ورغم ذلك فإن الحاكم العام للجزائر الجنرال آلبير قريفي (A.GREVY) لم يأمر بإيقاف الشيخ بوعمامة لأنه قد صرح من قبل بأن عهد الثورات قد ولي في الجزائر،[1] وقد اطمأنت السلطات الفرنسية[2] من جانب ترحكات بوعمامة، ولكنه فاجأهم بإندلاع الثورة، والتي مرت بمرحلتين أساسيتين وهما:

أ ـ المرحلة الأولى 1881 ـ 1883:

استنفر الشيخ بوعمامة جمع القبائل الصحراوية بعد أن أرسل إليهم المبعوثين يحملون لهم النفير ويدعوهم للتعبئة ورص الامكانيات، كجمع المؤن وتهيئة السلاح والذخيرة وذلك عن طريق مقاديم الطريقة المنتشرين

(1) GRAULLE, p. 14.
(2) A.M.G. H376, Rapport du Gouvernement Général Civil de l'Algérie à Monsieur le Ministue de la guerre, n: 31. Alger, le 15 Mars 1881 au sujet des garisons à placer dans les divers postes qui vont être crées dans le sud d'Algérie.

عبر كل من قبائل ترافي ورزاينة والأحرار وفرندة وتيارت(1) وقد وجدت هذه الدعوة صداها لدى قبائل عمور وحميان والشعانبة، فضلا عن وعد أولاد سيدي الشيخ الغرابة بإرسال المدد والدعم أثناء قيام الثورة.

واستطاع الشيخ بوعمامة في وقت قصير أن يجمع حوالي ألفين وثلاثمائة (2300) جندي بين فرسان ومشاة(2) موزعين كما يلي:

1 ــ قبائل طرافي	700 بين فارس ومشاة.
2 ــ أولاد زياد	180 بين فارس ومشاة.
3 ــ الحرار	160 بين فارس ومشاة.
4 ــ أولاد سيدي الشيخ (الغرابة)	250 بين فارس ومشاة.
5 ــ مغرار	100 بين فارس ومشاة.
6 ــ أولاد عمور	170 بين فارس ومشاة.
7 ــ أولاد سيدي التاج	50 بين فارس ومشاة
8 ــ سكان القصور الجنوبية	500 من المشاة.
9 ــ من قبائل أخرى	190 بين فارس ومشاة(3).

اغتنم الشيخ بوعمامة فرصة غياب الجيش الفرنسي المرابط بالمنطقة الوهرانية، للمشاركة في الحملة عبر القطر التونسي الشقيق (أفريل 1881). فأعلن الجهاد المقدس، وحث بعض القبائل على الجهاد والانفصال عن السلطات الفرنسية، وتم أول لقاء بين المجاهدين والقوات الاستعمارية يوم 27 أفريل 1881 بموقعة سفيسيفة جنوب عين الصفراء أسفرت المعركة على إنهزام الجيش الفرنسي المدعم «بالقوم» وترك على الميدان خمسة قتلى ومنهم على الخصوص قائد المعاليف، وكذلك أخ القائد الساسي قائد الرزاينة(4).

(1) BEZY, *Op-cit*, p.18.

(2) Ibid. p.21.

(3) زوزو، المرجع السابق، ص: 13.

(4) Graulle, *Op.cit*, pp.35-41.

أسرعت السلطات العسكرية الفرنسية بتنظيم صفوفها وأرصدت طابورا في منطقة طفاروا ليواجه زحف الثورة خلال الأيام الأخيرة من شهر أفريل، ويضم هذا الطابور القوات المسلحة التالية:

1 ــ ثلاثة فيالق من المشاة (الأول من الفرقة الثانية من الزواف والثاني من النيف الأجنبي والثالث من القسم الثاني رماة) تحت قيادة العقيد سوينة (SWiNEY) من الفرقة الثانية زواف.

2 ــ أربع سرايا من الفرقة الرابعة لقناصة إفريقيا تحت قيادة العقيد اينوسنتي (INNOCENTI) قائد هذا الفوج.

3 ــ فرقة مدفعية.

4 ــ فرق الخدمات المختلفة المساعدة.

5 ــ الفرق الثلاث من «قوم» سعيدة وفرندة وتيارت.

(1200 حصان) يقود الفرقتين الأوليتين الآغا قدور ولد عدة ويقود فرقة تيارت الآغا الحاج قدور صحراوي.

وأخيرا قافلة من ألفين وخمسمائة جمل يقودها ستمائة جزائري، وأخذ قيادة هذه الفرق الجنرال كولينيو دانسي (Collignon d'Ancy) قائد الشعبة العسكرية لمعسكر. إلا أنه لم يحتفظ بالقيادة إلا أيام قليلة نظرا لتدهور صحته ودخوله مستشفى البيض يوم 9 ماي 1881 فعوضه العقيد أينوسنتي.

واصل الطابور سيره يوم 14 ماي متوجها نحو إقليم مغرار، مركز تجمع الثوار، فوقع الاحتدام الحاسم بين المجاهدين والقوات الفرنسية يوم 19 ماي 1881 في معركة طاحنة بموقعة المويلك وهو ميدان فسيح يقدر عرضه بثلاثة كليومترات متكون من تلين متوازيين تقريبا[1]، وهو يقع قرب قصور الشلالة بجبال قصور[2].

(1) Ibid, pp. 42-43.
(2) Djillali SARI, *L'INSURRECTION DE 1881-1882*, ALGER, 1981, p.98.

كانت معركة عنيفة إلتحمت فيها الصفوف واشتد القتال بين الطرفين فتعالت أصوات الجيش الاسلامي بالتهليل والتكبير ساهمت في زعزعة مقدمة العدو، وتخلخل مركزهم على الميدان وتسرب إلى قلوبهم الرعب، فاستغل الثوار هذا التفكك في تنظيمهم العسكري، وتحدو المدفعية بإقدام وشجاعة كبيرتين، وشل فاعليتها، فدبت الفوضى والذعر في صفوف الجيش الفرنسي فارتد على أعقابه منهزما، وبذلك تمكن الثوار من إفتكاك النصر رغم تفوق العدو عددا وعدة[1].

وقد تضاربت التقارير العسكرية حول نتائج هذه المعركة وخسائر الفريقين، فمنها ما تقول أن الثوار قد تركوا أكثر من ثلاثمائة قتيل في الميدان[2] في حين تقول مصادر أخرى أن الخسائر الفرنسية قدرت بستين قتيل (60) واثنين وعشرين جريحا، مقابل مئتي شهيد[3] وقد قدرها العقيد اينوسنتي في تقريره إلى وزير الحربية الفرنسي بسبعة وثلاثين (37) قتيلا وستة عشر جريحا من بينهم ضابط وأربع مفقودين من الجانب الفرنسي، في حين قدر عدد ضحايا الشيخ بوعمامة بما يقارب ثلاثمائة قتيل.

أما الجريدة الرسمية «المبشر» الصادرة بالفرنسية، فقد علقت على هذه المعركة، وإعتبرتها إنتصارا للاحتلال الفرنسي ولكنها كلفتها سبعة وثلاثين قتيلا وستة عشر جريحا، منهم الضابط لانييري (LANEYRIE)[4].

وبعد هذه المعركة عملت السلطة الفرنسية على التقليل من شأن بوعمامة واتباعه، وكلفت قاضي البيض بإصدار فتوى تعتبر فيها الثوار

---

(1) Graulle, *Op.cit*, p.74.
(2) A.M.G., H376, Ordre Général du 24 Mai 1881.
(3) Graulle, Op-Cit, p. 48, cf, SARL, *Op.cit*, p.99.
(4) Journal Le MOBACHER, Samedi 21 Mai 1881 n°2224.

مجرد خارجين عن القانون. وقد رد عليه الشاعر الشعبي محمد بلخير فيما بعد بقصيدة طويلة، نورد منها بعض الأبيات(1):

مقراني تبكي الأجراح مهولين   في فرقت وطني وعز الأوطان
راتا ضروك راس النجوع متزهين   ما قعدوا في الذل إلا أصحاب بوران
الي يبغي الجنة يضاد الكافرين   والي ابغى الفناء أبغى اقران
قولوا لعطاء الله واش كتفت يا حزين   ولاه تشمت في الي مالداهم قران
لعست بيك الدنيا أيامها فايتين   ما خير الثناء والا أكلاب رحمان

ويقول أيضا:

أحنا مجاهدين ما هو قول ضعيف   تبعنا ما قال ربي في القرآن
وأحنا فزنا على العرب جيد وأشريف   وافرح بنا الهاشمي شارع الأديان
مات منا أحداش فرانسين الخيف   متين ونصف بين كفرة وامزان
واحنا بنا الناس تهترف اتهريف   واشوايعنا من الدزاير لسلسودان

ثم يختم قصيدته بالأبيات التالية:

الي ما نافع النبي ما عنده نيف   محمد صاحب الشفاعة والغفران
من علم الأعباد بأيام التعريف   فرض الصلاة والزكاة وشهر رمضان
والطامع فيك يا الله ما هوش الشخيف   كذا من حد تنصره يصبح سلطان
رجال الله من توات إلى سطيف   رضوا عن الشيخ سقام الفرسان

وهكذا أوضح الشاعر في هذه القصيدة أن المجاهدين أفضل وأشرف من الذين انضموا إلى الجيش الفرنسي وحاربوا بجانب الضابط بوران خلال ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864، كما عاتب الشاعر محمد بلخير قاضي البيض عطاء الله على ما صدر منه للحط من مكانة الشيخ بوعمامة واتباعه، رغم أن الله سبحانه وتعالى والرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مع المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله لرفع راية الاسلام وتحرير الوطن لذلك قد بارك جهادهم وأصبح سلاحهم أقوى وأنجح من سلاح العدو، فكتب

---

(1) Boualem BESSAIH, *Etendard Interdit*. Paris, 1976. pp.135-138

ضم النصر واستشهد إلا احدى عشر فارسا، بينما العدو قتل منه أكثر من مائتي كافر وخائن وهذا بفضل الله ورضوانه عن الشيخ وبركة رجال الله من توات إلى سطيف.

ويظهر من هذه القصيدة أيضا أن معنويات المجاهدين مرتفعة، وأنهم قد انتصروا في معاركهم ضد الكفار، بينما اعتبرت فرنسا معركة «المويلك» هزيمة لبوعمامة وانتصار للجيش الفرنسي الذي انتقم لاغتيال الملازم «وانبرونر» من جهة ودعم نفوذه في الجنوب الوهراني من جهة أخرى.

وتوصلت القوات الفرنسية إلى هذه النتائج حسب زعمها إلى الدور البارز الذي قام به الجنرال سيري (CEREZ)(*) قائد الناحية الوهرانية حيث نظم أربع طوابير للحفاظ على المناطق التلية من الناحية الوهرانية ودفع بطابور سعيدة داخل الآهالي المتمردين، كما أشادت السلطات الفرنسية أيضا بدور العقيد اينوسنتي وجنوده الذين تلقوا التهنئة والتنويه من قبل وزير الحربية ورئيس الجمهورية(1).

(*) هو جون، باتيست سيري، ولد عام 23 سبتمبر 1820 بمدينة نجوج، إلتحق بالمدرسة متعددة التقنيات سنة 1840، وتخرج رقيب في المدفعية سنة 1842 وبعد سنتين رقي إلى رقيب أول في صفوف اللفيف الأجنبي ومنذ 20 جانفي 1850 إنضم إلى مصالح المكاتب العربية. ثم عين في مرتبة نقيب يوم 30 سبتمبر 1853 وكرس جهوده في خدمة المصالح الأهلية بالقطاع الوهراني أكثر من عشر سنوات وتنقل من بلعباس إلى تيارت ومستغانم، قائد دائرة الأغواط برتبة عقيد يوم 20 ديسمبر 1869، ثم قائد الفرقة العسكرية الوهرانية بالنيابة من 1 ديسمبر 1870 إلى 11 جوان 1871 ثم تولى قيادة الشعبة العسكرية لمعسكر من 14 أكتوبر 1871 إلى 9 جويلية 1878. وأخيرا قائد الفرقة العسكرية بوهران من 10 جويلية 1878 إلى 4 جويلية 1881 وانتهى نشاطه بالجزائر وتحول إلى فرنسا كقائد الفرق العسكرية بمونبليه. أنظر:

Le Commandant R. PEYRONNET. *Livre d'or des officiers indigènes* 1830-1930. Tome II, Alger, 1930. pp. 296-296.

(1) A.M.G. H376, Ordre Général du 24 Mai 1881.

ولكن الأحداث التي سجلت بعد هذه المعركة تبين عكس ما جاء في التقارير العسكرية الفرنسية، ذلك أن هذه الموقعة تعتبر انتصارا لبوعمامة ورجاله بدليل أن الجيش الفرنسي أصبح يتخوف من مواجهة بوعمامة ويتفاداه كلما أمكن ذلك وأن العقيد اينوسنتي قد أرغم بعد المعركة إلى التوجه نحو الشمال أي إلى خيضر هروبا من بوعمامة، ويظهر أن عزله ــ فيما بعد ــ كان بسبب هزيمته أمام بوعمامة.

ظل بوعمامة طيلة هذه المدة سيد الموقف وقد توجه إلى الأبيض سيدُ الشيخ للاستعداد والتهيئة للمسيرة الطويلة التي حيرت الجيش الفرنسي وجعلته يتيه في تلك الفيافي بدون دليل. وقد نسج حول هذه المسيرة الكثير من الأساطير والغيبيات، مثل أن «بركة» سيدي الشيخ بوعمامة جعلته يسبق القوات الفرنسية، ويمر بجانبها أحيانا ولم تره، ودامت هذه المسيرة حوالي ثلاثة وعشرين يوما من 30 ماي إلى 21 جوان 1881. وكانت هذه المسيرة نحو الشمال مرورا بالبيض وستيتن ثم سيدي عبدالرحمان وعيون البرانس ليعود ثانية إلى بوسمغون في الجنوب قاطعا الخط الرابط بين بوقطوب المشرية عين الصفراء، وقطع خلالها ما يقارب السبعمائة وثلاثين كيلومتر، حيث برهن بوعمامة مرة أخرى عن تفوقه على الطوابير التي ترصدته من أجل القضاء عليه وعرقلة مسيرته ولكنها لم تستطع ايقافه أو مواجهته وهذا خلافا لما روجته الأوساط الاستعمارية بأنها لم تره، وهذا غير معقول إذ كيف يمكن لجيش جرار يمر بجانب العدو بدون أن يراه أو يسمع ضجيجه؟؟!

قام الثوار خلال هذه المسيرة بقطع خطوط التلغراف الرابط ما بين فرندة والبيض[1]. ومهاجمة مراكز الشركة الفرنسية ــ الجزائرية للحلفاء،

---

(1) **BEZY**, *Op.cit*, p.52.

وقتل العديد من العمال الاسبان الذين يشتغلون بهذه الشركة، كما أحرقوا وأتلفوا الكثير من العتاد(1) وذلك من أجل تقويض أركان الاستعمار واستغلاله لخيرات البلاد بكل نهم،، كما استولو أيضا على قطعان كثيرة لبعض القبائل الموالية للفرنسيين، ولذلك اتخذت السلطات العليا الفرنسية، إجراءات حازمة وسريعة من أجل حماية المناطق التالية من الثوار الزاحفين نحو الشمال، فركزت أربعة طوابير قوية في النقاط التالية:

— رأس الماء (العقيد جانين «JANIN»).
— خضير (العقيد زويناي «ZWINEY»).
— تيارات (العقيد بروتير «BRUNETIERE»).
— البيض (النقيب تاديو «TADIEU») في انتظار وصول العقيد دي نيقريه «DE NEGRIER»)(2).

فرصدت فرقة العقيد بروتير لحراسة عين مدرسية، كما غادر الجنرال ديتري (DETRIE) يوم 4 جوان 1881 خضير مع فرقة اينوسنتي سابقا بعد تنظيمها من جديد لتصل يوم 7 إلى خضراء ويوم 9 إلى الترف وهو يلاحق بوعمامة ولم يتمكن في هذا التاريخ من الوصول إليه، وقد كلف العقيد ملاريه (MALARET) بحراسة ممر خضير، أما طابور جانين فمهمته المحافظة على المنطقة الممتدة ما بين بوقرين والعريشة(3).

والجدير بالذكر أن إنتصارات بوعمامة، جعلت عدة قبائل من المنطقة تنضم إليه الواحدة تلوى الأخرى منها قبائل الأغواط الأكسل(*) والتي

---

(1) A.O.M. F1683 b, Etat des dommages causés à la compagnie Franco-Algérinne par l'insurrection qui a éclaté sur les hauts plateaux de la province d'Oran en Avril 1881.
(2) Graulle, *Op.cit.* p.9؛.
(3) BEZY, *Op.cit*, p.53.
(*) قبائل الأغواط الأكسل: أخذ هذا الاسم من منطقة الجبلية ومنه جبل الأكسل جبال عمور، شمال غرب مدينة الأغواط،وهم بدو من خمسة أقسام، هم الزريقات — أولاد مومن — فرارجة — أولاد عيسى — وأولاد عمران، وبذلك يمكن أن نميزهم عن قبائل الأغواط الأرباع المرتبطين بالأغواط المعلوم.

وضعتها فرنسا تحت قيادة الدين العموري آغا آفلو فثارت وحاولت الانضمام إلى الثورة لتشارك في هجوم فرندة مع بوعمامة، لكنها تعرضت لهجوم من طرف قوم أحرار تيارت بقيادة الآغا الحاج قدور الصحراوي يوم 14 جوان 1881 بواد خروف، فاضطرت الى الرجوع على أعقابها فتعرضت مرة أخرى يوم 16 جوان إلى هجوم قبائل أرباع الأغواط تحت قيادة سي باحوس بن قدور، المدعم من طرف الرائد (BELIN) مع أربع فرق خيالية فكانت معركة ضارية خسر فيها الأغواط الأكسال مائة وخمسة (105) قتيلا، واشتهرت هذه الواقعة الشنعاء بين الأشقاء بموقعه «قارة الغشوي» والتي تقع على بعد عشرين كيلو متر شمال شرق استيتن.

هذا وقد دون الشاعر محمد بلخير وقائع هذه المعركة في قصيدة من الشعر الملحون (الشعبي) منها:

دبـر علي يـا صاحب التـدبير درني في القسمة الوافية عـودي
يوم في قارة الغشوى نهار كبير عادم باجراح بالجنى يردي[1].

هكذا إلتجأت السلطات الفرنسية الى استعمال جميع الوسائل لتحطيم الثورة كتحريض القبائل والأعراش فيما بينها، كما سارعت بإرجاع جزء من قوتها التي إشتركت في إحتلال تونس.

واضطرت أيضا الى التعجيل بإكمال الخط الحديدي بين آرزيو — سعيدة لنقل المؤن لسعيدة ورغم هذه التحركات والاستعدادات فإن الشيخ بوعمامة بقي سيد الموقف طيلة فصل الصيف الحار جدا، وإكتفى الفرنسيون بالدفاع فقط.

---

[1] Aissa MILAD. «Etude détaillée d'un poème de Mohamed Belkheir». *S.G.A. d'Oran*, Bulletin spécial sur le centenaire de Bou Amama, (1981-1982), pp. 21-37.

ولمواجهة انتصارات بوعمامة المتتالية، قامت السلطنة الفرنسية بتحركات سريعة تمثلت في إرسال قوات نحو الجنوب الغرب من أجل تطويق الثورة والقضاء عنيا بالتالي التوسع في المنطقة وبسط نفوذها على كل قصور الجنوب الغربي الجزائري.

ورمز لهذه القوات بالحروف أ، ب، ج، وهي:
القوة الأولى (أ) كانت تحت قيادة الضابط لويس (LOUIS) حاكم تلمسان مشكلة من:

1 ــ بطرية من المدفعية من ست قطع.
2 ــ ثلاثة سرايا من الفرسان.
3 ــ فرقة من «القوم» مكونة من 300 فارس من قطاع تلمسان.
4 ــ ثلاث مجموعات من المشاة تابعة للزواف.
5 ــ ثلاثة آلاف جمل محملة بالمؤن والذخيرة.

أما القوة الثانية (ب) كانت تحت قيادة الجنرال كلونيو (COLONIEU) مكونة من:

1 ــ بطرية من أربع قطع.
2 ــ أربع فرق من الفرسان.
3 ــ فرقة من القوم «مكونة من أربعمائة (400) فارس من قطاع معسكر.
4 ــ مجموعتان من المشاة.
5 ــ مئتان وخمسون (250) جمل محمل بالذخيرة والمؤن.

القوة الثالثة والتي رمز لها بالحرف (ج) تحت قيادة العقيد دي نيقرييه.

ومكونة من:

1 ــ بطرية مكونة من ست قطع.
2 ــ فرقتان من الفرسان.
3 ــ فرقة من «القوم» تعدادها 300 فارس من قطاع البيض.
4 ــ ثلاث مجموعات من المشاة تابعة للفيف الأجنبي.
5 ــ ثلاثمائة (300) جمل محملة بالمؤن والذخيرة[1].

وقد كلف العقيد دي نيقريه بمهمة معاقبة القبائل التي شاركت في الثورة. ونسف زاوية سيدي الشيخ الكبير المتواجدة بقرية الأبيض سيدي الشيخ، وقبل وصوله إلى هذا الهدف كانت قوته قد إقترفت أعمال إجرامية بشعة ضد السكان العزل خاصة أهالي الطرافي بضواحي البيض وأهالي الربوات وذلك يوم 9 أوت، وهاجم أيضا سكان الشلالة الظهرانية وطالب من قائدهم تسليم كل الذين شاركوا في معركة «المويلك» للانتقام منهم ومصادرة أسلحتهم من بنادق ومسدسات وسيوف.

وفي 15 أوت 1881 وصلت القوات الفرنسية تحت قيادة العقيد دي نيقريه إلى قصور الأبيض سيدي الشيخ الأربعة حيث قام بأعمال شنيعة يندى لها جبين الانسانية، فقد وصل به البغض والاستهتار والعجرفة الى تفجير قبة سيدي الشيخ[2] كلية ونبش قبره الذي مر عليه حوالي قرنين ونصف، وكان يهدف من وراء ذلك الاستهزاء من الرموز الروحية التي تدفع وتحث السكان على الثورة والمقاومة والدفاع عن حمى الوطن والدين، وتشتيت وحدة الأهالي الملتفين حول الزاوية التي تمثل النواة الدينية والسياسة لهم.

كذلك الانتقام من ثورة بوعمامة ومناصريه وتخويف الأهالي من مغبة التمرد والانفصال والالتحاق بالثورة.

---

(1) Reviel de Mascara, N:85, 11 Septembre 1881.
(2) GRAULLE, *Op.cit*, p.107.

وعند إنتهائه من تدمير الزاوية قام بحرق القصور الأربعة بما فيها من زرع ونخيل ومنازل ودواب وغير ذلك.

وبعد هذه العمليات الانتقامية قام الضابط دي نيقريه بالالتحاق بالقوة الأولى والثانية بالمكان الذي إتفق عليه وهو منطقة عين الصفراء.

وكانت مهمة هذه القوات مراقبة الخطوط الرابطة بين مناطق الأطلس الصحراوي والقصور الجنوبية الغربية ومحاولة إخضاعها لنفوذ الاحتلال الفرنسي ومنها يحاول أن ينفذ إلى الصحراء على مراحل.

وقد طالب الجنرال «سوسييه»(*) (SAUSSIER) قائد الفيلق التاسع عشر في رسالة وجهها الى وزير الحربية بباريس بتاريخ 18 جويلية 1881م المزيد من المدد والدعم حتى يطمئن السكان لقوة الاحتلال الفرنسي، حيث إقترح الاجراءات التالية:

1 ــ تدعيم حامية البيض بكتيبة وساريتين تحت قيادة العقيد دي نيقريه لمضايقة العدو.

2 ــ السيطرة على مركز المشرية لما يتمتع به من إمكانيات هامة كالماء والخشب (الغابات). بالاضافة إلى المراكز الأمامية بسعيدة وفرندة وعين مدرسية للتموين.

(*) هو جنرال بفرنسا، فيليكس قستاف سوسييه Felix Gustave SAUSSIER ولد سنة 1828 Thime Courot Saint-Syr تخرج من المدرسة العسكرية سانت سير بترويس بقصر تميكورت سنة 1850 فرقة مشاة شارك في جميع الحملات التي قامت بها الأمبراطورية الثانية.

فر من موقعه ماتز Metz سنة 1870 بعد أن قاد فرقة عسكرية لوار Loire قاد حملة تونس، 1881، في سنة 1884، تم تعيينه حاكم بباريس ثم استقال سنة 1886 وبعدها أصبح نائب رئيس مجلس الأعلى للحرب.

GRAND LAROUSSE ENCYCLOPEIQUE Volume 9 Paris 1964.

وهكذا يظهر أن القوات الفرنسية، لم تتمكن من السيطرة على الموقف في هذه المرحلة من الثورة، وبقية تنتظر إنخفاض درجة الحرارة خلال فصلي الخريف والشتاء، لتتمكن من الهجوم واسترداد نفوذها على المنطقة، ذلك أن الجنرال سوسييه قد أرسل إلى الجنرال دليباك [DELEBECQUE] قائد ناحية وهران، رسالة يطلب فيها التعليمات اللازمة للمرحلة القادمة لمواجهة أولاد سيدي الشيخ والمحافظة على المناطق التلية(1).

كما راسل أيضا وزير الحربية بباريس الجنرال فار FARRE بتاريخ 4 سبتمبر 1881 وذلك من أجل الاجابة السريعة على برقيته المؤرخة ب 31 أوت وهذا بعدما أعلمه عن مراسلة الجنرال دليباك ومشاريعه لتونس، كذلك إعلام الوزير بإمكانية مقاطعة الجزائر حول إرسال فرقة عسكرية الى الجنوب، كما لفت إنتباه الوزير في هذه الرسالة حول قضية فيقيق واعتصام الثوار بها ووجوب ملاحقتهم داخل ما يسمى بالتراب المغربي من طرف فرقة دليباك(2).

ففي شهري سبتمبر وأكتوبر تعرض لواء الجنرال «كولونيو» [COLONIEU]، ولواء «لويس» [LOUIS] وغيرهما من القوات الفرنسية الى هجوم الثوار قرب عين الصفراء خلف العديد من القتلى والجرحى من الطرفين.

كما قامت قوة لويس بمهمة تحطيم قصري بوعمامة وهما قصر مغرار الفوقاني ومغرار التحتاني اللذان يبتعدان عن بعضهما بمسافة تقدر بـ 12 كلم. وقد أحرق القصرين كلية ودمر زاوية بوعمامة وقتل الكثير من أهالي القصرين.

---

(1) A.M.G.H 376, Lettre du général Saussier, Commandant, le 19ème corps d'Armée, à Monsieur le Ministre de la guerre, Paris, Oran, le 18 Juillet 1881.
(2) A.M.G. H 376. Lettre du Général SAUSSIER, et le XIX corps, à Monsieur Le Général DELBECQUE, et la division d'Oran le 2 Septembre 1881.

كما قامت الفرق العسكرية الفرنسية تحت قيادة الجنرال دليباك بالهجوم على السكان العزل في منطقة عمور، فقتلت العديد منهم وأحرقت خيامهم وأتلفت ذخائرهم ونهبت مواشيهم، ثم أرغمتهم على النزول من هذه المناطق الحصينة الى سهل الفجة لتبقى تحت مراقبة لواء الجنرال كولونيو بحجة أنها قد طلبت الأمان والخضوع للسلطات الفرنسية(1).

ومن التطورات الهامة التي حصلت خلال هذه الفترة إنضمام سي سليمان بن حمزة رئيس وزعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة الى حركة بوعمامة على رأس ثلاثمائة فارس، واتجه مع رجاله الى جنوب غرب عين الصفراء ثم إلى منطقة البكاكرة الحمانيين ليمارس الضغط والارهاب والعنف على القبائل الموالية للاحتلال الفرنسي.

فأرغمت القوات الفرنسية على حماية مناصريها وإضطرت أن تلاحق سيدي سليمان مع قواته خلال الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر وكل شهر ديسمبر، كما ركزت السلطات الفرنسية قواتها في عين الصفراء، وعين خليل، والعريشة، ورأس الماء ومشرية والبيض، وسبدو، والضاية، وسعيدة، وخيثر، وفرندة، لوضع شبه حاجز لحماية التل الوهراني.

وإزاء هذه الحشود الفرنسية إزداد الضغط على الثورة فإضطر الشيخ بوعمامة إلى الانسحاب متجها الى منطقة فيقيق داخل المغرب الأقصى، فقل نشاطه وتشتت أتباعه وأنصاره(2) فانضم البعض منهم إلى سي قدور بن حمزة رئيس أولاد سيدي الشيخ الشراقة والذي ما زال يقاوم توسع الاحتلال الفرنسي في الجزائر، والبعض الآخر أنضوى تحت قيادة سي سليمان رئيس الغرابة لحمل مشعل الثورة، وجزء ثالث من المجاهدين رابطوا بفيقيق ونواحيها.

(1) A.M.G.H 376.
(2) A.M.G.H 376, Rapport d'ensemble sur les opérations exécutées du 8 au 16 Novembre 1881.

بقيت فرنسا خلال سنة 1882 تلاحق جيوب الثورة، وتعاقب القبائل التي وقفت في وجه توسعها وآزرت الشيخ بوعمامة في الكفاح، كما لاحقت بوعمامة نفسه في فيقيق الذي رد عليهم بهجوم عنيف يوم 16 أفريل 1882 في شط تقري، ضد البعثة الطوبوغرافية لرسم الخرائط العسكرية، التي كانت محاطة بحماية عسكرية ضخمة، ووقعت ملحمة كبيرة سقط على إثرها العديد من القتلى وتكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، ولم يتمكن الجيش الفرنسي من الانسحاب إلا بصعوبة كبيرة.

وقد خلدت السلطات الفرنسية هذه المعركة بنصب تذكاري لضحاياها وخاصة النقيب «باربيه» (BARBIER) والملازم «ماسون» (MASSONE) في سفح جبل عنتر قرب المشرية[1].

كان لهذه الهزيمة وقع كبير في الأوساط الاستعمارية وخاصة العسكرية منها التي منيت بالفشل الذريع أمام صمود ثورة بوعمامة التي أظهرت تفوقها مرة أخرى على القوات الفرنسية.

وبعد ذلك عملت فرنسا على إستمالة أولاد سيدي الشيخ إليها وتفاوضت مع سي قدور بن حمزة عن طريق بوحفص لغواطي وتمّ الاتفاق بين الطرفين في شهر ماي 1883 م، وينص هذا الاتفاق على الأمور التالية:

أولا ــ أن تقوم السلطات الفرنسية بتجديد بناء ضريح سيدي الشيخ الذي نسفه القائد العسكري «دي نيقرييه» في أوت 1881.

ثانيا ــ أن تقدم السلطات الفرنسية تعويضا سنويا بمبلغ ستين ألف فرنك، لسي قدور بن حمزة وأفراد عائلته عما صودر منهم منذ عام 1864.

---

(1) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 253.

ثالثا ــ تعيين سي قدور على رأس قيادة كبيرة بالبيض وتعين عدد من أفراد عائلته في مناصب أخرى تحت إشرافه.

رابعا ــ يقوم سي قدور وأفراد عائلته بإقناع كل أفراد عائلة أولاد سيدي الشيخ الموجودين بالمغرب الأقصى بالعودة إلى الجزائر(1).

وفعلا، فقد تم تطبيق هذا الاتفاق، وأعيد بناء ضريح سيدي الشيخ، ثم رجع سيدي الدين بن حمزة وابن أخيه سي حمزة بن بوبكر ومعهما عائلة أولاد سيدي الشيخ وكثير من قدماء المجاهدين ليستقروا كلهم في التراب الجزائري(2).

وما من شك أن هذا الاجراء كان يهدف إلى عزل الشيخ بوعمامة وإفشال ثورته التي وقفت كحاجز صلب يمنع تسرب الاحتلال الفرنسي إلى الجنوب الجزائري.

ولكن الشاعر محمد بلخير ورفيق الشيخ بوعمامة في الكفاح يبين في قصيدة طويلة تشبث الأهالي ببوعمامة لمواصلة الكفاح، نورد منها بعض المقتطفات:

يا الفارس حشمتك عبد الأخيار
وش حال القرامي رايس القــوم
اليانك من البيض فرحة والأبشار
الشيخ أنبنى وإلا ما زال مهدوم
هدموا قنضاس الضمــة والأوقــار
ولا أبقى حد على السلطان محكوم

---

(1) A.H. NOIL «Documents pour servir à l'histoire des hamyan», *B.S.G. Ar d'Oran*, M 3, 1916, pp. 18-20.

(2) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 255ــ256.

ثم يقول:

كان شيء من الأبطال أولاد بكار
لا أخبر عن السلطان مقسوم
بوعمامة مون صفوة وزبار
وأبناء بين الكتاب نسبي معصوم
بوعمامة يمضي تسبيح الأذكار
وبوعمامة سره للناس مفهوم
أنت مرافقي في صحراء وقفار
وشدة علامت يبهتي به محروم

ثم يختم القصيدة بما يلي:

راه ربي شاهد باني نخشى النار
أو عارف القلب إلي من خوه مهموم
أو الحبيب ألي نك كالجار للجار
أو تفارقني في اليقظة مع النوم(1)

المرحلة الثانية من ثورة بوعمامة (1883ـ1908م):

سادة الثورة خلال هذه المرحلة (ما بين 1883ـ1908) فتور لم تشهده من قبل، فقد إستقر الشيخ بوعمامة بمسقط رأسه الحمام الفوقاني بفقيق التي وصنها في شهر جويلية 1883م(2) ليفكر في إعادة تنظيم ثورته للمرحلة القادمة، لذلك تخوفت السلطات الفرنسية من هذا التحرك، وبعث الجنرال «سوسيه» قائد الفيلق XIX ببرقية الى حكومته بباريس، يدعوها فيها بأن تضغط على السلطان المغربي لبطرد بوعمامة من هذه المنطقة لأنه يشكل خطرا دائما على الاستعمار الفرنسي في الجنوب الوهراني،

---

(1) Boualem BESSAIH, *Op.Cit.* pp123-125.
(2) A.O.M, 30h 79, Télegramme du 10 Aout 1883.

ثلاث غادر بوعمامة فيقيق، ولجأ إلى واحات إقليم توات. واحتمى بسكان واحة دلدول بمقاطعة تيقورارين (قورارة) مع نهاية سنة 1883م واستقر هناك الى غاية سنة 1894، إذ قام بتأسيس زاوية هناك، وشرع في تنظيم دروسا دينية ليكسب أنصارا وأتباعا جدد ليواصل بهم الجهاد ويوقف زحف التوسع الاستعماري في الجزائر، كما قام بمراسلة مختلف القبائل الصحراوية من أقصى شرق الصحراء إلى غربها يحثهم على الجهاد، كما قام بتحركات سياسية تمثلت في مراسلة الحكام العسكريين الفرنسيين مثل رسالة بوعمامة الى الحاكم العسكري لدائرة غرداية يوم 26 أفريل 1888(1) يحثه فيها على أن يسلك طريق السلم والأمن والصلح بينهما، وفي نفس الوقت راسل سي قدور بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ الشراقة(2) يحذره من مغبة دسائس وتحركات المصالح الفرنسية لزرع الشقاق والعداوة بين المسلمين وداخل القبائل سواء بالمغرب الأقصى أو الجزائر ويحثه على عدم التعامل مع الكفار.

وكان لهذا النشاط صدى واسعا لدى القبائل الصحراوية وخاصة قبائل التوارق، الذين إقترحوا عليه الانتقال إليهم ليتعاونوا فيما بينهم للجهاد ومقاومة زحف الاحتلال العسكري لوطنهم كذلك آزرته وإنضمت إليه بعض القبائل المقيمة على الحدود الجزائرية ـــ المغربية منها على الخصوص ذوي منيع وأولاد جرير.

وفي نفس الوقت كانت السلطات الفرنسية تعمل على إستقرار الوضع في المنطقة، بتثبيت السكان وخاصة الموالين لأولاد سيدي الشيخ، وذلك بعد نجاح الجنرال «توماسين» (THOMASSIN)

---

(1) A.O.M. 30 H 79, Confirmation d'un Télegramme du 11/09/1883.
(2) A.O.M. 30 H 79.

في مصلحة هذه العائلة الدينية، من أجل أن يسهل عليها الانتقال إلى أبعد من السهول العليا الغربية وتمديد نفوذها إلى أقصى الجنوب وكذلك إنهاء حالة الحرب والانتفاضات الدائمة التي دامت حوالي عشرين سنة[1] كما عملت أيضا على إعطاء السكان الصحراويين، نوعا من الاستقلال الذاتي، يتماشى ويتوافق مع نظام المكاتب العربية ضمن الحكم العسكري، حتى تجند منهم قوة هائلة تعتمد عليها في الاستيلاء على الصحراء، بل تكون منهم قوات سريعة الحركة تشابه حركة الثوار وتمتاز عليهم أيضا بحسن التنظيم وقوة الأسلحة الحديثة، والدعم المادي، فضلا عن قدراتهم القتالية، وسوف تكون هذه الأداة الجديدة والفعالة في أيدي السلطات الاستعمارية لتتوسع بها في الصحراء[2].

واهتمت الادارة الفرنسية منذ سنة 1884م، بإنجاز العديد من المشاريع، بعد أن تحصلت على مساعدات مالية من مجلس النواب الفرنسي، من أجل تثبيت أقدامها في المنطقة، وهذا بعد أن ألحقت منطقة مزاب بنفوذها[3] وإيصال الخط الحديدي إلى عين الصفراء. كما عملت على شق الطرق، وإقامة الجسور وربط المناطق الجنوبية الغربية ببعضها البعض حتى سهل عليها التنقل بسرعة في حالة ما إذا قاومها السكان.

كما عملت السلطات الفرنسية على زرع الحصون والمراكز العسكرية في مختلف المناطق بعد أن تبين لها أن حاميات البيض والأغواط وغرداية غير قادرة على حماية المناطق الجنوبية الشاسعة والمتمردة[4].

---

(1) A.O.M, 30 H 80, Mai, Juin, 1888.
(2) Augustin BERNARD et M. LACROIX, *La pénétration saharienne*, (1830-1906), Alger 1906, p. 95.
(3) Bul. Com A. Fr, Juin 1898, pp 200-201.
(4) Henri GARROT, *Histoire général de l'Algérie*, 1910, pp. 989-999.

فقرر الجنرال «دليباك» في شهر مارس 1885م. إقامة مركز محصن بجنان بورزق، من أجل حماية الاتصالات بين عين الصفراء وفيقيق، وحراسة الواحات المغربية، لذلك تم إحتلاله بصفة نهائية في شهر جويلية 1885، هذا قرر إعطاء دفعة جديد لمركز عين الصفراء بربطه بالخط الحديدي الذي وصله 1887[1] ثم بناء حصن القليعة عام 1888م وكل ذلك من أجل مراقبة المناطق الحدودية، ورصد تحركات الشيخ بوعمامة الذي إتفق وإتحد مع شريف مداغا بوادي قير ليعملا سويا على تحريض وتأليب سكان الجنوب الوهراني وعشائر بني قير وأولاد جرير[2] ضد الوجود الفرنسي بالمنطقة.

لقد إستعمل الاستعمار الفرنسي أساليب متعددة للاحتلال فمنذ سنة 1889م، لاحت في الأفق فكرة جديدة وهي إحتلال الصحراء بالطرق السلمية الهادئة، وذلك بإقامة المؤسسات الاقتصادية وإنشاء المراكز التجارية في كل من توات وتاديكالت[3]، حتى تدخل في هذه المناطق للتعرف أكثر على جوانبها البشرية والجغرافية والمائية والاقتصادية، وقد أرسل في هذا الاطار الأستاذ «فلامون» (FLAMAND) لاتمام أبحاثه ودراساته حول الجنوب.

لكن فرنسا لم تتخل عن أسلوبها العسكري العنيف في التوسع، فأنشأت في سنة 1891م مركزا عسكريا دائما بالمنيعة إستعدادا للسطو على عين صالح وواحات توات، التي وصفها الوالي العام للجزائر «جول قامبون» (JULES GAMBON): إنها ملجأ للثوار، ولبوعمامة الذي إلتجأ إليها بحثا عن المساعدة وتأليب القبائل ضدنا. كما عملت السلطات الفرنسية

---

(1) Louis RINN, «Nos frontoères sahariennes», in *RA.* Alger, (N° 30, 1886) pp. 220-221.
(2) A. BERANARD et N. LACROIS, *Op.cit,* p.95.
(3) Journal, l'Echo d'Oran, N° 6153 du 7 Juillet 1888.

على إستمالة سي قدور بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ إليها ليساعدها على إحتلال هذه الواحات(1).

ولكن بوعمامة ما فتىء يكسب الأنصار ويحظى بثقة سكان الصحراء ويحوز على تأييدهم بإعتباره قطبا صالحا، مما جعل كل من السلطات الفرنسية والحكومة المغربية تعملان على إكتسابه إلى صفها، فتجددت محاولات فرنسا الاتصال به عن طريق المفوضية الفرنسية بطانجة سنة 1892م للتفاوض حول قضية «الآمان» ولكن بدون جدوى(2).

ويظهر أن التنافس عليه بين الدولتين المغربية والفرنسية يدخل ضمن سياسة كل منهما تجاه المناطق الصحراوية فبينما كانت السلطات الفرنسية تسعى في إستمالة الشيخ بوعمامة إلى جانبها حتى يفسح لها الطريق نحو التوسع في الصحراء، كان العرش المغربي يرمي إلى تدعيمه بإعتباره مدافعا عن مجالها عبر هذه المناطق ضد الفرنسيين بإسم البلاط المغربي.

لهذا عرضت الحكومة المغربية على الشيخ بوعمامة الانتقال إلى الشمال والاستقرار بناحية فيقيق والمكوث بالقرب من زاويته بمغرار، فأصبح الشيخ بذلك بين ثلاث إختيارات هي، إما الأمان أو الانتقال إلى الشمال أو البقاء في مكانه تلبية لرغبة أهل قورارة.

---

(1) A. BERNARD et N.LACROIX, op-Cit, p. 102.

(2) الأمان: قضية إنشغلت بها الدوائر الاستعمارية الفرنسية كثيرا خاصة مع الشيخ بوعمامة، فمنذ عهد الوالي العام «ترمان» (TIRMAN) سنة 1883 عرضت هذه القضية وبقيت مطروحة إلى آخر عهد الثورة. وذلك للاختلاف الحاصل في وجهة النظر بين الطرفين، فالشيخ بوعمامة كان يرى في هذا الموضوع التفاوض من أجل الصلح والسلم والأمن لتحميم والاحترام المتبادل داخل مناطق الطرفين، بينما ترى السلطة الفرنسية أن منح بوعمامة الأمان معناه الاستسلام لها بدون قيد أو شرط.

وإستطاع بوعمامة أن يوفق بين الأمور الثلاث، فرد على «الأمان» برسالة ضمنها شورطه[1] التي يعرف أنها مرفوضة، كما بدأ يتقرب من السلطان المغربي بإعتباره أقرب سلطة شرعية إسلامية في المنطقة وفي نفس الوقت بدأ في تهيئة الأرضية التي سينتقل منها إلى الشمال نظرا لصعوبة المهمة وتشعب إرتباطاته، فكان التنقل بكل حذر، بطيء إستغرق حوالي أربع سنوات ظل يراوح فيها ما بين العرق الغربي الكبير ووادي الساورة.

تشير الوثائق الفرنسية بأن بوعمامة إستقر خلال 1895م بعرق مقيمن وقد رفض أن يمكث بين كل من زوا الغرابة وأولاد جرير وذوي منيع، وأنه ما زال يرتاب في نوايا سي قدور بن حمزة وإن الطوارق وشعانبة الشرق تزوره بإستمرار بمقيمن.

كما أنه طالب عن طريق رسالة وجهها إلى الجنرال الشعبة العسكرية لعين الصفراء السماح له بأن يرسل قافلة لتتموين من الأسواق الواقعة تحت النفوذ الفرنسي[2].

ثم إستقر أخيرا بالعوج التحتاني في 26 ماي 1896 على حافة وادي زوزفانه قرب منطقة فيقيق[3]، ليتمكن من جمع إمكانياته ورص صفوفه، ويستقبل الوفود التي لبت دعوة الجهاد، كما كان يعمل على تنقية الأجواء بين العشائر المتعادية والمتنافرة، وإبعاد العناصر المشوشة لتطهير حركته الجهادية.

وفعلا فقد أبعد بوعمامة العديد من عناصر الشعانبة رغم شجاعتهم وقدراتهم القتالية ولم يبق منهم إلا بعض الخيم، ونظم صفوف جيشه الذي أصبح يتكون مما يلي[4]:

---

(1) A.O.M. 30 H 80, G.G.A, Note relative à L'AMAN de Bou-AMAMA.
(2) A.O.M, 30 h 79.
(3) A.O.M, 30 H 30 Lettre du Général BOTARD, Commandant la division d'Oran, à Monsier le Gouverneur général dr l'Algérie. Oran, le 20 Mars 1895.
(4) A.O.M, 30 h 97, Composition des Campements de Bou-Amama.

ـــ زاوية بوعمامة: 50 فرسان و 60 مشاة.
ـــ أولاد جرير: 250 فرسان و 700 مشاة.
ـــ أولاد قطيب: 15 فرسان و60 مشاة.
ـــ زاوية الغرابة: 65 فرسان 100 مشاة.
الشعانبة: 20 فرسان و170 مشاة و 95 مهري.

لا شك أن هذه القوة لا بأس بها في ذلك الوقت زادت من دعم الموقف العسكري للشيخ بوعمامة والذي عزز موقفه السياسي أيضا بزيارة الوفود الرسمية له «كزيارة شخصين له حاملين إليه رسالة من سلطان القسطنطينية وحامي الحرمين الشرفين، ومن سلطان المغرب مولاي عبدالعزيز ومن حاكم تافيلالت مولاي الرشيد، يعبرون له فيها عن إعتبارهم له خلفا للخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه واعترافهم به كشيخ الشيوخ للمنطقة الصحراوية».

وبذلك إطمأن الشيخ بوعمامة لنوايا السلطان المغربي فرجع إلى مسقط رأسه بفقيق خلال شهر سبتمبر 1896م، ويظهر أن هذا التقارب قد أثار قلق ومخاوف السلطات الفرنسية خاصة بعد الاعتراف به كزعيم لأولاد سيدي الشيخ وكمشرف على المنطقة الصحراوية وهو بذلك يعتبر سدا منيعا في وجه سياسة التوسع الفرنسي في الصحراء لذلك حاولت السلطات الفرنسية كسب ود الشيخ بوعمامة عله يساعدها في بسط نفوذها على الصحراء فقرر الوالي العام «لافريار» (LAFERRIERE) يوم 16 أكتوبر 1899 منح الشيخ بوعمامة الأمان التام بدون أي شرط أو قيد وذلك حتى يتمكن من إتمام مشاريعه الاستعمارية في منطقة زوزفانة وإنجاز محطة جنان ـــ بورزق كآخر نقطة للخط الحديدي بالجنوب وهذا بعدما تلقى التعليمات اللازمة لذلك من وزارة الحربية بباريس ـــ أركان الجيش ـــ المكتب الرابع[1].

وبعد تبادل الرسائل بين الطرفين أعرب الوالي العام السيد «لافريار» في اللقاء بالشيخ بوعمامة خلال جانفي 1900 بمناسبة تدشين الخط

---

(1) A.O.M, 30 H 80, Note relative à L'AMAN de Bou-Amama.

الحديدي الرابط ما بين عين الصفراء ـ جنان بورزق وكذلك الخطة النهائية للقطار وذلك يوم أول فيفري 1900[1]. وقد رفض بوعمامة هذه المقابلة، ويظهر أنه لم يثق بعد في سياسة فرنسا وما زال يرتاب في نواياها المبيتة لأن همها الوحيد هو ترسيخ أقدامها في المنطقة ورغم ذلك يمكن أن نلاحظ أن الشيخ بوعمامة قد ساير سياسة فرنسا بكل حذر وحاول جس نبض السلطات الفرنسية والتقرب منها من خلال الرسائل العديدة المتبادلة بينهما.

وبعد ذلك التاريخ دخل الشيخ بوعمامة المغرب واشتغل بمشاكل وقضايا داخلية للمغرب. وإنتقل إلى الشمال بعمالة وجدة، مما جعل الدوائر الأستعمارية في الجزائر تتنفس الصعداء بتخلصها من أشد أعدائها الذي وقف في وجهها حوالي ربع قرن وترك لها المجال واسعا للتوغل في أعماق الصحراء.

وطيلة السنوات الباقية من حياة الشيخ بوعمامة قضاها في الجهاد تارة وفي الهدوء طورا آخر وكل ذلك تحت مراقبة ومحاصرة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال «ليوتي» [LYAUTY]. وأخيرا إلتجأ الشيخ بوعمامة إلى ضواحي وجدة بعين سيدي ملوك حيث وافته المنون في السابع من أكتوبر 1908م. (رحمه الله)، ودفن هناك وهو إلى اليوم ينتظر عودة رفاته الطاهرة إلى أرض الوطن ليجاور زملاءه الأبطال بالعالية وما ذلك بعزيز عن الجزائر.

نتائج ثورة بوعمامة:

ترتبت عن هذه الثورة عدة نتائج وحقائق يمكن إثبات بعضها في النقاط التالية:

1 ـ تعتبر ثورة بوعمامة من أعنف الثورات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر في الجزائر ـ بعد ثورة الأمير عبدالقادر ـ وأطولها من 1881 إلى 1908م. وبها ختمت مراحل المقاومة الشعبية في تاريخ الجزائر الجهادي، فأوقفت دور البندقية ليحل محلها أسلوب البعث الحضاري والوعي الفكري ضمن النضال السياسي في الحركة الوطنية الجزائرية.

---

(1) A.M.G. 1H 1025, Nots pour la section d'Afrique, Paris, le 27 Juilet 1898.

2 ـــ إمتازت شخصية بوعمامة في هذه المرحلة بالشجاعة والاقدام والتحدي في مواجهة القوات الفرنسية، حيث تفتقت مواهبه الحربية، وقدراته القتالية، كالتفطن لمكائد الأعداء وتفهم العمليات العسكرية، مما جعله ينتصر على أشهر جنرالات فرنسا والمتخرجين من أكبر المدارس العسكرية فضلا عن خبراتهم الميدانية وتجاربهم الحربية، فقد هزمهم جميعا ولم يتمكنوا من القبض عليه أبدا، لهذا يحق له اليوم أن تمنحه أسماء الرتب العسكرية تقديرا لانتصاراته.

3 ـــ إنطلقت الثورة من الزاوية بإعتبار الشيخ بوعمامة زعيم ديني وقطب رباني إشتهر بالورع والتقوى وحب وطنه وشعبه، فكانت حركته دينية سياسية شعارها مقاومة الاحتلال تحت لواء الجهاد المقدس ورفع راية الاسلام عالية والعمل على جمع كلمة المسلمين كصف واحد لدحض الاستعمار والاستعباد.

4 ـــ لقد أظهرت ثورة بوعمامة تحديا كبيرا لسياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة، والتي كانت تهدف إلى إتمام عمليات الاحتلال الشامل والكامل للبلاد وجعل الجزائر ولا سيما جنوبه همزة وصل للتوسع.

5 ـــ غلب على المرحلة الثانية من الثورة (1883م ـــ 1908) الطابع السياسي، وطغت عنها قضية «الأمان» من خلال المراسلات. والمفاوضات بين الشيخ بوعمامة والأوساط الفرنسية، وإستطاع بذلك أن يكسب الدعم المادي والمعنوي عند مختلف القبائل، زادت من تقوية نفوذه ومركزه، وجعلت القوات الفرنسية عاجزة على النيل منه رغم مساعدة بعض الخونة لها.

6 ـــ لقد ترتب عن عمليات التوسع الاستعماري في الجنوب الوهراني عدة نتائج إقتصادية، معتبرة، حيث أن الحوادث خلال الثورة انجرت عنها خسائر بشرية ومادية جسيمة لما تعرضت له المنشآت

الاقتصادية مستمرين في اغتصاب الغنى إلى خيرات وإتلافات ذكرتها عدة وثائق أرشيفية لمصالح الاستعمارية للأثنيات.

7 ـــ عجلت الثورة بإتمام مشاريع السكة الحديدية في المنطقة وربط الشمال الغربي الجزائري بجنوبه، لأنها وسيلة سريعة للمبادلات. كما أنها تساعد قوات الاحتلال بالتحرك في التدخلات نحو الجنوب ونجدة وتدعيم الحاميات المزروعة هنا وهناك.

8 ـــ وأخيرا يمكن إقرار الحقائق التالية وهي أن الثورة لم تحقق أهدافها، لأنها تعرضت لعدة عقبات جعلتها تتعثر وفاترة في بعض الأوقات نظرا لعدم إتحاد فرعي أولاد سيدي الشيخ وكذلك ضغوط السلطان عبدالعزيز على الثورة وحصرها في الحدود.

ورغم ذلك فإن هذه الثورة قد كتبت صفحة خالدة في تاريخ المقاومة الوطنية الجزائرية ويمكن أن نقول أنها وضعت اللبنات الأولى في تشييد حرية البلاد والعباد.

التاريخ حقائق ووثائق

التقديم:

تعد الوثائق الأرشيفية من المصادر الرئيسية في الدراسات التاريخية المعاصرة، بحيث لا يمكن البت في أي قضية من القضايا المدروسة، إلا بظهور الحجة الدامغة المتمثلة في الوثيقة الأرشيفية التي قد تبرء المجرم وتتهم البرئ.

ومن أجل وضع تاريخ الجزائر المعاصر على مائدة البحث، لاعادة كتابته بطريقة علمية تتوخى الدقة والصدق والموضوعية، وابراز الحقائق التاريخية النزيهة مهما كانت مرة أو حلوة، يجب إقامة مدرسة تاريخية علمية وفق القواعد السليمة وتعتمد على الأصول التاريخية الضرورية، حتى نحمي تاريخنا من الدس والتزوير، ونضمن إيصاله إلى الأجيال الصاعدة بكل أمان.

أن تحقيق هذا المشروع: يعد من الأعمال العظمى والنبيلة التي تتطلب تظافر الجهود، وجمع الامكانيات، وقهر الصعوبات، لأن التاريخ لا يدرس عفوا ولا يكتب اعتباطا، وليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا، ذلك أن المؤرخ تتوفر فيه الصفات الضرورية «... فلا يكذب ولا ينتحل، ولا ينافق أصحاب الجاه أو السلطان، ولا يخفي الوقائع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان والتي لا ترضيه أو ترضي قومه...»[1]

(1) حسن عثمان، **منهج البحث التاريخ**، دار المعارف بمصر، الطبعة II، 1970، ص 18.

لذا على المؤرخ أن يبتعد عن التحيز والأهواء، ويحرر نفسه من الميل حتى تأتي بحوثه وكتاباته مطابقة للواقع قدر المستطاع وبذلك نستفيد حقا من التاريخ. إذ أن الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه تفيد إلى حد كبير الشعوب والأمم في السعي إلى تجنب عوامل الخطأ في الحاضر والمستقبل. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون في مقدمته: «إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في اخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم...» إذن فالتاريخ عند ابن خلدون يتعدى قواعد العلم ليصل إلى مرتبة الفن الذي لا يتمذهب به أين كان لأنه صعب المنال، فضلا عن مراميه النبيلة، لأن التعرف على وقائعه من شأنه أن يحمي الانسانية ويجنبها عذابات الأوائل ومصائب السوالف.

كما على المؤرخ ان تتوفر فيه ملكة النقد، ولا يقبل كل المعلومات أو يصدق كل الوثائق، بدون الفحص والدرس والاستقراء. إذ يقول ج. هرنشو في كتابه علم التاريخ. «ان التاريخ ليس كالفلك علم معاينة مباشرة، ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق...»، فبعد النقد والتحقيق يتم استخلاص الحقائق ثم الشروع في تنظيمها وتفسيرها وعرضها.

كتابة تاريخ الجزائر المعاصر:

لا شك أن كتابة تاريخ الجزائر المعاصر، أو تاريخ جهاد الشعب الجزائري خلال القرن الماضي، يتم حتما عبر الوثائق الأرشيفية، التي يجب نفض الغبار عنها ثم ترتيبها واستغلالها لفائدة التاريخ الوطني في اطار المدرسة التاريخية الجزائرية. ذلك أن الوثيقة الأرشيفية تعد من المصادر الأساسية ومن الأصول الضرورية في الدراسات التاريخية. وقد تكونت هذه الوثائق من الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية مثل المراسلات العسكرية والسياسية المتمثلة في الرسائل والتلغرافات والتقارير والأوامر والقرارات والحالات

والمدونات والمعاهدات والاتفاقيات والندوات والمحاضرات والمقالات والأشعار ـــ ومنه الشعر الشعبي ـــ والآثار المادية الأخرى، كالأسلحة، والأدوات المستعملة في الحرب واللباس وغير ذلك. مع العلم أنه لابد من تفحص هذه الأصول والتأكد من صحتها وتثبيت خلوها من الدس والتزوير، أي نقدها الظاهري والباطني أيضا. أن ما يميز تاريخ الجزائر المعاصر هو أحداث الثورات والمقاومات الشعبية المسلحة والسياسية ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، فبعد أن ثبت هذا الاحتلال أقدامه في العاصمة وعلى السواحل الجزائرية والمدن القريبة منها، أصدرت حكومة الجمهورية الفرنسية الثانية قرارا، في شهر مارس 1848م، ينص على أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي، فاتجهت إذن نحو المناطق الداخلية والنائية من البلاد لضمها لها، فاصطدمت في طريقها بكفاح مستميت ونضال شعبي عنيف ومرير.

لقد دون بعض الضباط الفرنسيون معظم أحداث ثورات الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ولكن كتاباتهم كانت تؤرخ خاصة لأعمال وإنجازات جيش الاحتلال الفرنسي، أو أنها تخلد تاريخ فرنسا في الجزائر، لهذا جاءت بأسلوب مغرض لا يخدم سوى الأهداف والمرامي الاستعمارية الفرنسية. ولجهلهم للغة العربية فقد أهملت الوثيقة العربية عمدا في بحوثهم، بل وصفوا أراء أصحابها من المجاهدين، كالأمير عبدالقادر وأحمد باي والشيخ بوزيان وسي سليمان بن حمزة والمقراني وبوعمامة وغيرهم، بالدروشة والتعصب الديني، وشككوا في قيمتها التاريخية ونادوا بعدم الاعتماد عليها.

وبهذا الموقف العنصري الجائر، جاءت كتاباتهم عرجاء، فاقدة للصبغة العلمية، لبعدها عن الموضوعية وعن الحقائق التاريخية، فهي إذن محل مراجعة عامة وتدقيق نظر، وغربلة المعلومات حتى نستطيع استخدامها في كتابة تاريخ هذه الثورات خاصة وتاريخ الجزائر المعاصر

عامة، مع إعطى المكانة اللائقة والأهمية الكبرى للوثيقة العربية ومقارنتها بالوثائق الأخرى، حتى نصحح الأحداث والوقائع الوطنية وانصاف أصحابها وابراز مواقفهم على حقيقتها.

ذلك أن معظم هذه الثورات والمقاومات لم تدرس حتى الآن بكيفية دقيقة وموضوعية (علمية) وشاملة، لأن معظم وثائقها ما زالت مجهولة حيث أنها مكدسة وحبيسة صناديق دور المحفوظات دون إطلاع أو دراسة، والتاريخ كما هو معروف يصنع من الوثائق[1] فالتاريخ حقائق ووثائق.

لهذا لابد من تسليط الضوء على عينة من هذه الوثائق المجلوبة من الخارج من ثلاثة مراكز هامة. اثنان بفرنسا وآخر بتونس الشقيقة.

ويمكن تصنيف الوثائق الأرشيفية الخاصة بالثورات والمقاومات الجزائرية والمحفوظة بفرنسا الى صنفين أساسيان هما:

أ ـــ الأرشيفات العسكرية والمتمركز بأرشيف وزارة الحرب بقصر فانسان ـــ باريس.

ب ـــ الأرشيفات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمركز الأرشيف الوطني فيما وراء البحار بآكس ـــ آن ـــ بروفاس.

مع الملاحظة أنه توجد أرشيفات سياسية وإقتصادية وإجتماعية بفانسان، كما توجد أرشيفات عسكرية بآكس، بل هناك العديد من نفس المجموعات في المركزين معا.

---

(1) عبدالرحمان بدوي، **النقد التاريخي**، دار النهضة، القاهرة، 1963، ص 5.

أولا ــ أرشيف وزارة الحرب: قصر فانسان: ويحتوي على عدة مجموعات أهمها:

I ــ سلسلة (H) للارشيف المركزي في الولاية العامة بالجزائر.

II ــ سلسة (G) التي تضم وثائق تخص التنظيمات الادارية للجزائر من 1883 إلى 1902م.

III ــ سلسلة (E) وتشمل المراسلات السياسية العامة للولاية العامة خلال القرن التاسع عشر.

IV ــ سلسلة (L) خاصة بعملية الاستعمار[1].

وفيما يلي بعض النماذج للوثائق ضمن سلسلة (H) فقط، لأن السلاسل الأخرى تدخل ضمن الأرشيف القديم للولاية العامة بالجزائر.

1 ــ صندوق *H. 228*:

أ ــ تقرير العقيد «مارانقوا» (MARENGO) إلى وزارة الحرب، لشهر نوفمبر من سنة 1839م، وضح فيه خطط الاستعمار العسكرية في الجزائر خلال تسع سنوات خلت، بحيث أن تقدير الامكانيات التي سخرت من أجل استعمار الجزائر تعد قليلة جدا، ويجب تدعيمها كما يجب أيضا التركيز على دراسة طبائع ومزاج عرب الجزائر لاستغلالها في الاحتلال، وحتى استعمالها في النشاط الاقتصادي، وفي الأخير إقترح العقيد عدة إجراءات للقضاء على مقاومة العرب وترسيخ الاحتلال.

يبين هذا التقرير عدة حقائق تاريخية منها أن الاحتلال الفرنسي للجزائر خلال العشر سنوات الأولى مازال هش، وأنه يبحث عن مساعدة وتدعيم، خاصة من طرف أهل البلاد أنفسهم بعد ترويضهم وابعادهم عن المقاومة.

---

[1] G. Esquer. dermeghem, repetoire, Archives du gouvernement Général de l'Algérie, Alger, 1953, pp. 7-11.

ومن هنا نطرح الاشكالية التاريخية حول مقدرة توسع الاحتلال الفرنسي في هذا الوطن العملاق، والتمكن من السيطرة عليه لولا المساعدات المقدمة له من طرف العملاء، التقرير موقع من طرف «مارنقو» وكتب في سبع صفحات بمدينة الجزائر، بتاريخ 11 جوان 1841م.

ب — تقرير «ماسو» (MASSOT) نائب المقتصد العسكري: يبين فيه قوة ومصادر الأمير عبدالقادر. حرر في ستة عشر صفحة بمدينة قرونوبل بتاريخ 15 جوان. 1841م.

ج — رسالة خطية لخليفة الأمير عبدالقادر السابق بالزيبان الحسن بن عزوز إلى سلطان فرنسا، يشرح فيها أوضاعه بعد انهزامه في معركة وادي سلسو يوم 24 مارس 1840م، وعزله من طرف الأمير(1).

ومعلوم أن الحسن بن عزوز مكث بالمسيلة إلى أن وقعت تحت الاحتلال الفرنسي فقام قائدها المقراني بأسره ثم إرساله الى قسنطينة، حيث نقل إلى منفاه بجزيرة سانت مارغريت ثم سجن بعنابة الى أن توفي سنة 1847م (رحمه الله).

حررت الرسالة في خمس صفحات بخط مغربي كبير الحجم، وترجمت إلى الفرنسية يوم 1841/12/7م.

2 — صندوق H 240:

— تقرير مفصل في أربع صفحات حول أوضاع الأركان العامة للجيش في الجزائر — بتاريخ 1 جوان 1870م.

---

(1) ابراهيم مياسي، «احتلال بوابة الصحراء» مجلة حوليات جامعة الجزائر، العدد التاسع، الجزء الأول، أفريل 1995، ص 108.

3 ـ صندوق H 264:

ـ تقرير حول ملخص الوقائع التاريخية والسياسية التي حدثت في دائرة بسكرة خلال عام 1871م، موقع من طرف الضابط «قروزي» (GROUZET)، حرر في أربع صفحات.

4 ـ صندوق H 376:

أ ـ رسالة من والي وهران إلى الوالي العام المدني للجزائر، بتاريخ 9 أفريل 1881م. وموضوعها هو تقديم بعض المعلومات والأخبار عن بوعمامة، ومدى تأثيره على القبائل الصحراوية، خاصة بعد أن وعدهم بأنه سيخلصهم من الاحتلال الفرنسي، وهذا قبل حلول فصل الصيف القادم.

ب ـ رسالة من الوالي العام المدني للجزائر إلى وزير الحرب بباريس، بتاريخ 15 أفريل 1881م، موضوعها الأوضاع السياسية بالناحية الوهرانية، منها إتهام أولاد سيدي الشيخ في المساهمة في إبادة بعثة العقيد فلاترس، ثم تقييم نفوذ بوعمامة بالمنطقة.

ج ـ قرار عام من مركز القيادة بالجزائر بتاريخ 24 ماي 1881، وهو قرار لتحرك القوات الفرنسية لمواجهة قوات بوعمامة بعد معركة المويلك يوم 19 ماي 1881م.

د ـ رسالة من الجنرال «سوسييه» (SAUSSIER) قائد الفيلق التاسع عشر إلى وزير الحرب ـ صادرة بوهران بتاريخ 18 جويلية 1881م ـ وموضوعها إعلام الوزير بالخطط العسكرية لمواجهة مقاومة بوعمامة.

هـ ـ رسالة من الجنرال «سوسييه» الى الجنرال «دليباك» (DELEBECQUE) قائد الناحية العسكرية بوهران، الجزائر في 2 سبتمبر 1881م، وهي خاصة بالتعليمات والتحضيرات للهجوم على بوعمامة بعد انخفاض درجة الحرارة، خلال فصل الخريف القادم.

و ــ تقرير إجمالي حول العمليات التي أنجزت من 8 إلى 16 نوفمبر 1881م.

أما الوثائق الخاصة بموضوع توسع الاستعمار الفرنسي في الصحراء الجزائرية فهي عديدة ومتنوعة، ومصنفة في جرد 1 H ما بين 1H 998 و 1H 1090، ثم سلسلة أخرى من 1 H 4745، وهي مقسمة كمايلي:

I ــ مجموعة أركان الحرب ــ قسم إفريقيا ــ من 1 H 998 إلى 1 H 1044.

II ــ مجموعة شعبة وهران من 1 H 1045 إلى 1 H 1055.

III ــ مجموعة الفيلق التاسع شعر من 1 H 1056 إلى 1 H 1090.

هذا، فقد إطلعت على بعض الوثائق الأرشيفية لهذه المجموعات وصورت أغلبها، بينما مجموعة 1 H 4745 المصنفة مؤخرا فقط، فاني لم اطلع على محتواها حاليا. (وأطلعت عليهم في ربع 1998).

ثانيا ــ أرشيف ما وراء البحار ــ آكس ــ آن ــ بروفانس (فرنسا) وهو أهم مركز للأرشيفات، لأنه يحتوي على عدة وثائق تاريخية متعلقة بتاريخ الجزائر المعاصر، ضمن سلاسل عديدة منها.

أ ــ سلسلة F 80:

1 ــ صندوق F. 80 1683 b:

ويحتوي على عدة وثائق تتعلق بالخسائر البشرية والمادية التي ألحقتها ثورة بوعمامة بالشركة الفرنسية ــ الجزائرية لاستغلال الحلفاء سنة 1881م ومنها.

1 ــ تقرير متعلق بالهجوم والتقتيل الذي حصل أيام 11؛ 12 و 13 جوان على ورشات الحلفاء بدائرة سعيدة وهو من تحرير قائد ناحية سعيدة بتاريخ 23 جوان 1881م. تحدث فيه خاصة عن خسائر حضائر الحلفاء للمقاولين

الاسبانيين «مانويل فيونتس» [MANUEL FUENTES] و «ماريانو كمبيو [MARIANO CAMPILLO] والذين يعملان ضمن الشركة الفرنسية — الجزائرية — ويبين التقرير عدد القتلى والجرحى والمفقودين، وكذا المقادير المالية التي خسرتها الشركة من جراء هجوم ثوار بوعمامة عليها، كما تحدث التقرير أيضا عن حرق ورشة حداد أوروبي يقطن بخلف آلله، وإتلاف مزرعة المعمر «مونايال جان» الموجودة على بعد 6 كلم من عين الحجار، وبذلك تكون الحوصلة العامة للخسائر المنجرة عن الثورة تقدر ب 649.401,05 فرنك.

وهكذا نستشف من هذا التقرير أن ثورة بوعمامة قد ضربت بشدة مصالح الاستعمار والاحتكار، حتى تقوض أركانه في المنطقة، وتخلص البلاد والعباد من استغلاله البشع، ذلك أن أهالي المنطقة قد حرموا من المادة الضرورية في حياتهم وهي الحلفاء التي هي مادة أولية في صناعة عدة أغراض كالحبال والقفاف والحصائر وغير ذلك فضلا على أنها أعشاب أساسية في تربية المواشي.

2 — رسالة من العقيد «دوفوكيرسون» [De Vaucresson] القائد الأعلى إلى الجنرال قائد الفرع العسكري بسعيدة في 26 سبتمبر 1881م تحدث فيها بالتفصيل عن القتلى والمفقودين والخسائر المالية للشركة من جراء ثورة 1881م ثم اتبعها بحالات مفصلة هي:

الحالة رقم 1 — وبها أسماء القتلى بورشات الحلفاء وعددهم 52 قتيلا.

الحالة رقم 2 — وبها أسماء المفقودين من الأسبان وعددهم 85 مفقودا.

— الحالة رقم 3 رسالة من الشركة الفرنسية (الجزائرية) إلى رئيس لجنة (باريس في 2 فيفري 1882م.

وهي من ضمن الرسائل المتبادلة ما بين الشركة والوالي العام المدني للجزائر. وهي رد على رسالة الوالي العام بتاريخ 30 أكتوبر الماضي متبوعة

بتقرير من سبع صفحات تحت عنوان: «حالة الخسائر التي وقعت وتكبدتها الشركة الفرنسية ــ الجزائرية من جراء الثورة التي انفجرت بالهضاب العليا لاقليم وهران في أفريل 1881م».

4 ــ رسالة من الوالي العام للجزائر الى وزير الداخلية بباريس، الجزائر في 30 سبتمبر 1883م. وهي خاصة باعلام الوزير عن الترتيبات والاجراءات المتخذة لدفع التعويضات للمتضررين الاسبان وغيرهم من الثورة.

5 ــ رسالة من وزير الخارجية الى وزير الداخلية، باريس 2 أكتوبر 1884م. وهي من أجل إبلاغ وزير الداخلية عن التعويضات التي قدمت للرعايا الاسبان ضحايا ثورة 1881م.

II ــ صندوق F 80 1684:

وبه عدة وثائق حول أوضاع الجنوب فيما بين 1882ــ 189م.

III صندوق F 80 16 95:

ويحتوي على وثائق تخص شؤون الجنوب.

VI ــ صندوق F 80 1788:

وهو ملف ضخم خاص بالشؤون الاقتصادية منها زراعة القطن، والحلفاء، والنخيل... الخ.

ب ــ سلسلة (H):

وهي من أهم السلاسل الأرشيفية بمركز آكس، وقد اطلعت على عدة صناديق منها، تخص تاريخ الجزائر المعاصر محصورة ما بين 1 H 11 و 30 H 81 ونتصفح فيما يلي بعض الوثائق لصندوق متعلق بثورة بوعمامة من هذه المجموعة وهو صندوق: 79 H 30.

1 ــ برقية من الناحية العسكرية بوهران بتاريخ 10 أوت 1933 موجهة إلى الولاية العامة الجزائر ــ المصلحة العامة للشؤون الأهلية ــ وفحواها اختفاء بوعمامة بواحات فيقيق.

2 ــ برقية من الجنرال سوسييه ــ قائد الفيلق التاسع عشر ــ الى تيرمان الوالي العام، صادرة من الجزائر بتاريخ 8 سبتمبر 1883م. يطالب فيها من تيرمان بأن يبلغ الحكومة الفرنسية بباريس بأن بوعمامة ما زال معتصما بواحات فيقيق، وهذا من شأنه أن يشكل خطرا على أمننا وكرامتنا، لهذا يجب إرغام السلطان المغربي على أن يعطي أوامره لطرد بوعمامة من فيقيق.

3 ــ رسالة من بوعمامة إلى القائد محمد بن فرج آلله والقائد قويدر بن التكار والقائد علي بن حروز، موضوعها التصالح ما بين هؤلاء القياد والشيخ بوعمامة ــ بدون تاريخ. غير أن تحريرها كان خلال المرحلة الثانية من الثورة.

4 ــ رسالة من بوعمامة إلى الوالي العام، موضوعها طلب الآمان لبعض القبائل لكي تستطيع العودة من المغرب الى ديارهم ــ موقعة بتاريخ 27 جمادي الأول 1218هـ (الموافق لشهر سبتمبر 1900م).

ج ــ سلسلة (ل):

تحتوي مجموعة (ل) على التقارير العسكرية الأسبوعية والشهرية التي تخوصل ما يحدث في الجنوب الوهراني، وقد اطلعت على عدة وثائق منها:

صندوق 1 J 17:

به تقارير أسبوعية لمصالح الاستخبارات زوزفانة، الشعبة العسكرية ــ عين الصفراء ــ للمدة ما بين 1902 ــ 1903م.

صندوق 9 J 18:

به تقارير شهرية عن ملحقة توات ــ رقم 230 ــ لشهر أوت 1903م، وغيرها من الوثائق الهامة ضمن هذه المجموعة والتي تفيد عن كل التحركات الحاصلة بالمنطقة. كما توجد مجموعة (JJ) المصنفة من 1 JJ 1 à 465 1JJ وتحتوي على سجلات المراسلات العسكرية بوهران، وموزعة كما يلي:

من 1 إلى 3 مراسلات عامة من 1885 إلى 1908م.

من 10 إلى 67 مراسلات مع السلطات العليا (الولاية العامة ــ الفيلق XIX.

من 205 إلى 319 مراسلات مدنية ومتنوعة من 1841ــ1913م.

من 325 إلى 340 برقيات من 1873 إلى 1912م... الخ.

ثالثا ــ الأرشيف الوطني التونسي ــ مركز الوزارة الأولى بالقصبة (تونس) وبه عدة مجموعات للوثائق الأرشيفية التاريخية الهامة منها.

I ــ السلسلة التاريخية:

وتحتوي على عدة ملفات تهم تاريخ الجزائر خلال القرن الماضي وحتى بداية القرن الحالي وهي:

1 ــ سلسلة 239 صندوق 212 خزانة 22:

بها مكاتيب من القادة العسكريين الفرنسيين بقسنطينة الى حكام تونس في العهد الأول من الاحتلال من 1837ــ1840م.

2 ــ اضمامة 237 صندوق 212 خزانة 22:

بها عدة وثائق سياسية، منها رسالة من «ليون روش» القنصل العام الفرنسي بتونس إلى باي تونس حول سيرة المجاهد ابن الناصر بن شهرة، محررة بالفرنسية ومعها ترجمتها الى العربية، بتاريخ 8 أكتوبر 1860م.

كما توجد عدة وثائق أخرى في شأن الاغارات الصادرة من ابن ناصر بن شهرة ومحمد بوعلاق على اعراش الغرب التونسي؟

3 ــ اضمامة 384 صندوق 223:

بها وثائق عديدة وهي عبارة عن مكاتيب من باشاوات الجزائر وقسنطينة الى ولاة تونس، سنوات 1171ــ1251هـ (1757ــ1836م).

4 ــ الملف 929 صندوق 78 خزانة 7:

به مكاتيب وأوراق السيد الحاج عبدالقادر بن محي الدين الحسيني الجزائري، ويحتوي على 93 رسالة للأمير عبدالقادر في شتى المواضيع منذ جهاده في الجزائر خلال الأربعينات من القرن الماضي الى حوالي 1872م في هجرته بالمشرق العربي.

ـ ــ الملف 930 صندوق 78 خزانة 7:

به مكاتيب أولاد ابن جلاب باي تقرط (توقرت)، خاصة من سليمان بن علي بن جلاب الى مصطفى خزن دار الوزير الأول التونسي سنة 1272هـ (1855م).

II السلسلة (أ) (Serie A):

صندوق 277 ملف 2:

وبه عدة وثائق هامة، منها رسالة من المراقب المدني بقفصة الى المقيم العام للجمهورية الفرنسية بتونس، موضوعها طرد بعض الجزائريين من التراب التونسي ــ بتاريخ 28 جوان 1907م.

صندوق 278 الملفات من 1 إلى 25 ــ ومواضيعها كمايلي:
الملف 4 ــ عنوانه ــ القوافل الجزائرية ــ الملف 5: الورقلية ــ الملف 6: عائلة المقراني ــ الملف 7: السوافة ــ الملف 8: أولاد سيدي عبيد ــ الملف 11: الميزاب ــ الملف 14: يحتوي على تقارير حول وضعية الجزائريين بتونس، وغيرها من الوثائق الهامة المتعلقة بتاريخ الجزائر المعاصر بهذا المركز.

إذن هناك وثائق عديدة في الخارج، وان ما ذكر هنا لا يساوي قطرة من يم أو نزرا من جم، وان المدرسة التاريخية الجزائرية ينتظرها عمل جبار، لانجاز هدفها المتمثل في كتابة تاريخ الجزائر من خلال هذه الوثائق.

وهكذا تعتبر هذه الأرشيفات من المنابع الأساسية، لاعادة كتابة التاريخ الحقيقي، لأنها تكتسي أهمية تاريخية في الوقت الحالي، حيث أنها قد جمعت بشكل عفوي، ونتيجة الصدفة وليس نتيجة عمل قام به شخص قصدا. «فوثيقة الأرشيفات لم توجد في الأصل ليكون لها قيمة تاريخية الا أنها قد اكتسبت هذه القيمة من مرور الزمن»[1]. لهذا يجب الكشف عنها ودراستها واستغلالها بطريقة علمية. وكل ذلك لن يتأت إلا بالمثابرة والصبر والوقت الكافي والعمل الجماعي والدعم المادي والمعنوي، لتحقيق هذا الهدف النبيل.

هذا، ولا ننسى أن بأرض الوطن وثائق أرشيفية عديدة ــ خاصة داخل المناطق التي جرت بها أحداث الثورات والمقاومات ــ غير أنها ما زالت بعيدة المنال، بل هي في أحيان كثيرة على وشك الاتلاف والضياع «وإذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها»[2]، ولا يوجد كالوثيقة في تكوين المادة التاريخية، لهذا يجب الاهتمام بكل الأصول التاريخية مهما كان نوعها أو مكانها.

---

(1) نيل الصباغ، **دراسة في منهجية البحث التاريخي**، جامعة دمشق، 1979ــ1980، ص 175.
(2) أسد رستم، **مصطلح التاريخ**، الطبعة II، صيدا، بيروت، بدون تاريخ، ص 1.

وبعد توفير الشروط اللازمة للمؤرخ أو الباحث في التاريخ، تبقى «شخصية الباحث التاريخي، وخياله المبدع والخصب وعملية تفكيره ودقته وثقافته الواسعة، وقوة ملاحظته، وانتباهه، وقدراته وهي الشروط الأولى لنجاح عمله، واقترابه من الحقيقة الثابتة، فالحقيقة التاريخية تبقى حقيقة غير مباشرة، أو هي بتعبير آخر، صورة عملية يكونها الباحث في خياله عبر الصور التي رسمتها له الوثائق، وعبر ربط فكري بين الحاضر والماضي»[1]، لأن المؤرخ لم يعش الأحداث التاريخية لكنه يمكن ان يعيشها من خلال الوثائق التي درسها.

وهكذا، يتبين لنا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عن هذه الوثائق الأرشيفية التاريخية في كتابة تاريخ الجزائر المعاصر، وان أي عمل تاريخي علمي يهدف إلى إعادة بعث أحداث الثورات والمقاومات يمر حتما بهذا السبيل.

---

(1) ليلى الصباغ، دراسة، ص 334.

أضواء على الشيخ العلامة
ابراهيم العوامر السوفي(*)

لا شك أن الجزائر قد عرفت خلال الاحتلال الفرنسي أبشع وأبغض نوعا من أنواع الاستعمار الأوروبي الحديث، حيث احتلت قواته الاستعمارية البلاد وسيطرت على العباد. وعملت سلطاته على تقويض الأسس الحضارية للمجتمع الجزائري بمحاربته الدين الاسلامي واللغة العربية لاجتثاث جذوره ومحو أصوله من أجل ترويج أكبر تزييف متعمد، وأضخم كذبة عرفها التاريخ، الا وهي أن «الجزائر فرنسية».

ولكن لحسن الحظ عرفت الجزائر أيضا طوال هذه الفترة كوكبة من العلماء والصلحاء والفقهاء، والمفكرين والمثقفين، وقفوا كلهم كسد منيع في وجه هذه السياسة، وكشفوا نواياها المبيتة، ومن ضمن هؤلاء نخص بالذكر في هذه العجالة الشيخ ابراهيم العوامر لالقاء بعض الأضواء على جوانب نشاطاته العلمية، وابداعاته الفكرية.

(*) نشر في جريدة «العقيدة» العدد 89 الأربعاء 10 ذو القعدة 1412هـ / الموافق لـ 13 ماي 1992م. ثم نشر أيضا في جريدة «السلام» العدد 498، الخميس 7 ذو الحجة 1412هـ / الموافق لـ 18 جوان و 19 جوان 1992م.

وهو ابراهيم بن محمد الساسي بن ابراهيم بن محمد بن عامر، ولد سنة 1298هـ / الموافق لـ 1881م بمدينة الوادي من أسرة متوسطة الحال تدعى «العوامر» أما والده محمد فقد كان تاجر يبيع الصوف ببلدة قمار، وكان يصحب ابنه ابراهيم للمتجر ليهيئه للتجارة ويستعين به، غير أن الأقدار قد وجهته توجيها آخر، حيث أظهر الصبي ميولا للعلم والتعليم، فحفظ نصيبا من القرآن الكريم في صباه، وتلقى دروسا أولية في الأجرومية وابن عاشر، وبعض مبادىء الفقه والنحو والصرف والأدب على يد شيوخ المنطقة ومنهم الشيخ عبدالرحمن العمودي والشيخ محمد العربي بن موسى الذي أصبح صهره، حينما تزوج الشيخ ابراهيم ابنته.

ولما بلغ أشده تجلت رغبته في الاغتراف من مناهل المعرفة والاكتراع من حياض العلم، فارتحل الى الجريد بالجنوب التونسي لأخذ عن كبار مشائخها، ثم انتقل الى تونس العاصمة لمواصلة دراسته بجامع الزيتونة. وتتلمذ على أشهر مشائخه كالنخلي ــ الذي تأثر به أيضا الشيخ عبدالحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية ــ كما تتلمذ أيضا على يد الشيخ الأخضر بن الحسين والشيخ الحسن بن يوسف وغيرهم.

وبعد أن أتم دراسته بجامع الزيتونة عاد إلى الوادي وتوظف في سلك القضاء فاشتغل بالمحكمة الشرعية بالوادي برتبة «باش عادل».

وقد باشر مهمته ضمن فضاء عالمي وجزائري متميز خلال العقد الأول من القرن الحالي، حيث كان العالم الاسلامي يعيش أحداثا جساما، منها ظهور وتبلور حركة الجامعة الاسلامية بقيادة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وغيرهما من الذين أثروا في المجتمع الاسلامي بأفكارهم المنشورة عبر الصحف والمجلات «كالعروة الوثقى». ومجلة «المنار» التي كانت لسان حال الحركة العبدوية، وكان لها صدى واسع في الجزائر، لانها كانت بمثابة مدرسة اصلاحية متنقلة. كذلك الانقلاب العثماني في سنة 1908

وما أنجر عنه من تغييرات في العالم الاسلامي كالهجوم الايطالي على ليبيا عام 1911، وحروب البلقان لتقليص رقعة الامبراطورية العثمانية، وأحداث أخرى أدت إلى اشعال الحرب العالمية الأولى.

أما الجزائر فقد عرفت عهدا من الأستقرار النسبي على يد بعض الحكام العامين المعتدلين، أهمهم شارل جونار (CH. JONNART) الذي حكم الجزائر في الفترة الثانية من 1903 إلى 1911. والذي حث فيها السلطات الفرنسية على معاملة الجزائر معاملة حسنة لكونها مستعمرة من نوع خاص، حيث يجب الحفاظ على التقاليد الوطنية، ونشر التعليم باللغة العربية، واحترام الشريعة الاسلامية والتخفيف من الضرائب والقوانين الجائرة، وتعيين الكثير من العلماء والفقهاء والقضاة والأئمة، وانشاء المؤسسات الدينية والتعليمية والمطابع لنشر التراث وتشييد المباني الضخمة وفق الطراز المعماري العربي الاسلامي مثل عمارة البريد المركزي بالعاصمة وغيرها من الأمور التي ترمي الى الحفاظ على الجزائر عربية اسلامية، ولكنها مرتبطة بفرنسا ارتباطا وثيقا لا تنفصم إلى الأبد.

ففي هذا الفضاء العالمي والمناخ الوطني برز الشيخ ابراهيم العوامر على ساحة الوادي كمصلح ومرشد يدافع عن حمى الدين واللغة والفضيلة، حيث شاعت الرذيلة نتيجة السياسة الاستعمارية في البلاد. فانتشرت العادات الفاسدة في المجتمع كشرب الخمر وكتعاطي المسكرات والتفسخ والاعتداء على الحرمات، وكسب الحرام والتهريب والاحتكار والغش والرشوة وما إلى ذلك من الأمراض الاجتماعية. لهذا رفع الشيخ صوته عاليا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، واصلاح ما كان فاسدا ضمن خطة رسمها لنفسه، وذلك بجمع الناس حوله في مسامرات دينية ودروس التفسير أو شرح سيدي خليل، وذلك يوميا بعد صلاة المغرب بجامع النخلة بحي أولاد أحمد بالوادي.

واشتهر الشيخ بعلمه وبأسلوبه التربوي الراقي والمشوق الجذاب، حيث تتسم دروسه بالفصاحة والسلاسة والصراحة والشجاعة والطرافة والظرافة مما يجعل الكثير من تلاميذه، ورواده واتباعه من مدينة الوادي ونواحيها كالطريفاوي والزقم وعميش وتاغزوت والعلندة وغيرها، تتزاحم على دروسه والاستفادة من علمه، في حين كانت اللغة العربية والثقافة الاسلامية مهددة بالاهمال لأعراض الناس عنها واقبالهم على التعليم الفرنسي ضمن السياسة الهادفة للتنصير والمسخ والفسخ للشعب الجزائري، وكان الشيخ يستعين في تدريسه بكتاب الشيخ النبهاني «ارشاد الحياري وتحذير المسلمين من تعليم أولادهم في مدارس النصارى». حيث ادرك بوعيه الثاقب وعبقريته الفذة خطط الاستعمار الرامية الى القضاء على اللغة العربية واضعاف العاطفة الدينية والوطنية، فكرس كل جهوده وسخر جميع امكانياته للدفاع عن حمى الوطن، وبذلك استطاع أن يحافظ على صمود اللغة العربية والدين الاسلامي بتشبث الناس بهما.

وما يكاد الشيخ ان ينتهي من التدريس في المسجد حتى ينتقل بعد كل عشاء الى المنزل المخصص للندوات والسهرات مع الأصدقاء والرواد للمسامرة وقراءة الصحف والمجلات وتوعية وايقاظ ضمائرهم بتتبع أحداث وأخبار ما يدور حولهم. وكذلك تتبع أنباء العالم مثل جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي وحروب الدولة العثمانية مع النصارى في البلقان أو الهجوم الفرنسي على المغرب الأقصى، وقد تتواصل هذه الندوات مع الشاي وبعض المرطبات أحيانا إلى ساعات متأخرة من الليل.

لم يقتصر نشاط الشيخ ابراهيم في التدريس والتوعية والترشيد، بل اقتضى بعد نظره اتخاذ الزوايا الدينية باختلاف طرائقها الصوفية كوسيلة أخرى لبلوغ أهدافه ونشر دعوته، ذلك أن هذه الزوايا كانت عبارة عن خلايا تضم العديد من طلاب القرآن، والمريدين والأخوان، وتعقد بها حلقات الذكر والمدائح، لذا فكر الشيخ في ربط صلات ودية مع هذه

الزوايا والانتماء اليها دون تحيز أو تعصب لواحدة دون الأخرى. فكان يتردد على زاوية سيدي سالم الرحمانية بالوادي لينشط داخلها، وقد ألف كتيب يمدح فيه مقدم الزاوية سيدي محمد الصالح تحت عنوان: «البحر الطافح في فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح»، ما زال هذا المخطوط في خزائن الزاوية إلى اليوم.

كما كان يتصل بزاوية سيدي المولدي القادرية بمدينة توزر الجميلة لأنها تستقطب العديد من الطلاب وتضمن لهم الايواء والغذاء والتعليم. فيقوم بالزيارة لها ليلتقي بالأخوان في القطر التونسي الشقيق ليمتن الروابط الأخوية ويتدارس معهم أحوال المسلمين عامة.

كما كان الشيخ المرجع والمفتي في الكثير من القضايا التي تطرح أمام المحكمة، وكان يسهل في افتائه ويخرج في بعض الأحيان من المذهب المالكي إلى غيره من المذاهب ليبسر ولا يعسر تماشيا مع قوله: **«يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»** صدق الله العظيم.

ورغم اخلاقه العالية، وطيبة نفسه، فقد عرف الشيخ بروحه الثورية وبغضبه الشديد للظلم والاستعمار، مما أدى إلى مضايقته من طرف السلطات المحلية الجائرة، وقد دون لنا شاعرنا زهير الزاهري هذه الحالة فيما يلي:

وقد علمت ارشاد الجاري وصوت الحكم في الوادي مخوف
ومن يجهر باصلاح يعاقب وليس هناك قانون لطيف

ذلك ان بعد الحرب العالمية الأولى عرفت الجزائر قيودا جديدة ضمن ما يعرف بمنشورات كليمو نصو سنة 1919 والتي تجازي الجزائريين على مساعدتهم لفرنسا والوقوف معها وقت الشدة، وبدل تنفيذ الوعود المعسولة أثناء الحرب، جاءت القيود المجحفة، لذلك اختلقت السلطات الحاكمة في

الوادي عدة تهم باطلة ضد الشيخ (مثل قضية دية الأرامل اللواتي قتل أزواجهن على الحدود الجزائرية ـ الليبية من طرف الايطاليين)، مما جعلتها تحكم عليه بالنفي من مدينة الوادي وابعاده إلى بلدة أولاد جلال حتى تقطع كل صلة باتباعه وتلاميذته، وتبدد قوته الضاغطة، ضمن سياسة تفكيك كل الجماعات الضاغطة التي تخشاها في أي جهة من الجزائر.

وبعد ان مكث مدة لا باس بها في الزيبان وتتلمذ عليه العديد من الطلاب أشهرهم نعيم النعيمي، حيث يقول زهير الزاهري في قصيدته:

وعلــمت النعيمــي المفــدى وحمزة والزهــور لها قطــوف
فاما يضمــر الأذنــاب طعنــا فمثلك في الرجال هم الأنــوف
وكلهــم هم علــم وذكــر واعــلام الجزائــر هــم الــوف

سعى الشيخ لدى السلطات الفرنسية للعودة إلى الوادي ولكن سمحت له بالانتقال إلى مدينة توقرت باعتبارها قريبة من مسقط راسه، ووجد في صديقه وجاره بالوادي العلامة الطاهر العبيدي خير أنيس ونشاطا معا في حقل العلم والمعرفة، مما جعل ابن باديس يقدم لهما الدعوة لحضور حفل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931. ولكنهما اعتذرا، واكتفيا بحضور تلاميذتهم كحمزة بوكوشة ونعيم النعيمي وغيرهما.

وبعد أن عاش فترة لا باس بها في توقرت أصيب الشيخ بمرض مفاجيء يقال أنه: «داء الوخم»، رجع على أثره الى مدينة الوادي حيث توفي فيها سنة 1934. رحمه الله رحمة واسعة.

مؤلفات الشيخ ابراهيم العوامر:

للشيخ ابراهيم عدة أعمال فكرية هامة، منها ما انقرض وضاع ومنها ما هو محفوظ بيننا، وسنتعرض لها بايجاز كالتالي:

أولا ــ كتاب «الصروف في تاريخ الصحراء وسوف» وقد علق عليه ابن المؤلف الأستاذ الجيلاني بن ابراهيم العوامر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ مع ــ الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، 360 صفحة.

يحتوي الكتاب على الموضوعات التالية:

1 ــ قصيدة للأستاذ زهير الزاهري الأدريسي، رثى بها الشيخ تحت عنوان «إلى روح الشيخ ابراهيم بن عامر».

2 ــ نبذة من حياة المؤلف كتبها أحد تلاميذ الشيخ وهو الأستاذ هاشمي حسني (رحمه الله).

3 ــ توطئة للأستاذ محمد بوبكري (حفظه الله).

4 ــ تمهيد للأستاذ حمزة بوكوشة (أطال الله في عمره).

5 ــ مقدمة الكتاب التي جاء فيها.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد فهذه نبذة لطيفة ومسائل شريفة في بيان أحوال الصحراء وسوف وما اشتملت عليه من الحوادث والصروف، سائليها ولاة الأمور ومن حولهم رحى الأحكام تدور، وعلى الله الاتكال، وإليه المرجع والمآل.

6 ــ تحدث عن المغرب الأوسط أي الجزائر وحدودها الطبيعية وبعض أقاليمها وأشهر مدنها في الشمال، ثم تطرق إلى ذكر بعض المدن الصحراوية كبسكرة وتقرت وورقلة وغرداية والأغواط.

7 ــ الاطار الجغرافي لسوف من حيث الحدود والمناخ وأنواع النباتات والحيوانات والنشاط الاقتصادي والجانب البشري.

8 ــ نبذة تاريخية عن منطقة سوف منذ عهد البربر والكنعانيين إلى الفتح العربي الاسلامي لافريقية، ومرور العرب بسوف.

9 ــ التحدث عن أهم الأحداث التي عاشتها المنطقة، كدخول وخروج بني هلال وبني سليم إلى سوف، وغرس النخيل، وقدوم الولي الصالح سيدي المسعود الى الوادي.... الخ.

10 ــ دخول الدولة الفرنساوية إلى الجزائر، ووصول قواتها إلى الصحراء واحتلالها تقرت، والوادي.

11 ــ مبحث حول الانساب ثم عرض نسب أهل الوادي ونواحيها.

12 ــ مصادر الكتاب، يظهر أن المؤلف قد اعتمد على أمهات الكتب لدراسة موضوعه، أهمها كتاب ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وكتاب الشيخ العدواني، تاريخ العدواني، وابن أبي الدينار القيرواني، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس، والعياشي، ماء الموائد أو رحلة العياشي، وابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار والمعروف برحلة ابن بطوطة، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، وابن عبد ربه، العقد الفريد، وغيرها.

ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الأساسية والضرورية لدراسة تاريخ المنطقة، فهو عبارة على وثيقة تاريخية هامة جدا، لما تحتويه من معلومات غزيرة حول الصحراء وسوف.

ثانيا ــ مواهب الكافي على التبر الصافي، في نظم الكتاب المسمى بالكافي في علمي العروض والقوافي.

كتب على صفحته الأولى مايلي: هذا الشرح للعالم الأجمل والفاضل الأكمل صفوة الابرار وخلاصة الأخيار أبي الشيخ ابراهيم

بن محمد بن عامر السوفي الوادي المصعبي الشباطي الشريف ــ الطبعة الأولى. بمطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1323هـ ــ الموافق لـ 1905م. ويحتوي على 72 صفحة.

استهل المؤلف هذه الرسالة بالبسملة والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا، ثم ذكر مايلي: «أني كنت مشتاقا إلى نظم الكافي، المسمى بالتبر الصافي. فيسره آلله بعد ما كدت أيأس من التلاقي، فمتعت نظري به وبما انطوى عليه من المحاسن، فوجدته عسلا مصفى وماء غير ما سن، فجازى الله مؤلفه خيرا عما أودع فيه من الفوائد، وهذب ونقح وزاد من الدرر اليتيمة... فرأيت أن اكتب عليه الفاظا لطيفة، تفوز بحل مبانيه وتوضيح معانيه الشريفة، فبعد ان يسرت سميتها مواهب الكافي على التبر الصافي، في نظم الكتاب المسمى بالكافي في علم العروض والقوافي. نفع آلله بها كما نفع بأعلها وآلله ولي التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل».

ويحتوي هذه الدراسة على مقدمة وبابين وخاتمة في 68 صفحة. وهي دراسة أدبية ترد على كتاب الشيخ مولود بن الموهوب مفتي قسنطينة حول بحور الشعر الستة عشر، وخصص الخاتمة في القاب الأبيات وغيرها.

ويختم المؤلف هذه الدراسة بالعبارة التالية: «وكان الفراغ من هذه الكلمات عشية يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادي الأخيرة عام 1322هـ اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ــ أمين.

ثالثا «النفحات الربانية على القصيدة المدنية». الطبعة الأولى، بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد 75 تونس 1326هـ (1907م)، يحتوي على أكثر من أربعين صفحة.

يقول المؤلف في هذا الشرح بعد البسملة والحمد آلله والصلاة والسلام على خير الخلق: «وبعد، فقد اشتهرت أناس بالعشق والهيام، بطيبة وساكنها،

نبيه أفضل الصلاة والسلام، وكان من جملة أولئك أوحد الزمان، وعلامة الأوان، الذي ليس له مجاري في هذا الميدان بالمكان، أستاذي الشيخ سيدي الحاج علي بن الحاج نصر الجريدي، القاطن بنفطة الذي اشتهرت نسبته لفرقة بالزبيدي، غاص هذه البحار الزاخرة، وأخذ من مضمونها الألى فاخرة من شذارتها القصيدة المدنية الباهرة، التي جعلها في توجهه للحجاز وبقاعه الطاهرة، واعتنى بنقلها الطلبة لما فيها من النوائح الظاهرة، ولما انطوت عليه من ذكر المحبين وأنوارهم الزاهرة، وكان المطلوب من كل انسان بأن يجعل في عمره شيئا من هذا الشأن... وسميته «النفحات الربانية، على القصيدة المدنية». فأردت أن أشرح تلك القصيدة اقتداء بمن سلك هذا الطريق...».

وهكذا يظهر جليا مقاصد وأهداف هذه الدراسة كما بينه المؤلف في هذه المقدمة.

رابعا ـــ «مطالع السعود تشطير أدبية الشيخ المولود» نشر هذا الموضوع بجريدة الفاروق عدد 56، سنة 1914م.

خامسا ـــ «المسائل العامرية على مختصر الرحبية» طبع بتونس، 1907. وقد عرف من الشيخ ابراهيم أنه شاعر أيضا ثاقب الفكر والحساسية وله أعمال أدبية وشعرية كثيرة حيث ألف العديد من القصائد في الشعر الفصيح والملحون سواء في الحماس أو المدح أو الهجاء، أو الرثاء أو الغناء، وبعض أشعاره نشرت وبعضها الآخر لم ينشر والكثير من قصائده في الغناء بعد أن لحنها بنفسه صارت النسوة تغنيها في الأفراح ولم تزل تغنى إلى اليوم، ومن أهم قصائده في الحماس هي التي قالها الشيخ أثناء الغزو الأيطالي لليبيا ليشجع أهل طرابلس وغريان ويحثهم على الصمود في وجه الغزاة والدفاع عن حمى الوطن، ومواصلة القتال ضد العدو الغاصب، وهي قصيدة طويلة نذكر منها الأبيات التالية:

يا بيت في غريان صح العقلة دورات تبرى كامنات العقدة
حران تتعذب والسرت بجنبه ونصير في نزهات كيف العيد
يا بيت في غريان في رباعه من الصغر ثار واملازمين الطاعة

— —

يا شعر غريان باتش هاني وبات ضده في همـوم يعاني
بالموت والتجريح والغرقان والمال يغدي وزايد التكيد
توصيت يا غريان جيب امقابعي واجمع القوم العاريا واللابس
واهجم على الحيطان هد ضرابس اتحوز الظفر من غير ما تكويد
تتبيت يا غريان هذى أو صاية راهي جميع الناس ليك امراية
تحصو الغفايل كاملة باشفايه هذا لي تصحي ليك بالتوكيد

وغيرها الأشعار الحماسية التي تدغدغ العواطف وتلهب المشاعر الجياشة.

هكذا فإن الشيخ ابراهيم العوامر من العلماء المغمورين المطموسين والمجهولين في هذا الوطن، رغم ما قدمه من أعمال جليلة ما زالت أثارها وبصماتها واضحة على مجرى حياتنا الثقافية والفكرية.

وقد أيقن الشيخ منذ البداية بان انقاذ الشعب وخروجه من وضعيته الصعبة والمزرية، وفك الارتباط من الاستعمار، ومحاربة الجمود والركود، والخضوع والخنوع، سبيله الوحيد هو نشر العلم وتنوير العقول، لذلك كرس حياته وافناها في سبيل ايقاظ الناس للنهوض بمسؤولياتهم من أجل تغيير وضعهم وتصحيح مجرى حياتهم بطرد الغاصب المحتل.

ومهما يكن فقد تحققت احلام الشيخ بعد ربع قرن من رحيله وذلك باستقلال الجزائر سنة 1962 واسترداد سيادتها وكرامتها.

وأخيرا أرجو من هذه المحاولة تعريف الخلف برجال السلف، وإماطه اللثام على بعض جوانب هذه الشخصية الفذة والتي تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة تمجيد أعماله والاستفادة منها.

جهـــاد

الشيخ عبدالعزيز الشريف(*)

لقد مارس الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة جهنمية من أجل محو الخصائص الروحية والقومية للشعب الجزائري، حتى يسهل دمجه بفرنسا، وذلك بمحاربة العقيدة الاسلامية واللغة العربية في عقر دارهما.

وكان من الطبيعي أن يقاوم الشعب الجزائري هذه السياسة تحت قيادة العلماء والفقهاء والشيوخ ومن بينهم نخص بالذكر والتنويه في هذه المناسبة الشيخ عبدالعزيز الهاشمي الشريف السوفي.

نشأة الشيخ عبدالعزيز:

إن الشيخ عبدالعزيز ــ يرحمه الله ــ رجل من كرام الرجال الذين أنجبتهم الجزائر، فهو ذلك الرجل الشريف في نفسه الكريم في أصله المبجل في قومه، رغم هفواته التي يركز عليها الاستعمار وأعداؤه.

فهو ابن الشيخ محمد الهاشمي بن ابراهيم بن أحمد الشريف، ولد بزاوية والده بقرية البياضة ــ ولاية وادي سوف ــ سنة 1898(1) وكان توأما لأخته، كما أنه الابن الثالث للشيخ محمد الهاشمي.

(*) مجلة «الثقافة» الجزائر، السنة العشرون، العدد 109 يوليو، ــ أغسطس ــ 1995.

(1) Archives d'outre-mer, 10h 89, les populations musulmans du souf et leur Evolution politique par le capitaine Robert THIRIET,Chef, de l'annexe d'El-Oued, Octobre, Novembre 1938, p. 34.

تنحدر أصول أسرة الشريف من البوازيد (أبو زيد) وهي من القبائل العربية المنتشرة بين طولقة وبسكرة. وقد هاجر الجد الأول الشيخ ابراهيم إلى الجنوب الغربي التونسي واستقر بنفطة لينشط ضمن الزاوية القادرية. وقد أنجب هناك ابنه محمد الهاشمي سنة 1853 الذي رجع إلى أرض الوطن سنة 1892 حيث أسس زاوية قادرية بالبياضة على غرار أجداده ليواصل نشاطه الديني والفكري هناك، وقد واجه الشيخ محمد الهاشمي منافسة شديدة ومريرة من طرف الزاوية التجانية المجاورة له في البياضة والتي تمثل طريقة «الأحباب» المنتشرة بكثرة في سوف... وكانت السلطات الفرنسية تزكي هذا التنافس، بل وتثير النعرات والفتن بين الطريقتين وتدس أعوانها بين الزاويتين لإشعال النيران بينهما ضمن سياسة «فرق تسُد».

وقد تفطن الشيخ الهاشمي إلى مكايد الادارة الفرنسية فعمل على محاربة الاستعمار الفرنسي، فاستغل ظروف اندلاع الحرب العالمية الأولى ليفجر ثورة عارمة في المنطقة، عرفت بـ«هدّة عميش»، وهذا من أجل تخليص البلاد من ظلم المحتل وأعوانه.

وبعد هدوء العاصفة، وجهت السلطات الفرنسية بالوادي تهمة التمرد على فرنسا إلى الشيخ الهاشمي واعتقلته يوم 16 نوفمبر 1918 لينقل بعد ذلك إلى سجن بسكرة، ومنه إلى سجن «الكدية» العسكري بقسنطينة ريثما يقف أمام المحكمة العسكرية التي أصدرت ضده فيما بعد الحكم بالنفي من الوادي مُدة سنتين... وفي جويلية 1920 رجع الشيخ الهاشمي إلى وادي سوف وحاول التعديل من مواقفه السابقة تجاه الزاوية التجانية وحتى تجاه السلطة العسكرية الفرنسية، وانصب كل اهتمامه في تطوير زاويته وتوسيع نفوذها وثرواتها... وبدأ أيضاً في تهيئة خليفة له، فتوسم الخير في ابنه عبدالعزيز الذي لاحظ عليه الفطنة والنجابة وسرعة البداهة، ذلك أنه حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة

حفظاً جيدا[1]. ثم غادر الوادي سنة 1913 ليلتحق بجامع الزيتونة المعمور بتونس ليزاول تعليمه هناك[2]. وكان أول الناجحين ضمن أقرانه وإخوانه إذ تحصل على شهادة التطويع(*) في حياة والده بامتياز، فعاد إلى الوادي سنة 1923، فوجد والده قد أوقف زاوية عميش وفروعها على أولاده الثلاثة، واشترط في وصيته أن من يخلفه على رأس الزاوية وإدارة أملاك العائلة أن يكون حائزا على شهادة التطويع وعند وفاته في شهر سبتمبر 1923، لم يتوفر هذا الشرط إلا في الابن الأصغر عبدالعزيز، وكان عمره أنذاك حوالي 25 سنة ورغم ذلك فقد آلت مشيخة الزاوية إلى الأخ الأكبر عبدالرزاق ولكنه لم يعمر طويلا في هذا المنصب بسبب حالته الصحية المتدهورة، فتوفي بعد حوالي ثلاثة أشهر من تنصيبه على رأس الزاوية في شهر ديسمبر 1923.

تولي الشيخ عبدالعزيز مشيخة الزاوية:

أصبح الشيخ عبدالعزيز المؤهل الوحيد لمشيخة الزاوية باعتباره المتخرج الأول من جامع الزيتونة، فضلا عن كونه مشهورا بذكائه وفصاحة لسانه ووضوح بيانه، كما كان الشيخ أديبا ظريفا لبقا، لهذا تمّ الاجماع على أن يتولى مشيخة الزاوية القادرية في سوف مع ملحقاتها في كل من تقرت وبسكرة وسكيكدة والجزائر العاصمة، كما يقوم بالاشراف على شؤون العائلة وعلى إخوانه الذين يزاولون تعليمهم بجامع الزيتونة بالاضافة الى العمل المستمر في تطوير أملاك الزاوية وخاصة في غابات النخيل، واستثمار تجارة التمور المزدهرة والمربحة عبر مناطق الجنوب.. حتى أصبح الشيخ عبدالعزيز يعرف بـ«ملك التمور» وهذا ما أثار غيظ المحتكرين الأجانب (نذكر منها المرابي باؤو BAA-Ou) والذين عزموا على إبعاده من هذا الميدان والسطو وحدهم على تجارة التمور واحتكارها لأنفسهم.. وهذا ما تمّ لهم فعلاً فيما بعد.

---

(1) معلومات مستقاة من مراسلة بيني وبين سي كمال الشريف من عنابة وهوا ابن عم الشيخ عبدالعزيز.

(2) A.O.M. 10 J 89, les populations musulmans du souf.

(*) شهادة التطويع تعادل اليوم البكالوريا ولكن يظهر أنها كانت أكثر وأغزر وأعمق منها علما.

سارت حياة الشيخ رتيبة لمدة 12 سنة، حتى قام بأداء فريضة الحج سنة 1936(1). فزلزل هذا الحدث كيانه، لأن المشرق العربي في تلك السنة، كان يعج بأحداث تاريخية وغليان سياسي يتمثل في مواجهة الاستعمار الأوروبي، ففي مصر أبرمت معاهدة 1936، اعترفت فيها بريطانيا بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة وتؤيدها في الأنضمام إلى عصبة الأمم، وجلاء القوات البريطانية عن مصر وتمركزها فقط في منطقة السويس، أما سوريا فقد عاشت ثورة 1936 لطرد المحتل الفرنسي، وفي فلسطين اندلعت الثورة الكبرى وكادت أن تنتصر وتخلص البلاد من الانتداب البريطاني والنفوذ الصهيوني لولا تدخل بعض الأنظمة العربية التي أجهضت الثورة، كما عرف العراق في هذه السنة أيضا انقلابا ألغي على إثره المعاهدات الجائرة...

وهكذا كان الوطن العربي يعيش في هرج ومرج من جراء اشتداد هذه الوقائع السياسية والتاريخية، وقد عايش الشيخ عبدالعزيز البعض من هذه الأحداث، حيث مكث بالمشرق طيلة سنة. أثرت فيه وتشبع بأفكار جديدة... ولعل رواسب الفكر الوهابي والسنوسي قد وجدت صداها في نفسه.

لما رجع الشيخ إلى الوطن أصبح يفكر في طرح أسلوب جديد يعوض الطرقية والتصوف، فبدأ يقترب من أفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين(2) التي طفحت على سطح الأحداث الجزائرية خاصة بعد انعقاد المؤتمر الاسلامي الجزائري العام في شهر جوان 1936(3)، وذهاب الوفد

---

[1] A.O.M., 10 H 89. les populations, p. 36.

(2) تأسست الجمعية بالجزائر العاصمة يوم 5 ماي 1931 ومعظم أعضائها من زملاء الشيخ في الدراسة بالزيتونة. كالميلي والورتلاني، وغيرهما.

(3) جريدة «البصائر» لسان حال جمعية العلماء السنة الأولى، العدد 24، الجمعة 29 ربيع الأول 1355هـ الموافق لـ 19 جوان 1936، عرف هذا اليوم بـ «يوم الجزائر المشهود».

الاسلامي بمطالب الأمة الجزائرية إلى باريس لعرضها على الحكومة الفرنسية. وما تلا ذلك من أحداث، خاصة اغتيال الشيخ كحول (ابن دالي عمر محمود) إمام الجامع الكبير بالعاصمة[1].

تحول الشيخ عبدالعزيز من الطرقية إلى الاصلاحية:

أثرت كل هذه الوقائع في تفكير الشيخ عبدالعزيز، فغيرت مجرى حياته: بعد ما قام بالحج والجوار.. وفكر في أحوال بلاده.. وقارن أوضاع الجزائر التي ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي بأحوال إخوانهم في المشرق، وتفطن الى أن رسالته الحضارية تقتضي أن يناضل باعتباره من رجال الفكر والثقافة العربية الاسلامية... أخذا بعين الاعتبار أفكار المصلح الشيخ الامام عبدالحميد بن باديس الذي يقول في الطرقية «... وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها، وصب العطور عليها...»[2].

لا شك أن هذه التصرفات لا تمت للدين الاسلامي بأي صلة، وهي في مجملها خارجة عن تعاليم الاسلام ومخالفة لسنة رسول الله (عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام) وأصحابه من بعده أيضا، إنما هي ابتداعات ابتدعها أتباع الطرائق الصوفية.

ويظهر الامام ابن باديس دهشته وحيرته في حال المسلمين الجزائريين فيقول: «... نجد السواد الأعظم من عامتنا غارقا في هذا الضلال، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم

---

(1) «البصائر» عدد 31، 19 جمادي الأولى 1355هـ الموافق 7 أوت 1936.
(2) الدكتور محمود قاسم، الامام عبدالحميد بن باديس، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف بمصر، 1968، ص 92.

حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع وتيسير الرزق وإعطاء النسل، وإنزال الغيث ويذهبون إلى الأضرحة... ويدقون قبورهم وينذرون لهم... وتراهم هناك في ذل وخضوع وتوجه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم»(1).

وهذا هو الشرك الخفي وعبادة الأولياء، لهذا تحول الشيخ عبدالعزيز من الطرقية إلى الاصلاحية، وتبرأ من هذه التصرفات، خاصة وهو الذي اغترف من الينابيع الصافية للعلم وأصول الدين الحق، فانضم الشيخ إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كعضو فعّال وبارز فيها بحكم امكانياته العلمية والمالية والاجتماعية، ففي المؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي بدأ أعماله يوم 24 سبتمبر 1937 بنادي الترقي بالعاصمة(2) قدّم الشيخ ابن باديس بعض كبار الرجال الذين لهم أكبر الأثر في بعث النهضة الجزائرية من جمعية العلماء، منهم الشيخ الفضيل الورتلاني والشيخ سعيد صالحي... ثم تقدم هو بنفسه وألقى خطابه الرسمي مقترحا أن يسمى هذا الاجتماع بعيد النهضة الجزائرية، ثم طلب إلى زميله الطيب العقبي أن يقدم الشيخ عبدالعزيز بن الشيخ الهاشمي إلى الحاضرين، وكان لهذا التقديم مغزاه العميق، إذ هو شهادة في الواقع بانتهاء المعركة مع مناهضي جمعية العلماء من أتباع الطرق الصوفية، ذلك أن «الشيخ عبدالعزيز كان من شيوخ الطرق. أمّا اليوم فيجب أن تعرفوه بأنه جندي من جنود الاصلاح ومن أعضاء جمعية العلماء»(3).

ثم أحيلت الكلمة إلى الشيخ عبدالعزيز الذي أبدى تأسفه لتأخره عن الانضواء تحت لواء الجمعية، ووعد بأنه سيبذل كل مجهوداته في خدمة الاصلاح وتبرع لهم بمبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك(4) وهو مبلغ هام في ذلك الوقت.

---

(1) نفسه.

(2) الشهاب، الجزء الثامن من المجلد الثالث عشر، شعبان 1356، أكتوبر 1937، ص 344.

(3) د. محمود قاسم، الامام عبدالحميد بن باديس، ص 77.

(4) A.O.M. 10H 89. les populations, p. 37.

وقد أثار هذا النشاط المتزايد للشيخ عبدالعزيز حفيظة السلطات الفرنسية بالوادي، وأظهروا مخاوفهم من تسرب أفكار الحركة الاصلاحية إلى المنطقة، فيزعزع كيانهم، ويكذب ادعاءاتهم بأن الصحراء هادئة وآمنة وراضية بحالها.

زيارة ابن باديس إلى سوف:

رتب الشيخ عبدالعزيز زيارة لوفد من جمعية العلماء بقيادة الامام عبدالحميد بن باديس إلى الوادي في شهر ديسمبر 1937[1]؛ لتدعيم نشاطه وتكريس أفكار الحركة الاصلاحية في المنطقة، وفي هذا الصدد نستشهد بما كتبه الشيخ محمد خير الدين في مذكراته:

«... انتشرت وفود جمعية العلماء المسلمين في كل مكان، وفي الوفود التي شاركت فيها، وفد الصحراء الذي تكوّن من الشيخ عبدالحميد بن باديس... والشيخ مبارك الميلي، زار هذا الوفد وادي سوف وكانت معقلا من معاقل الطرقية التي تناهض حركتنا الاصلاحية، ولكن الحركة الاصلاحية، سرت في كل مكان وأصبح لها أتباع ينتصرون بها وتنتصر بهم، ومن جملة الشخصيات التي انضمت إلى حركتنا وأصبحت عضوا عاملا في إدارة الجمعية: الشيخ عبدالعزيز ابن الشيخ الهاشمي رئيس الطرقية القادرية...»[2].

وفعلا، كان لهذه الزيارة الوقع الكبير في المنطقة حيث سجل لنا الأستاذ حمزة بوكوشة (يرحمه الله) العضو الاداري لجمعية العلماء وأصيل الوادي تفاصيل هذه الزيارة في جريدة البصائر منها: «... وما كادت

---

(1) Loc-cit.

(2) الشيخ محمد خيرالدين، مذكرات، الجزء الأول، الجزائر 1985، ص 280.

الصحافة. فخية تنشر نبأ إيفاد هذا الوفد حتى هبّ دعاة الفتنة والشقاق وحاولوا تصوير الجمعية وأتباعها لرئيس الملحقة السيد القبطان بصورة شوهاء وقاموا بأدوار في الجوسسة الدينية المدعمة بالاختلاق والافتراء التي يعجز عنها شياطين الانس والجن...»[1]. وهكذا بدأ أصحاب الطرقية في تحريك أعوانهم ليهاجموا الحركة الاصلاحية، فجعل هؤلاء يصفون الرئيس الشيخ ابن باديس بأنه وهابي، وعبداوي، بل أنه «عزرائلي»، رغبة في تنفير الناس منه، وسعيا إلى وأد الحركة في مهدها، ولكن استقبال الوفد كان فوق كل تصور أينما حل.

ففي قمار استقبل الوفد من طرف الشيخ الأخضر شيرو رئيس خلية جمعية العلماء بالوادي[2]، وهو زيتوني، اشتغل باش عدل بمحكمة قمار(*)، وكان معه السيد عبدالكامل النعجي أمين مال شعبة الوادي والسيد قدور نائبه، وحين نزول الوفد من السيارة قدّم له الشاب الناهض السيد الطيب بن السيد الحاج عبدالقادر بن فرحات أحد أعضاء شعبة (تكسبت) وأحد المزاولين التعليم بجامع الزيتونة المعمور... باقة من الأزهار قدّمها بأبيات منها قوله:

يا باقة أدي السلام اللائقا   وإلى الرئيس صلي إحتراماً فائقاً

وفي خارج بلدة قمار تجمع الناس في تظاهرة عظيمة للاحتفاء بالوفد... وتقديم القهوة لهم، وحينما أخذ الوفد مكانه، قام الشيخ محمد الطاهر بن بلقاسم، أحد المتخرجين من جامع الزيتونة، وألقى خطاب الترحيب وقصيدة طالعها:

---

(1) «البصائر»، عدد 93، الجمعة 27 شوال 1356هـ الموافق ليوم 31 ديسمبر 1937.

(2) A.O.M. 10 H 89, Etude sur l'activité des Oulamas dans les térritoires du Sud, février 1938, par GARDEL.

(*) وقد انتقل إلى مناجم الجنوب التونسي، بالمتلوي والرديف ليجمع تبرعات العمال الجزائريين هناك، وجمع مبلغ 700 فرنك قدّمها إلى جمعية العلماء.

هبي بـ قريـة ارمـت وهـي ورحبات اللقاء إلى خير وفـد
مرحبـا بالذيـن هبـوا حتى أحنه ضيعـوه عـن غير عمـد
نفخوا في البلاد روحا فـأمست أمـة تعـرف الحقـوق وتفـدى

ثم سـار الوفد إلى الوادي وتوجه إلى مكتب الحاكم العسكري لزيارة مجاملة للتقيضات الذي ثارت مخاوفه من هذه الزيارة، لكن الشيخ ابن باديس طمأنه وقال له: «أنا كفيل بأن لا يحدث إلاّ ما تحمد عقباه وستفرحون بالأثر الحسن الذي يتركه أثر رحلتنا في قلوب السكان»(1). فقال له الحاكم العسكري: «إن الوادي لا تتوفر على قاعات مناسبة للخطابة». فرد عليه الشيخ عبدالعزيز بأن الخطب تكون في زاويتي، وهي أوسع محل في البلد، ثم خرج الوفد من مكتب رئيس الملحقة ليتناول وجبة الغذاء على مائدة الشيخ عبدالعزيز.

ومن الغد صباح الخميس توجه الوفد إلى عميش، فدخل إلى سوق البياضة وتوجه بعد ذلك إلى المسجد الذي بناه الشيخ الهاشمي فاجتمع عليهم جمّ غفير من الناس فألقى عليهم الشيخ ابن باديس خطابا توجيهياً، ثم عاد الوفد إلى الوادي لتناول الغذاء على مائدة الشيخ عبدالعزيز، وبعد الظهر توجه الجميع إلى الزقم، وتوقف الركب في طريقه بقرية البهيمة (حساني عبدالكريم اليوم) واستقبلهم السكان بكل حفاوة، حيث أقيمت لهم عدة احتفالات. ولم يغادرها الوفد إلاّ والشمس آذنة بالمغيب.

وصل الجميع إلى الزقم مع الغروب، فأقيمت لهم الولائم وانتشرت البهجة والأفارح بمقدم الوفد، وفي السّهرة أسست خلية جمعية العلماء بالزقم من خمسة عشر عضوا برئاسة السيد معمري عبدالرحمن بن علي متخرج من جامع الزيتونة(2). وقضى الوفد الليلة بالزقم، وفي صباح الجمعة رجع

(1) البصائر، عدد 93.

(2) A.O.M. 10 H 89. Etude sur l'activité des Oulamies.

إلى الوادي يحاضر الأمة في زاوية الشيخ عبدالعزيز، لكن المناسبة كانت يوم السوق الأسبوعي، وتقتضي الفرصة أن يقيم الاحتفال في ساحة السوق. فذهب الشيخ عبدالعزيز إلى القبطان ليفاوضه في الأمر، فأذن له، وعقد الاجتماع بساحة السوق وحضره خلق كثير، رغم دسائس الخونة وبعض الطرقيين للتشويش على هذا المهرجان وإفشاله، وقد روّجوا أن رئيس الوفد هو (ابن ابليس) بأفكاره الوهابية الشيطانية، وذلك لتشويه سمعة الامام ابن باديس، حتى يقاطع الناس هذا الحفل تفاديا لأفكاره الخطيرة، ولكن كانت المفاجأة كبيرة حيث حظي الشيخ الجليل والوفد المرافق له باستقبال رائع وبحضور جمع غفير، وبإعجاب الجميع بخطبة الامام ابن باديس التي كان لها وقع في نفوس شباب المنطقة خاصة، وأصبح ذلك اليوم المشهود خالدا ومنحوتا في ذاكرة الكثير منهم — ويتذكرونه إلى اليوم — ويروي بعضهم أن بعض الأطفال قد سخروا لرمي الحجارة على الوفد، لكنهم انبهروا بكلام الشيخ ابن باديس، فتركوا حجارتهم وانضموا إلى الحفل بكل غبطة وسرور للاستماع والاستمتاع بالحديث عن الأخوة الاسلامية والأخوة الانسانية والروابط التي تربط المجتمع، ثم قدّم الشيخ عبدالعزيز باقي أعضاء الوفد الذين ألقوا كلماتهم على التوالي وهم الشيخ العربي التبسي والشيخ مبارك الميلي وحمزة بوكوشة ومحمد خيرالدين، وبعدها طلب من الحاضرين الانصراف، حيث وقت صلاة الجمعة، وبعد الصلاة تناول الوفد طعام الغداء على مائدة الشاب البشير شيحمة.

وبعد ذلك ذهب الوفد إلى مكتب الحاكم العسكري لتوديعه، وإعلامه أن الزيارة قد انتهت بدون أي حادث، والجدير بالذكر هنا هو أن أسلوب جمعية العلماء في عملها كان دائما أسلوبا هادئا وسلميا حتى يطمئن له الحكام الفرنسيون، حيث تقوم الجمعية بتهيئة الأرضية الصالحة للزراعة أولا ثم تغرس فيها بذور الثورة، وتسقيها رويدا رويدا حتى تنبت وتترعرع. ويقطف ثمارها الناضج فيما بعد.

غادر الوفد الوادي واتجه إلى تكسبيت حيث استقبلهم الشاب الطيب فرحات[1]، ثم توقف في كوينين عند السيد حمويا عبدالوهاب بن ناقا الذي تبرع للجمعية بمبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك[2]، وانتقل الوفد بعد ذلك إلى تاغزوت عند زاوية الشيخ العيد التجاني.

ومن الغد وصل الوفد إلى قمار حيث ألقى الشيخ ابن باديس درسا قيما وتبعه الشيخ خيرالدين والعربي التبسي ومبارك الميلي، ثم جاء دور الشيخ عبدالعزيز فقام وقال: «إن الطرق بدعة لا أصل لها في الدين فحسبكم التمسك بالكتاب والسنة» وقال أيضا: «أنظروا أيها الاخوان إلى الفرق بين العلماء وشيوخ الطرق، العلماء أتوكم مجتمعين لتبليغ العظات وشيوخ الطرق يأتونكم متفرقين في سباق لأخذ الزيارات... الطرق شتتكم وأضرت بكم في دينكم ودنياكم والعلماء يريدون إرجاعكم إلى الكتاب والسنّة وتعليمكم العلم الصحيح». (البصائر عدد 95).

ومن قمار انتقل الوفد إلى الرقيبة لزيارة مسجد البلدة لمصالحة الفرقاء، حيث يذكر الشيخ محمد خيرالدين: «... فقد زرنا (الرقيبة) وهي بلدة صغيرة تتنازعها طريقتان هما: القادرية والتجانية، وقد بلغ الشقاق بينهما شأواً بعيداً فحرّموا التعامل والتزاوج بينهما، وقسّموا المسجد الجامع شطرين. أقاموا في وسطه جدارا فاصلاً جعل من المسجد مسجدين...»[3].

تأثير الزيارة على المنطقة:

كان لهذه الزيارة الأثر العميق عند الشيخ عبدالعزيز، دفعته لتكثيف نشاطه وتنقلاته عبر القرى والمداشر شمالا وجنوبا كالبييمة والرقم والدبيلة

---

(1) «البصائر»، عدد 95، 12 ذي القعدة 1356، الموافق لـ 14 جانفي 1938.

(2) A.O.M, 10 H 89, Etude.

(3) خيرالدين. مذكرات. ص 281.

والمقرن معقل التجانية هذا تعرض في المقرن إلى مضايقات القياد ومقاديم التجانية، كما زار قمار والعلندة والرباح والعقلة وغيرها لنشر أفكار الحركة الاصلاحية والدعوة لها ضمن التوجيهات الدينية والعلمية لاحياء نفوس الناس وتنبيههم من غفلتهم وإيقاظ ضمائرهم لانارة الطريق الصحيح لهم.

وفي هذا الاطار نظم الشيخ عبدالعزيز زيارة للشيخ الفضيل الورتلاني إلى الوادي في آخر شهر جانفي 1938، بدون رضا خلية الوادي(1).

كان الشيخ الورتلاني يتّقد حماساً بمواقفه الصريحة ونقده اللاذع، فكان لهذه الزيارة الصدى الواسع عند الناس لما طرحته من مواضيع ساخنة أغضبت الحاكم الفرنسي، الذي بدأ يترصد خطوات الشيخ عبدالعزيز ويضمر له الشر، ولكن الشيخ لم يبال بملاحظات الادارة المحلية، وزاد من تحركاته وعقد عدة اجتماعات بالوادي وعميش ليفضح أعمال القياد وأعوان الادارة الاستعمارية والمرابطين الذين يستغلون الشعب.

ومما زاد في تفاقم أوضاع الناس هو الجفاف الذي ساد المنطقة لعدة سنوات، أدى إلى موت أعداد كبيرة من الماشية والابل. فتضرر بذلك الأهالي، كما أن منتجات التمور لموسم 1938/1937 ضئيلة جداً، وبذلك اشتدت الأزمة وانتشرت المجاعة، جعلت الشيخ عبدالعزيز يقوم من حين لآخر بعملية «الصدقة» أي التبرع ببعض المواد الغذائية للفقراء، ففي أحد المرات ذبح جملين، تصدق بلحمهما مع الخبز، وبعد ذلك أرسل برقية إلى وزارة الداخلية جاء فيها: خمسة آلاف رجل وامرأة اجتمعوا بزاوية القادرية بالوادي للاحتجاج ضد أي مساس مباشر أو غير مباشر بالتشريعات الشخصية. عبدالعزيز بن محمد الهاشمي قائد الطريقة القادرية لافريقيا الشمالية»(2).

---

(1) A.O.M. 10 H 89. les populations... p. 39.
(2) Ibid. p. 41.

وكان لهذا النشاط استجابة كبيرة عند شباب سوف بعد. لأن هذا تأسيس المدارس لنشر العلم والتعليم وفق مناهج جمعية العلماء، فحول جزءا من زاوية البياضة إلى أقسام للتعليم العصري، وفي شهر مارس 1938 وبعد بيع محصول التمور، وظف نقود هذه العملية في تهيئة زاوية الوادي ــ التي شرع فيها أبوه منذ سنوات خلت ــ لجعلها جامعة تستوعب أكثر من خمسمائة طالب جزء منهم يخضع للنظام الداخلي. ولهذا جهزت قاعتان كبيرتان للمحاضرات وعشرين غرفة فردية، كما خزن فيها التمور والأرز(1)، واستقدم لها أساتذة أكفاء كالشيخ علي بن ساعد والشيخ عبدالقادر الياجوري المعروفين بغزارة علمهما وبراعتهما في ميدان التعليم والارشاد. كما درس في هذه المدرسة الأستاذ لعروسي ميلودي والشيخ معراج دربال وغيرهم. فعرفت المنطقة بذلك حركة علمية تعمل على البعث الحضاري ونشر الوعي الفكري، أثارت تخاوف السلطات الاستعمارية، فحاولت معارضتها وهدمها عن طريق أعوانها الذين سربوا الاشاعات، بأن التلاميذ الذين يزاولون تعليمهم بهذه المدرسة وبهذه الطريقة العصرية ــ داخل أقسام وعلى المقاعد والمناضد ــ سيمسخهم الله إلى قرود، وقد انتظر بعض الأطفال الفضوليين عملية تحول هؤلاء إلى قرود من وراء نوافذ الأقسام(2)، لأن بعض الناس كانوا لا يرون التعليم والاسلام إلا في الطرقية.

ورغم ملاحظات السلطات المحلية، فإن الشيخ عبدالعزيز لم يتوقف، بل واصل مشروعه التعليمي، ولم يعترف بمرسوم 10 أكتوبر 1892 واعتمد على مرسوم 8 مارس 1938 الذي يراقب التعليم في المدارس القرآنية، لأن الشيخ يعتقد أن التعليم في الزوايا غير مراقب، ونستشهد في هذا الصدد بمقال ابن باديس في «البصائر» تحت عنوان «الشيخ عبدالعزيز بن الهاشمي والاصلاح».

---

(1) Ibid, p. 42.

(2) ذكر لنا هذه القصة السيد أحمد ميلودي أخ الأستاذ لعروسي خلال الندوة الفكرية الرابعة لمحمد الأمين العمودي، الوادي، ماي 1991.

... شرع عبدالعزيز بعمارة زاوية بالعلم وعين رجلين لتعليم من بلدة سيدي ... متخرجين من جامع الزيتونة المعمور هما الشيخ علي بن سعد والشيخ عبدالقادر الياجوري،... وجمع عددا من الطلاب وحضر لهم مؤونتهم وأحدث حركة العلم تدب بين الناس والرغبة فيه تنمو في الطلاب. دعا الحاكم الشيخ عبدالعزيز في شأن التعليم وطلب الرخصة ورد الشيخ بأن الزوايا من قديم الزمان تعلم بدون رخصة وتكرر الأخذ والرد في الأمر وفيهم أن الإدارة مستثقلة لتلك الحركة العلمية وتخوف الناس حتى كانت الكارثة....(1).

ثورة الوادي:

لما شعر الشيخ عبدالعزيز بمؤازرة إخوانه وطمأنته لانطلاقة الحركة الإصلاحية، أراد أن يأخذ نصيبا من الراحة ليعالج أسقامه. فقرر أن يسافر إلى باريس لإجراء عملية جراحية هناك، فطلب رخصة السفر إلى فرنسا من الوالي العام للجزائر، فتأخرت عنه بعض الشيء، مما اضطره إلى المعالجة ببسكرة، أين تحصل على تأشيرة السفر يوم 12 مارس. وعوض أن يسافر إلى باريس للمعالجة رجع فجأة إلى الوادي يوم 10 أفريل 1938 لأنه علم خلال سفره السريع إلى العاصمة أن السيد ميلييوت (MILLIOT) المدير العام للشؤون الأهلية وأقاليم الجنوب سيقوم بزيارة تفقدية إلى الوادي يوم 12 أفريل 1938، لهذا عزم الشيخ على تنظيم مظاهرة احتجاجية على تصرفات السلطات المحلية بحضور هذا الموظف السامي.

لهذا استدعى الحاكم العسكري بالوادي الشيخ عبدالعزيز يوم 12 أفريل في الصباح ليعلمه رسميا أن أي مظاهرة ممنوعة، فرد عليه بأن المظاهرة ستنظم مهما كانت التكاليف، وفعلا، بعد الظهر من يوم 12 أفريل

---

(1) البصائر، عدد 113، 24 جمادي الأولى 1357 هـ الموافق لـ22 جويلية 1938.

وبمجرد وصول السيد المدير العام تظاهرت جماهير غفيرة قدرتها الوثائق الاستعمارية بحوالي 1200 شخص، اعتصموا بشبابك مقر الحاكم العسكري إلى الساعة الثامنة ونصف ليلا.

وفي نفس الوقت استقبل السيد ميليوت المدير العام الشيخ عبدالعزيز في مكتب ودارت بينهما مفاوضات عسيرة استغرقت حوالي ثلاثة ساعات تمحورت حول عريضة السكان، الذين يعبرون فيها عن غضبهم على تصرفات المصالح الاستعمارية، كما قدم شكوى بالحاكم العسكري بالوادي المتواطيء مع قياد المقرن وشيوخها الذين ضايقوه ولم يفعل لهم أي شيء.

ويمكن إجمال ما جاء في عريضة السكان في النقاط التالية:

ــ رفع الظلم والتعسف على السكان من قبل الادارة الفرنسية وأعوانها خاصة القياد.

ــ المحافظة على المقومات الحضارية للأهالي بانتشار التعليم باللغة العربية واحترام تعاليم الاسلام، ورجاله مثل ما تفعله الادارة مع الآباء البيض التي تزكي حركتهم التبشرية.

ــ مساعدة الفقراء والمحتاجين بالحبوب والغذاء، وطالب بتزويدهم بـ 10 قناطر من القمح(1).

وافق الموظف السامي على هذه المطالب وأخبر الشيخ عبدالعزيز أنه سيرفعها إلى السلطات العليا، ولكن الأمور تطورت واشتد الغضب بالشعب فاندلعت ثورة في البلاد، أسفرت عن اصطدامات دموية بين السكان وقوات الطواريء الفرنسية التي حاصرت المنطقة بحشود ضخمة للقضاء على هذه الثورة والتي تحتاج إلى دراسة خاصة لمعرفة تفاصيلها.

---

(1) A.O.M 10 H 89. les populations... pp. 46-49.

وخلال هذه الثورة علقت بالمساجد بيانات تدعو الناس إلى الهدوء والعودة لمصالحهم، ومن بين ما جاء في هذه المعلقات: «لا تتبعوا هذه الفئة الضالة، وعودوا إلى أعمالكم، إن فرنسا عظيمة وهذا هو سبب حلمها إلاّ أنها تعامل بقوة فعالة عندما تلجؤها الضرورة لذلك»(1).

وبعد هدوء العاصفة ألقت السلطات الفرنسية القبض على الشيخ عبدالعزيز وزملاءه الشيخ خرن علي بن سعد والشيخ عبدالقادر الياجوري والتاجر المناضل السيد عبدالكامل النجعي وزجت بهم في السجن ويذكر الامام ابن باديس في جريدة «البصائر»، عدد 121(2). وقائع كارثة سوف الأبحة بما يلي:

«... عج وادي سوف يوم 18 أفريل بالجنود والعتاد، ورصعت رباه بالمدافع الرشاشة وأرعدت أجواؤه بأزيز الطائرات فأوشك أهله ونساؤه وأطفاله وبيوته ونخيله أن تنسفهم قنابل الأرض أو تمحقهم صواعق السماء، فذهلت المراضع ووضعت نحو الثلاثين امرأة حملها... وأصبح الوادي على حين بغتة وقد عطلت أسواقه، وسدت طرقاته، ومنع عنه الداخل والخارج وضرب عليه نطاق شديد مُحْكم الحصار... ألقي القبض على الشيخ عبدالعزيز الهاشمي والشيخ علي بن سعد والشيخ عبدالقادر الياجوري والسيد عبدالكامل بن الحاج عبدالله وسيقوا إلى السجن بقسنطينة، وحشرت جماعات من الناس إلى المركز الاداري وزج بهم في السجن ثم حكم على عدد وفير منهم بالنفي والسخرة، كل هذا والناس معتصمون بالصبر ومنتظرون للفرج... ثلاثة أسابيع ذاق فيها أهل الوادي ما ذاقوا وطافت فيها ا لجنود شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً...

---

(1) مراسلة سي كمال الشريف.

(2) البصائر، عدد 121 من جمادي الأولى 1357هـ، الموافق لـ7 جويلية 1938.

جاءت لجنة البحث للكشف عن أصل الحوادث والاطلاع على حقيقة الواقع، وساق إليها القياد الناس ليشهدوا، وقد جدوا واجتهدوا في جمع الشهود، تحت مظاهر الرهبة والخوف.

قامت لجنة البحث بواجبها بنزاهة وإنصاف وتحققت أن لا ثورة ولا هيجان، وأن لا شيء دبر ضد الحكومة أو الأمن العام، ففك الحصار عن البلد وسرح الموقوفون وقفلت الجنود راجعة... ورفع ذلك الكابوس الثقيل عن الوادي الهادي المطمئن إلاّ ما بقي من مظالم بعض القياد».

ورغم ذلك فإن الشيخ عبدالعزيز ورفاقه بقوا في السجن بدون محاكمة وتكفلت جمعية العلماء بالدفاع عنهم وتخليصهم من السجن، مستعينة بالمحامين ورجال القانون.

وقد عالج ابن باديس هذا الموضوع في عدة مناسبات في جريدة «البصائر» فقال في إحداها أن هؤلاء الشيوخ دخلوا السجن «... ضحية عقيدتهم الاسلامية وقيامهم بواجبهم الديني نحو إخوانهم المسلمين أهل ديار سوف...»(1).

وفي مقال آخر كتبه ابن باديس في «البصائر»، عدد 178، تحت عنوان: هل في سجن «الكدية» ما يذكرنا بـ(الباستيل)؟

تحدث في بدايته عن سجن الباستيل والثورة الفرنسية 1789 والذكرى 150 سنة التي مرت على سقوط هذا المعتقل الرهيب، ثم ربط هذا الموضوع بمساجين العلماء التي جاء فيه.

---

(1) البصائر، عدد 134، 13 شعبان 1357، الموافق لـ 7 أكتوبر 1938.

«وها نحن في الجزائر نرى ذلك ونتجرع آلامه، ففي سجن «الكدية» بقسنطينة قد ألقى أربعة من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دون جرم معلوم، ودون أن يقدموا للمحاكمة أربعة من العلماء: الشيخ عبدالعزيز بن الهاشمي والشيخ عبدالقادر الياجوري والشيخ علي بن سعد والسيد محمد الكامل مضت عليهم في السجن سنة وأربعة أشهر مع المجرمين... إننا لا نطلب العفو والافراج عنهم، وإنما نطلب تقديمهم للمحاكمة ونشر قضيتهم أمام العدالة والرأي العام، إننا على ثقة من براءة أصحابنا... فإلى المحاكمة إن كنتم تريدون نصرة العدل وجمال الحرية»(1).

ثم طالب ابن باديس في العدد الموالي معاملة هؤلاء المساجين العلماء معاملة تليق بمكانتهم الثقافية والاجتماعية حيث لا يمكن حشرهم مع اللصوص والمجرمين لأنهم سجناء الرأي والأفكار والسياسة.

مكث الشيخ مع رفاقه بالسجن حوالي أربع سنوات ثم حكم عليهم بالابعاد والاقامة الجبرية، فأقام الشيخ عبدالعزيز في أول الأمر في شرشال ثم انتقل إلى أزفون وأخيرا إلى الجزائر العاصمة، وقد أسس بهذه المناطق مراكز للاشعاع الحضاري من مساجد ومدارس لنشر العلم بين أبناء الوطن.

وكانت أول زيارة له للجنوب، بعد هذه المحنة هي رحلته إلى بسكرة سنة 1946 والتي استغرقت مدة قصيرة، وحاول بعدئذ عدة محاولا للرجوع إلى الوادي ولكنه لم يفلح، وفي سنة 1953 نفي الشيخ عبدالعزيز من التراب الوطني وأبعد إلى القطر التونسي الشقيق، فوجد الحالة السياسية متأزمة أبان الثورة التونسية، حيث تطارد السلطات الاستعمارية الزعماء والمجاهدين وتتابع الدستوريين، مما جعل الشيخ يركن للهدوء ويستكين للاستقرار، فلم يقم بأي نشاط سياسي.

---

(1) البصائر، عدد 178 جمادي الثانية 1358، الموافق لـ 11 أوت 1939.

استقرار الشيخ عبدالعزيز بتونس:

استقر الشيخ بتونس العاصمة، وحين اندلاع الثورة الجزائرية في أول نوفمبر 1954 أيد الشيخ عبدالعزيز الثورة بكل حماس وقدّم الدعم والتأييد لجبهة التحرير الوطني، حيث تبرع لمصالحها بتونس بمحلات ودكاكين من أملاكه لتستعملها الجبهة في أغراض الثورة، كإيواء المجاهدين وأبناء الشهداء، ومكاتب إدارية وغيرها. واستمر الشيخ في تدعيم الثورة حتى تحصلت الجزائر على استقلالها، غير أن الشيخ لم يرجع إلى أرض الوطن بل بقي بتونس، ولازم داره ولم يقم بأي عمل سياسي أو ثقافي يذكر، وكانت وفاته في تونس سنة 1965 وهو في صحة جيّدة... بعد أن بلغ من العمر ما ينيف على السبعة وستين سنة؛ رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

إذن، هذه هي لمحة وجيزة ومضيئة لأحد الشخصيات الوطنية، والتي قامت بحركة نشيطة للبناء الفكري والروحي للأمة الجزائرية خلال أحلك الظروف، وكتب صفحة خالدة في تاريخ نضال المنطقة.

وأخيرا فإن هذه الدراسة تدخل ضمن اطار كسر حاجز التهميش والنسيان، لبعض رجال هذه الأمة المجيدة، والذين يحتاجون إلى المزيد من البحث والتنقيب، والله ولي الوفيق.

فهرس الموضوعات

مقدمة: 7
دوافع احتلال فرنسا للجزائر: 13
بناء دولة الأمير عبدالقادر: 27
احتلال بوابة الصحراء (بسكرة عروس الزيبان): 39
ثورة الزعاطشة: 75
دور بني هلال في تعمير الصحراء الجزائرية: 93
أطماع فرنسا في الأغواط: 105
من تاريخ أولاد سيدي الشيخ: 133
ثورة بوعمامة: 165
التاريخ حقائق ووثائق: 193
أضواء على الشيخ العلامة ابراهيم العوامر السوفي: 209
جهاد الشيخ عبدالعزيز الشريف: 221
فهرس: 241

ahmed histoire

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية . بن عكنون
الجزائر

ahmed histoire